سِيرةُ جلال

مذكرات

د. جلال مصطفى السعيد

سيرة جلال

مذكرات

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج علي

سيرة جلال

مذكرات

د. جلال مصطفى السعيد

الإخراج الفني

عصام المرسي

تنفيذ

مصطفى عبد الرؤوف

التصحيح اللغوي

طلعت الجندي

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٢٠

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩(٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦(٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276
website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

السعيد، جلال مصطفى محمد، ١٩٤٨ - ٠٠.
سيرة جلال: مذكرات/ جلال مصطفى السعيد. ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٩.
٣٥٢ ص؛ ٢٣ سم.
تدمك ٣ ٢٦٠٤ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ السعيد، جلال مصطفى محمد، ١٩٤٨ - ٠٠ -
المذكرات الشخصية.
٢ ـ الوزراء
أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥٩٩٥/ ٢٠١٩

I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 2604 - 3

ديوي ٩٢٠

الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب.
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة الا بإذن كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب،أو بالإشارة إلى المصدر

سيرة جلال

مذكرات

د. جلال مصطفى السعيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٢٠

تقديم

تصفحتُ بغاية الاهتمام مسار حياتك الغنية بأحداثها، فالسير الذاتية ليست أيامًا تمر تتشابه أو تتكرر فيها الأحداث، وإنما هي خبرات تُكتسب لا بد أن يستفيد منها الكافة؛ ومن ثم ينبغي أن تكتب بالعمق الذي تستحقه.

وطبيعي إذًا يقترن عرض مسار الحياة بالتركيز على ما تراكمت به خبرة الإنسان؛ لذلك فإن تناول الإنسان لذاتية أوضاعه، من المهم أن لا يقتصر على السرد بل يكتسب الشمول لنتائج الخبرة التي تراكمت على مر السنين.

هذا ما لاحظته في الغالب علي هذه السيرة الذاتية، التي حرصت على إظهار النتائج المهمة لمسار صاحبها وما واجهه من ظروف خارجية وداخلية تم التغلب على سلبيات الكثير منها وأدوات ذلك، وما أداه للمجتمع بما أسهم في نموه وتقدمه.

إن هذه المذكرات، التى اتخذت عنوان "سيرة جلال" تظهر بوضوح أن صاحبها فى واقع الأمر ما زال هو صاحب العطاء المتميز، وأنه قادر على

استمرار العطاء، وهى هادية للجميع، والشباب فى المقدمة، إذ تحث على التسلح بالعلم وبناء الشخصية المؤهلة والقيادية والقادرة على تحمل المسئولية، ومواجهة الصعاب وهو الأمر الذى ظهر جليًا فى السجل الأكاديمى الناصع، وفى الجهود والأعمال المتميزة والمواقع التنفيذية والسياسية المتعددة التى احتلها صاحب السيرة فى خدمة المجتمع والوطن فى مرحلة مهمة من تاريخه.

جزيل الشكر والتقدير للدكتور الفاضل جلال مصطفى السعيد، صاحب هذه السيرة الذاتية، ودعائي له بدوام التوفيق.

كمال الجنزورى

شكر وتقدير

أقدم شكرى وتقديرى للكاتب الكبير الأستاذ أحمد الجمّال على مراجعته الأدبية لنسخة أولية من هذه المذكرات، وعلى نصائحه القيمة فى شأن البنيان الأساسى لها، لقد كان لملاحظاته ونصائحه، التى تم تداولها فى أكثر من لقاء أثر كبير فى صياغة النسخة النهائية التى أتشرف فأضعها بين يدي القارئ الآن.

شكرى أيضًا للأديب والمبدع الأستاذ سمير غريب على نصائحه القيمة ومساعدته فى ترتيبات النشر.

الشكر موصول كذلك للدكتور خليل عبد العال العميد السابق لكلية دار العلوم بجامعة الفيوم على مراجعته اللغوية، ولابنتي الدكتورة داليا التي ساعدت في الإخراج والتوضيب النهائي للمذكرات وللأستاذة إيمان أحمد، التي قامت بأعمال الطباعة.

الفصل الأول

مقدمة

مقدمة

وُلدت في ١٤ أغسطس عام ١٩٤٨ في الشرقية، لأب من أصول ريفية، تنقَّل في وظائف حكومية بعد ذلك، وحرص أن يكون مولد معظم أبنائه وبناته هناك حيث نشأ. وما أتذكره بعد مولدى لا يبدأ إلا من عام ١٩٥٤م، حيث كنت في ملوي بالمنيا حيث التحقت بأولى سنوات التعليم الابتدائى، وكانت بقية سنوات هذه المرحلة الابتدائية في عدة محافظات، حيث كانت السنة الثانية في بيلا بكفر الشيخ، والثالثة والرابعة في المطاعنة بمحافظة قنا (محافظة الأقصر حاليًا)، والسنة الخامسة في إدكو بمحافظة البحيرة، والسنة السادسة بمدرسة عمر لطفي الابتدائية في حي السيدة زينب في القاهرة.

مع بداية المرحلة الإعدادية كانت المحطة الأولى هى مدرسة محمد على الإعدادية بالسيدة زينب، يليها مدرسة الأورمان الإعدادية النموذجية بالدقى، حيث انتهيت من هذه المرحلة عام ١٩٦٣م متفوقًا، وحصلت على ترتيب الخامس على محافظة الجيزة، وعلقت المدرسة اسمي على لافتة قماش كبيرة بعرض واجهة المدرسة المقابل للمتحف الزراعى، وقد أهلني هذا التفوق للالتحاق بمدرسة المتفوقين الثانوية النموذجية بضاحية عين شمس (الريفية في ذلك الوقت)، وكانت تقبل في ذلك الوقت خمسة من العشرة الأوائل في كل محافظة، حيث حصلت على الثانوية العامة بتفوق والتحقت بكلية الهندسة جامعة القاهرة عام ١٩٦٦م.

وفي المرحلة الجامعية التى بدأت في عام ١٩٦٦م، وانتهت في عام ١٩٧١م ... مرت البلاد خلال تلك الفترة بأحداث جسيمة، لعل أهمها حرب يونيه ١٩٦٧م، وتنحّي الرئيس جمال عبد الناصر ثم عودته بعد خروج الملايين إلى الشوارع ومظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨م، وإعادة بناء القوات المسلحة وحرب الاستنزاف، ثم وفاة عبد الناصر عام ١٩٧٠م وهو الحدث الذى هز البلاد بطولها وعرضها، وعلى إثره خرج الملايين يودعونه إلى مثواه الأخير في تراتيل جنائزية، كانت تخلع القلوب عند سماعها ومازالت حتى الآن.

عبد الناصر كان زعيمًا للأمة وقائدها ... وعلى يديه كانت أهم التغييرات الاقتصادية والاجتماعية في الدولة المصرية في القرن العشرين، وهو من دعم حركات التحرر في أفريقيا والعالم العربى؛ ولذلك أحبه الناس البسطاء، ومثَّل لهم طوق النجاة إلى حياة أكثر عدالة، وبها تكافؤ أكثر للفرص وخلق فرصا لجميع طبقات الشعب للالتحاق بالتعليم الحكومى المجانى، الذى كان لا يقل في جودته عن مثيله في أى مكان في العالم.

ارتباطى وجيلى كله بعبد الناصر كان لهذه الأسباب، أما ارتباطى أنا شخصيًا فكان بسبب زمالتى مع خالد عبد الناصر، التى بدأت حينما تصادف أن كان من بين أبناء دفعتى في هندسة القاهرة عام ١٩٦٦، ولقرب الحروف الأولى لاسميا، فقد كنا في مجموعة دراسية واحدة وتخرجنا سويًا بتفوق عام ١٩٧١، وشغلنا سويًا أيضًا وظائف معيدين بعد التخرج وفي نفس التخصص، وحصلنا على الماجستير سويًا من جامعة القاهرة مع نفس المشرف، وسافرنا إلى الخارج، هو إلى لندن، وأنا إلى كندا، وعدنا بالدكتوراه، وأصبحنا أساتذة في الجامعة بعد ذلك في مجال تخصص واحد، وتشاركنا في العمل الاستشارى بعد ذلك.

لقد عرفت جمال عبد الناصر، وقابلته، وصافحنى، وصافحته، ودخلت بيته في منشية البكرى عدة مرات حال حياته وعشرات المرات بعد وفاته، وعرفت معظم أفراد العائلة، ولقد كان أول لقاء لى في مواجهة الزعيم بالصدفة وذلك في عام ١٩٧٠ قبل وفاته بشهور قليلة، وكنت أسترجع بعض دروس الهندسة مع صديقى خالد عبد الناصر في بيت الزعيم، وخرج خالد وأغلق خلفه الباب ثم عندما انفتح الباب بعد ذلك بعشر دقائق، وقد ظننت أن خالدا قد عاد، فإذا به الرئيس عبد الناصر نفسه بطوله الفارع ونظرة عينيه النافذة، وقفت وحدى في الغرفة أصفق كما كنا نصفق جميعًا عند مرور موكبه في الاحتفالات الرسمية، ولا شك أنه قد أشفق على هذا الشاب الصغير الواقف بذهول أمامه، وربت على كتفي بأبوة خالصة وسألنى عن خالد ولم أجرؤ على الإجابة ... ومضى، وظللت واقفًا مذهولاً لوقت لا أتذكره حتى عاد خالد وأقعدنى على كرسى قريب حتى أفقت من حالة الذهول التى تملكتنى.

بعد ثلاث سنوات من التخرج وفي عام ١٩٧٤ سافرت للدراسة في كندا، وانتهيت من الدكتوراة في ١٩٧٩ وقضيت سنة للتدريب في وزارة النقل في الحكومة الكندية وكانت السنوات الست التى قضيتها في كندا عامرة بالتجارب والمواقف والفرص والتعامل مع مجتمع جديد متقدم ومتفتح وتعلمت في هذه المرحلة أن أكون قويًا ليحترمنى الناس، وألا أخشى أحدًا وأن أقول رأيى بوضوح وصراحة مهما كلفنى ذلك.

كانت هذه المرحلة في أعقاب حرب ١٩٧٣، وقد خرج الآلاف من المصريين للعمل أو الدراسة في الخارج إلى الدول العربية للعمل بعد تزايد عائدات هذه الدول من ارتفاع أسعار البترول بسبب الحرب التى قادتها مصر، وعلى التوازى مع ذلك كانت هناك موجات أخرى من السفر للدراسة في جامعات أمريكا وكندا، ومعظمهم من معيدى الجامعات الذين حصلوا على أعلى الدرجات العلمية في تخصصاتهم، وعاد بعضهم واستمر

بعضهم هناك حتى الآن، ونجحوا وتولوا مناصب علمية مرموقة، ومنهم من صاروا رؤساء لجامعات أو عمداء لكليات.

تزامنت فترة دراستى في كندا مع مرحلة الانفتاح في مصر ومع مجهودات الرئيس السادات لكسر جمود الوضع في المنطقة، بعد انتهاء الحرب دون انسحاب إسرائيل من كامل الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧، وتابعنا نحن المصريين في الغرب انبهار العالم بشجاعة الرئيس السادات وزيارته التاريخية لإسرائيل، وما نتج عنها من ترتيبات الانسحاب من سيناء، وشاهدنا أيضًا كيف ضاعت فرصة أن يستفيد الفلسطينيون من هذه المبادرة كما لم تستفد منها سوريا أيضًا، وهو الأمر الذي مازال يلقى بظلاله على المنطقة حتى الآن.

خرجت من مصر عام ١٩٧٤ لا أملك شيئًا، وبعد سنوات الدراسة للحصول على الدكتوراة عام ١٩٨٠ ورغم ما تجمع لدى من خبرات ومعارف لم أكن أملك شيئًا أيضًا، ولو عدت إلى مصر مباشرة في هذا الوقت لواجهت صعوبات معيشية متعددة، أقلها أننى لا أستطيع توفير سكن لأسرتى الصغيرة في ذلك الوقت.

لعشر سنوات متواصلة من ١٩٨٠ وحتى ١٩٩٠ عملت أستاذًا مساعدًا بجامعة الكويت، وكنت من المؤسسين لكلية الهندسة والبترول التى بدأت الدراسة بها عام ١٩٧٦، وفي السنوات الأربع الأخيرة عملت بالإضافة إلى عملى الأكاديمى مساعدًا لنائب رئيس جامعة الكويت للتخطيط، وكان عمرى وقتئذ ٣٨ عاما، إذ كان منوطًا بى التخطيط لمنشأت الجامعة، ومتابعة مشروعاتها مع المكاتب الاستشارية العالمية والشركات المنفذة، وهذا المجهود مع مجهود من تتابعوا على هذا المنصب نتيجته الآن هو جامعة عربية عصرية في دولة الكويت الشقيقة.

عرفت في تلك الفترة قيمة مصر بين شقيقاتها من الدول العربية، وأن مصر هى رمانة الميزان في العالم العربى، وأنها بتاريخها وعراقتها وثقافتها وقوتها البشرية لها سحر وموقع خاص بين العرب.

منذ منتصف الثمانينيات، بدأت التفكير في العودة إلى مصر، وعدت بالفعل عام ١٩٩٠، وقد ساعد في ترتيب ظروف العودة ما حدث من غزو عراقى لدولة الكويت في الأول من أغسطس من ذلك العام، ومنذ هذا العام وحتى الآن انخرطت في أعمال ومناصب أكاديمية وتنفيذية وسياسية ما كانت تخطر لى على بال، وعندما أنظر إلى الخلف الآن أدرك كم أنا كنت محظوظًا أن وجدت في ظروف وعرفت أناسا ومسئولين أعطونى فرصا عديدة لخدمة مصر على النحو الذى ربما لم يحدث مع غيرى من قبل، من حيث تنوع المسئوليات وتعددها وصعوبتها والظروف التى أحاطت بها.

على مدى ٢٧ عامًا عملت أستاذًا جامعيًا، وعميدًا مؤسسًا لكلية الهندسة بجامعة القاهرة بالفيوم، ونائبًا لرئيس جامعة القاهرة، ورئيسًا مؤسسًا لجامعة الفيوم، ومحافظًا للفيوم، ووزيرًا للنقل في واحدة من أصعب اللحظات في تاريخ مصر الحديث، ثم محافظًا للقاهرة في أعقاب ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣ ثم وزيرًا للنقل مرة أخرى عام ٢٠١٦.

تشرفت بحلف اليمين الدستورية أمام الرئيس حسنى مبارك والمشير حسين طنطاوى والرئيس المؤقت المستشار عدلى منصور والرئيس عبد الفتاح السيسى، وعملت مع سبعة من رؤساء وزراء مصر؛ بدءًا من الدكتور أحمد نظيف ومرورًا بالفريق أحمد شفيق والدكتور عصام شرف والدكتور كمال الجنزورى والدكتور حازم الببلاوى والمهندس إبراهيم محلب وانتهاءً بالمهندس شريف إسماعيل.

عاصرت في كل تلك المراحل أحداثًا مهمة، قد يكون في سردها إجلاء لبعض الأمور. كان لى في بعضها مواقف ما زلت أتذكرها ويذكرها

زملائى، فقد واجهت ظروفا صعبة، بعضها في الفترة التالية لثورة ٢٥ يناير حين كنت محافظًا للفيوم وبعضها في أعقاب ٣٠ يونيو حين كنت محافظًا للقاهرة، كنت في وزارة الدكتور الجنزورى حين أجريت انتخابات مجلس الشعب والشورى أوائل ٢٠١٢، وانتهت بأغلبية إخوانية وسلفية، وكنت في الوزارة نفسها حين أجريت الانتخابات الرئاسية وانتهت بفوز محمد مرسى في يونيو ٢٠١٢.

عرفت باختيار هشام قنديل رئيسًا للوزراء خلال اجتماع برئاسة الدكتور الجنزورى، وكان قنديل وزير الموارد المائية والرى حاضرًا في الاجتماع، ويتذكر كل من حضر الاجتماع وعلى رأسهم الدكتور الجنزورى نفسه كيف كان رد فعلى التلقائى مستغربًا هذا الاختيار العجيب، وهو الأمر الذى أغضب هشام قنديل وقرر عدم إعادة تكليفي بوزارة النقل رغم ما كان بيننا من زمالة ورغم معرفته أن محمد مرسى كان قد قابلنى بالفعل صباح اليوم نفسه تمهيداً لإعادة تكليفي لوزارة النقل وكلفني بمهام تتعلق بزيارته المرتقبة إلى الصين.

كنت محافظًا للفيوم في السنوات الثلاثة الأخيرة في حكم الرئيس مبارك بكل أحداثها التى انتهت بما حدث في ٢٥ يناير ٢٠١١، وعشت ثلاثة أشهر كاملة لا أغادر مكتبى عملاً وإقامة مع موجات متتالية من المظاهرات والاحتجاجات، سواء على المستوى القومى أم على مستوى المحافظة، وعشت لحظات تنازل الرئيس مبارك عن السلطة وانفلات الأمور قبلها وبعدها.. عشت لحظة التسمية اللاحقة لما تم بالثورة عشت أيامًا وأسابيع مسئولا عن ثلاثة ملايين مواطن في ظل ظروف غير طبيعية لا تعرف فيها كيف تسير الأمور وإلى أين.

عملت محافظًا للقاهرة يوم بدأت عملية فض اعتصام رابعة، وذهبت إلى مكان الاعتصام صباح اليوم التالى والدمار والدخان وبقايا النيران في كل مكان شاهدت الجثث، التى احتفظ بها المعتصمون مكفنة أسفل منصة

رابعة، وشاهدت المدارس التى تحولت إلى حظائر لتربية الماشية الحية لذبحها لتوفير الوجبات المطهوة للآلاف الذين مكثوا في المكان طوال أكثر من ٥٠ يومًا، وعملت مع رجال القوات المسلحة وقيادات محافظة القاهرة على إعادة المكان إلى طبيعته خلال أقل من شهر من فض الاعتصام.

عدت إلى وزارة النقل مرة أخرى وزيرًا للمرة الثانية في مارس ٢٠١٦، وأسهمت في إنجاز مشروعات شبكة الطرق الكبرى، التى ما زالت مستمرة حتى الآن، كما استطعت بلورة رؤية متكاملة لتطوير السكك الحديدية ووضع مشروعات مهمة في إطار التنفيذ، ومنها مشروع القطار الكهربائى للعاشر من رمضان وربط أكتوبر والعاصمة الإدارية الجديدة بمشروعات المونوريل، واستكمال مشروعات الخط الثالث لمترو الأنفاق، والانتهاء من مشروعات مهمة في تطوير الموانى المصرية.

أرى في تجربتى ما يمكن أن يفيد غيرى، ممن يتطلعون إلى مستقبل أفضل لهم ولبلدهم، قد تكون الفائدة في كيفية الاستعداد لتولى مواقع مسئولية متعددة ومتشعبة، وقد تكون في كيفية الاستمرار كل هذه السنين مع زعماء ورؤساء تاريخيين ورؤساء وزراء متعددين، وقد تكون في كيفية إدارة الأمور في ظل ثورتين شعبيتين، وظروف استثنائية وتغيرات جذرية، كانت تكاد تعصف بالدولة بأكملها. وقد تكون في كيفية الحفاظ على الصورة الذهنية الإيجابية في العقل الجمعى للمصريين لمسئول عمل قبل الثورة وخلال الثورة وبعد الثورة دون أن تلاحقه البلاغات والاتهامات والشائعات، التى طالت كثيرا من المسئولين، وما زالت حتى الآن.

مررت بعشرات المواقف، وحضرت المئات من الاجتماعات على كل المستويات، وتشرفت بمقابلة رؤساء مصر ورؤساء وزرائها، وعرفت الكثير من رموز مصر من مسئوليها وكتّابها ومثقفيها.

اقترح الكثير من الأصدقاء أن أكتب كل ذلك، وترددت على مدى عام كامل في الاستجابة لهذه المقترحات، وهأنذا أستجيب. الكتاب لن يكون سردًا تاريخيًا مجردًا للأحداث، ولكنه وصف لتجربة إنسانية ذات مسارات مختلفة وجوانب متعددة، سردتها منذ الطفولة حتى آخر مسئولياتي بصفتي وزيرًا للنقل في فبراير ٢٠١٧، مرورًا بالمواقع العديدة التى شرفت بشغلها، ويرى بعض أصدقائى أننى قد تركت فيها بصمات يمكن البناء عليها وصولاً إلى نتائج أفضل بإذن الله.

طالب فى المرحلة الابتدائية ١٩٥٥

طالب فى المرحلة الثانوية ١٩٦٤

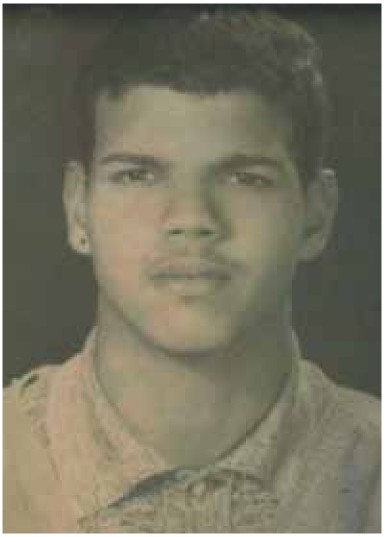

طالب فى المرحلة الجامعية ١٩٦٨

طالب فى مرحلة الدراسات العليا ١٩٧٨

صور في مرحلة الطفولة والشباب ١٩٥٥ ـ ١٩٧٨

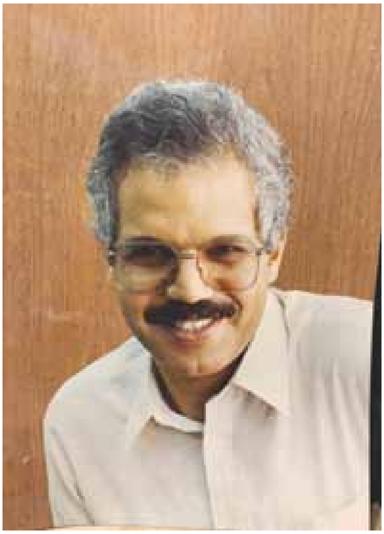

نائب رئيس جامعة الكويت المساعد ١٩٨٨

محافظ الفيوم ٢٠٠٨

محافظ القاهرة ٢٠١٣

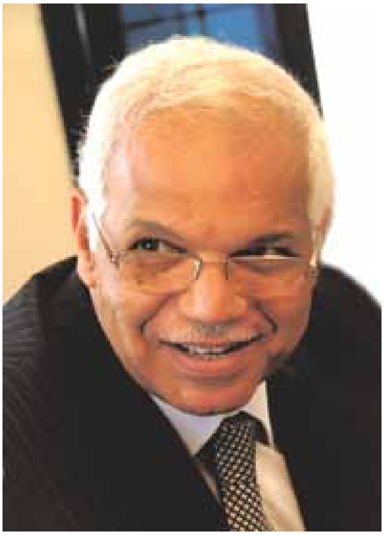

وزير النقل ٢٠١٦

صور فى مرحلة تولى المواقع القيادية ١٩٨٨ - ٢٠١٦

الفصل الثانى

البدايات

حيلة مصطفى أفندى

البدايات
عيلة مصطفى أفندى

أب وأم وثمانية من الأبناء هى الأسرة التى نشأت فيها، أسرة مصرية من الطبقة المتوسطة، الأب موظف في تعمير الأراضى من أصول ريفية، تلقى تعليمًا متوسطًا وغادر الريف، حيث شغل وظائف تتطلب التنقل شبه السنوى من محافظة إلى أخرى، وحرص على اصطحاب كل أسرته معه ثم عندما أصبح مديرًا بعد عمل تجاوز ٢٠ عامًا استقر في القاهرة.

كنا ثلاثة من الأولاد الذكور أنا أصغرهم، وخمسا من البنات تنقلنا بين محافظات مصر وعرفنا أهلها وارتبطنا بهم وأحببناهم وأحبونا. الأولاد الثلاثة صاروا الآن أساتذة في الجامعات في الطب والهندسة، والبنات الخمسة صرن طبيبات ومهندسات، والصغيرتان منهن أصبحتا الآن أساتذة ورؤساء أقسام في كليات الهندسة المصرية.

الجميع من المتفوقين، والأخ الأكبر محمد أكثرنا تفوقًا، وكان الأول على جميع كليات الهندسة المصرية عام ١٩٦٥، وغادر مصر صباح يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ لدراسة الدكتوراه في الهندسة في ألمانيا وكان تفوقه دافعًا لباقى الأسرة للتفوق، وكان يذاكر دروسه ساعات عديدة حتى إنه كان يقع مغشيًا عليه من الإرهاق والهزال وحصل على الثانوية العامة عام ١٩٦٠ وعمره ١٥ عامًا وعدة شهور من مدرسة الخديوية الثانوية بمجموع ٩٠٪ وهو مجموع مذهل في ذلك الوقت الذى كان المجموع المؤهل للطب والهندسة لا

يتعدى ٦٥٪ وبالمناسبة كان عام ١٩٦٠ هو العام الذى تمت فيه إعادة امتحانات الثانوية العامة بعدما تم تسريب الامتحانات وكان يذيعها الراديو الإسرائيلى بشكل يومى في العاشرة مساء اليوم السابق لكل امتحان.

التحق محمد بكلية الهندسة جامعة القاهرة وحصل على البكالوريوس في الهندسة الكهربية بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف الأولى بمجموع ٩٥٪ وهو مجموع لا أعتقد أنه تكرر في أى جامعة مصرية حتى الآن في أى من تخصصاتها، وقد أهله تفوقه للعمل أستاذًا جامعيًا في جامعات القاهرة وأسيوط والكويت، ورأس أقسام الكهرباء بكليات الهندسة في جامعتي أسيوط والكويت.

كما قلت كان هذا التفوق دافعًا لنا للتفوق أيضًا حيث التحق الابن الثانى (جمال) بكلية الطب وتفوق وتخصص في الجراحة وأصبح أستاذًا ورئيسًا لأقسام الجراحة في القصر العينى، وهو الآن من كبار المتخصصين في جراحات الأورام وله صالون ثقافي يطلق عليه صالون الجراح الثقافي يجتمع فيه نخبة من المثقفين والمسئولين المصريين لمناقشة قضايا المجتمع المصرى المعاصر.

كنت ثالثهما وسرت على دربهما ولكن كانت لى اهتمامات أرحب منهما، حيث كنت اجتماعيًا أكثر محبا للناس، وأختلط بهم وأتعلم منهم، وكانت الأسرة تدفع بى دائمًا في المهام الاجتماعية رغم صغر سنى بل كان والدى يكلفنى وعمرى لم يتجاوز الثانية عشرة بكثير بالسفر إلى بلدتنا حيث جدتى في الشرقية لجمع محصول الأرض الصغيرة التى ورثها عن والده والتصرف فيه وإحضار العائد ليساعد مع مرتبه الحكومى على تغطية مصروفاتنا الشهرية وكنت أحب الفلاحين من أقاربى أو من المزارعين في أرض جدتى وأجلس معهم وأفهم قضاياهم وألعب ألعابهم وأحضر مناسباتهم وأحضر الموالد السنوية في البلاد المجاورة وفي ذاكرتى مخزون

كبير من الثقافة الريفية التى كانت سائدة في ريف مصر في ستينيات القرن الماضى، والتى يعلم الجميع أنها شهدت تغييرات جذرية في السبعينيات والثمانينيات مع موجات هجرة شباب الريف إلى دول الخليج في أعقاب حرب ٧٣ وما نتج عنها من تعاظم دخول هذه الدول وبداية الثورة الإنشائية الكبرى التى خلقت فرصًا للعمل أكثرها للعمالة ذات التعليم المتوسط التى كان يذخر بها الريف المصرى في هذا الوقت.

أخواتى البنات وكلهن أصغر منى عمرًا تلقين كلهن تعليمًا حكوميًا متميزًا في الطب والهندسة ووصلت اثنتان منهما إلى الأستاذية في الهندسة وإلى مناصب جامعية مرموقة كما أسلفت.

منذ منتصف الخمسينيات وحتى أوائل السبعينيات كانت الأجازة الصيفية هى الموعد السنوى لزيارة من بقي من العائلة فى الريف، جدتى لوالدى الحاجة ناعسه سعيد والتى توفى زوجها (جدى محمد) وهى مازالت شابة فى مقتبل العمر وترك لها ولدين، عمى أحمد ووالدى وبنتين، عمتى أمينة وعمتى فاطمة.

جدتى ناعسه والمولودة عام ١٩٠٠ كان لها شقيق واحد يكبرها بعام هو جدى الحاج على سعيد (خال والدى) وعلى اسمه سميت "عزبة أبو سعيد" بجوار البلاشون التابعة لمركز بلبيس وكان جدى الحاج من كبار الملاك فى المنطقة وخضع لبعض أحكام قانون تحديد الملكية فى أوائل الثورة إلا أنه لم يفقد أراضى كثيرة، حيث قام وقتها بعمل عقود تمليك للفلاحين العاملين فى أرضه وهو تقليد كان معروفًا فى ذلك الوقت.

كان لجدى الحاج على سعيد خمسة من الأولاد وأربعة من البنات وكان أكبرهم عم محمد أفندى هو القائم على أعمال العائلة وكان سابقًا فى تفكيره لأبناء جيله، حيث كان يدير الأراضى بطرق مبتكرة ومنها أنه كان يزرع نبات العتر فى الخمسينيات ويصدره إلى مصانع العطور فى سويسرا

وكان من أوائل من اشتروا المعدات الزراعية الحديثة، وكان من أوائل من اقتنى السيارة فى المحافظة عام ١٩٤٨ وكانت من ماركة أوبل بيضاء اللون وبرقم ٢١ شرقية.

بعض أولاد جدى على سعيد استكملوا تعليمهم الجامعى وبعضهم سافر لدراسة الطب فى الخارج والبعض وخاصة البنات اكتفى بالتعليم فوق المتوسط .

كان والدى مصطفى أفندى وعمى محمد أفندى (ابن خال والدى) هم رواد (العيلة) فى الاهتمام بتعليم أولادهم وبناتهم منذ أوائل الخمسينيات ومثلما تخرجنا نحن أولاد مصطفى أفندى من أفضل الجامعات، فقد تخرج أيضًا أبناء وبنات محمد أفندى وكان له ولدان وثمانية بنات جميعهم من الأطباء والمهندسين وتزوج شقيقى الأكبر الدكتور محمد من د. مكارم أحد بنات عمى محمد أفندى فى ١٩٧٠ وكان ذلك سببًا فى تقارب أكثر بين والدى وعمى محمد أفندى فيما بعد.

ومثلما توفى والدى صغيرًا عام ١٩٧٢ ولم يتعد عمره ٤٧ عامًا توفى عمى محمد أفندى عام ١٩٧٥ وعمره ٥٠ عامًا وبوفاته تفتت أملاك جدى على سعيد والذى عاش بعد ذلك حتى عام ١٩٧٧ وتصرف باقى إخوته وأخواته فى أملاكهم وكل بطريقته ولم يتبق فى حوزة عائلة على سعيد مع حلول عام ١٩٩٥ إلا عشرات الأفدنة، وانتقل أبناء الجيل التالى للسكن فى الزقازيق عاصمة المحافظة، حيث أعمالهم أو فى القاهرة أو خارج حدود البلاد.

كانت زياراتى للعزبة تتم بشكل منتظم فى صيف كل عام منذ منتصف الخمسينات ولم تضطرب مواعيدها إلا مع سفرى إلى الخارج عام ١٩٧٤ وقد ظللنا نحتفظ بجزء من الأرض التى ورثناها عن والدى حتى وقت قريب وما زال لنا منزل ريفى هناك (بيت جدتى) وما زال الأحياء من أبناء

عمى الشيخ أحمد يعيشون هناك أيضًا وبعضهم تلقى تعليمًا مناسبًا والبعض الآخر مشغول فى العناية بالأرض الزراعية ويفضل الاستمرار فى الإقامة فى الريف.

ذكريات زياراتى للعزبة فى الستينيات ما زالت عالقة فى ذهنى حتى الآن، حيث كنا نتجمع نحن أبناء العائلة المغتربين فى القاهرة مع باقى أطفال وشباب العائلة لمدة أسبوعين أو ثلاثة خلال شهور الصيف ونتسابق فى طلوع النخل أو صيد السمك أو ركوب الحمير أو جني المحصول وحضور الموالد فى البلاد المجاورة والمشاركة فى الرحلة الأسبوعية إلى وابور الطحين، وغالبًا ما كنا نتجمع بالعشرات بعد غروب الشمس للعب الكوتشينه والشطرنج والدومونو وكانت جدتى لا تكف عن إعداد الطعام الشهي على الكانون واستخدام أعواد الحطب فى تسوية الطعام.

من الأطعمة التى كانت تعدها جدتى ما زلت أتذكرها، العصيدة والحريشة والشعرية البيتى والقبورى (عيش محشى بالسمنة والسكر) وكان يوم الخبيز يومًا مشهودًا، حيث إن الفرن كان من الممكن استخدامه فى إعداد وجبات أخرى مثل صوانى البطاطس أو تحميص الفول السودانى أو شوي البيض أو البطاطا وغيرها من الأشياء التى كنا نحبها ونحن فى سن العاشرة وبعدها.

أحببت القراءة منذ الصغر وأتذكر ونحن في محافظة قنا في الصعيد حيث عمل والدى هناك لمدة عامين من ١٩٥٦ وحتى ١٩٥٨ ضمن رحلته الطويلة بين مديريات الإصلاح الزراعى التى كان يعمل بها، كانت الصحف اليومية تصلنا في اليوم التالى وكنت أقضى الساعات انتظارًا لسيارة نقل الصحف لشراء الأهرام والأخبار وكان والدى يشجعنى وعمرى لا يتجاوز عشر سنوات على قراءتها أولاً وإبراز الأخبار المهمة فيها ثم إعادة قراءتها عليه مرة أخرى.

وفي السياق نفسه أيضًا وبعد انتقالنا إلى السيدة زينب في القاهرة عام ١٩٥٩ اتسعت دائرة قراءاتى وتابعت إلى جانب الصحف اليومية المجلات الأسبوعية مثل آخر ساعة وصباح الخير ومجلات الأطفال مثل سمير وميكى ولما كانت هذه المجلات تعرض قصصا مشوقة كل أسبوع على أن تستكمل في الأسبوع التالى وكانت عبارة "البقية في العدد القادم" تسبب لى ضيقًا شديدًا فقد نصحنى أخى الأكبر أن أذهب معه إلى دار الكتب في باب الخلق حيث أماكن القراءة الرحبة والأهم وجود أعداد مجمعة من مجلات سمير تضم عاما كاملا، وكانت فرحتى شديدة لهذا الاكتشاف في حينه، حيث أصبحت كلما قابلت عبارة "البقية في العدد القادم" أنتقل مباشرة خلال المجلد نفسه إلى ذلك العدد القادم ثم العدد بعد القادم وهكذا، وأصبحت زياراتى إلى دار الكتب وخاصة خلال الإجازات الصيفية من أمتع الأوقات وانتقلت العدوى بعد ذلك من قراءة الصحف والمجلات إلى الكتب بأنواعها المختلفة وهى متعة لا تعادلها متعة أخرى.

كان الفنان محمد عوض من زملاء والدى موظفًا في الإصلاح الزراعى بدءًا من عام ١٩٦١، وكان يحضر لنا التذاكر المجانية لحضور المسرحيات التى يشترك فيها في ذلك الوقت وأحيانًا لمسرحيات أخرى أو حفلات فنية، وكانت تجربة ثرية بالفعل وتمكنت من مقابلة نجوم المسرح الكبار في ذلك الوقت أمثال زكى طليمات ويوسف وهبى وسناء جميل وعبد المنعم مدبولى وغيرهم من جيل العمالقة، وكان للمسرح هيبة ورهبة وكان سماع "الثلاث دقات" قبل رفع الستار يعنى السكوت التام انتظارًا للعرض المسرحى الذى لم يكن أحد يجرؤ وقتها على الضحك بصوت عال أو الكلام مع من يجاوره أو يتناول اللب والتسالى الأخرى كما يحدث الآن.

كانت الأسرة مترابطة، الأب (مصطفى أفندى) موظف حكومى حمله ثقيل ولكنه جاد وأمين وشهم مثقل بمسئولية ثمانية من الأبناء ولكن الأبناء

جميعهم من المتفوقين وكان (مصطفى أفندى) يفتخر بأولاده لأنهم (رافعين راسه) وكل منهم يعرف طريقه جيداً ويقدر الظروف ولم يكن لنا طلبات تثقل كاهله، ولم يكن هناك مانع من تبادل القمصان والبنطلونات والبلوزات طالما سمحت المقاسات بذلك.

الأم (مدام إنشراح) مصرية صميمة متعلمة تعليمًا متوسطًا وكانت بمثابة وزيرة المالية ووزيرة التعليم، وهى التى ترعى الجميع وتقدم النصح وهى التى تستذكر الدروس للصغار وتتصحهم، وهم نزول على السلم ذهابًا للامتحان بقراءة جيدةً وعدم التسرع وعدم مغادرة اللجنة إلا مع نهاية الوقت وهى التى تعد أكواب اللبن الدافئ لنشربه صباح يوم الامتحان تحديداً دون الإفطار المعتاد حتى لا يكبس على نفسنا وهى التى تحضر سندوتشات الفول والجبنة في أيام الدراسة العادية وتدسها في الشنط مع اعتراضنا حيث كنا نفضل أخذ مصروف نقدى لشراء حاجات ثانية من الكانتين ولكن كانت الميزانية غالبًا لا تسمح بهذا البذخ خاصة بعد انتصاف الشهر وظهور بوادر نفاد المخصصات الشهرية لمصروف البيت.

كانت مدام إنشراح تقوم بكل شيء من غسيل الملابس إلى كيها وتحمية الأولاد في الطشت بعد تسخين المياه وتدفع بكل ما تنتهى منه بعد أن تنشفه نص تنشيف وتزيل آثار الصابون الحارق من العيون إلى من يقوم بإكمال عملية التنشيف والتلبيس وتسوية الشعر وعمل الضفاير للبنات والأمر لم يكن يخل من بكاء الصغار منا على سبيل الدلع للحصول على قدر أكبر من التدليل.

عندما انتقلنا إلى القاهرة عام ١٩٥٩ بسبب انتقال والدى للعمل في الإصلاح الزراعى، وكان مقره في ملحق قصر عابدين، ولأنه يبعد أقل من كيلو متر عن ميدان السيدة زينب عن طريق شارع بورسعيد فقد سكنا في (٦) شارع سلامة المتفرع من شارع زين العابدين المطل على الميدان وبعدها

بعام انتقلنا إلى شقة أكبر قليلاً في العمارة الواقعة على السلم المؤدى إلى قلعة الكبش في آخر شارع سلامة.

كان والدى يذهب إلى العمل صباحًا ومساءً فيما عرفناه وقتها أنه (أوفرتيم) أى وقت مسائى إضافي مقابل جنيهات قليلة ولكنها كانت مهمة في هذا الوقت وكنا حينها ٦ من الأولاد والبنات قبل أن تولد شقيقتاى الصغيرتان عام ١٩٥٩ و١٩٦١ وهما الآن من الحاصلات على الدكتوراة في الهندسة وتعملان أستاذتين في كليات الهندسة، والصغرى منهما وصلت الآن إلى منصب رئيس قسم الأشغال العامة في كلية الهندسة في جامعة القاهرة.

كانت لى ذكريات جميلة في السيدة زينب ذلك الحى التاريخى بأهله الطيبين ورفاق الدراسة الجدعان، أولاً في مدرسة عمر لطفي الابتدائية حيث حصلت على الشهادة الابتدائية، ثم مدرسة محمد على الإعدادية المطلة على الميدان مباشرة ومجاورة لقسم الشرطة ثم مسجد السيدة زينب حيث أمضيت السنة الأولى في المرحلة الإعدادية.

في السيدة زينب كانت نافذتى على القاهرة في هذا الوقت، ذهبت إلى دور السينما (الشرق، الأهلى والهلال) وكانت التذكرة أيامها بتسعة مليمات وإلى محلات السوبيا في أول شارع خيرت، ومحلات الفطير المطلة على الميدان (فطاطرى السيدة)، ومحلات الكنافة (عرفة الكنفانى) وركبت الترام الذى طالما حلمت بركوبه والنزول منه وهو يتحرك كما في الأفلام، حضرت مولد السيدة زينب ومولد زين العابدين وأكلت سندوتشات اللحمة التي يوزعها مريدو السيدة زينب في ليالى مولدها التى تمتد عدة أيام وذهبت إلى الأزهر والحسين مشيًا على الأقدام وأكلت المهلبية والأرز باللبن عند المالكى والكباب والكفتة والممبار عند الدهان الكبابجى.

عند انتقال مقر عمل والدى إلى هيئة استصلاح الأراضى في مقرها الجديد وهو نفس موقعها الحالى بجوار وزارة الزراعة في الدقى، انتقلت

العائلة كلها إلى العجوزة، كان ذلك عام ١٩٦١ حيث استأجر والدى شقة صغيرة رغم كبر حجم أسرتنا وكانت في شارع محجوب ثابت، وأتذكر في ذلك الوقت كان والدى يصطحبنى معه وعمرى ثلاثة عشر عامًا للبحث عن الشقة وكانت لافتة شقة للإيجار تعلو جميع العمارات وفي مرات عديدة كان يتخاطفنا البوابون وكان أمامنا هذه الشقة في شارع محجوب ثابت وإيجارها الشهرى ٨ جنيهات وشقة أخرى على النيل في العمارة نفسها التى انتقل إليها فيما بعد الأديب الكبير نجيب محفوظ وكان إيجارها (١٧) جنيهًا ولم يتحمل مرتب والدى بذخ تأجير شقة بهذا الإيجار العالى وقتها.

مع انتقالنا من السيدة زينب، انتقلت إلى مدرسة الأورمان الإعدادية الواقعة عند مطلع كوبرى أكتوبر حالياُ ولم يكن قد بدئ فى إنشائه، وبعد عقد اختبار عند التحويل لتحديد مستواي الدراسى تقرر إلحاقى بفصل المتفوقين (ثانية عاشر) ثم في (ثالثة عاشر) عندما انتقلت إلى الشهادة الإعدادية.

مدرسة الأورمان في ذلك الوقت كانت من أفضل مدارس الجمهورية على الإطلاق، كان بها الملعب والمسرح والمكتبة وبها انتظام في طوابير الصباح وكانت تنظم بها الرحلات، وفرقها الرياضية تشترك في بطولات الجمهورية في عدة ألعاب ومن طلابها الرياضيين عرفت لاعب كرة اليد الدولى الكابتن حسن صقر (قائد منتخب مصر في كرة اليد ورئيس المجلس الأعلى للرياضة فيما بعد) وشقيقه اللاعب الدولى أيضًا حمادة صقر، وعمرو عزت سلامة اللاعب الدولى أيضًا (ووزير التعليم العالى والبحث العلمى فيما بعد) وفي فصل المتفوقين كان هناك عبدالله بازرعة، الأستاذ الآن بهندسة القاهرة ومستشارنا الثقافي السابق في واشنطن، وعصام خليل، الأستاذ الآن في هندسة القاهرة وأحد أكبر خبراء مصر في هندسة التكييف وأشرف فرج المهندس المعروف وأول من عرفته من دفعتنا

طارقًا باب الاستثمار العقارى والاستثمار في منصات البترول وهو ناجح جدًا في أعماله وشريك للكابتن حسن حمدى الرئيس السابق للنادى الأهلى وصلاح دياب مؤسس المصرى اليوم ورجل الأعمال الناجح.

في الشهادة الإعدادية كان ترتيبى الخامس على منطقة الجيزة التعليمية عام ١٩٦٣ وكان هذا مصدر سعادة وفخر لوالدى ولمدرستى أيضًا والتى وضعت اسمى على لافتة قماش طويلة تم تثبيتها على كامل عرض المدرسة تهنئة للتلميذ/ جلال مصطفى سعيد الذى كافأه صديق والده بعشاء فخم في وسط البلد أعقبه تناول كريم كراملة وكوشون في الأمريكين. ثم الدخول إلى سينما ديانا، وكل هذا على حساب صديق والدى الذى اصطحبنى ووالدى في هذه الليلة التاريخية.

بسبب تفوقى كونى من العشرة الأوائل على منطقة الجيزة التعليمية ولانطباق شروط الالتحاق بمدرسة المتفوقين الثانوية في عين شمس (مدرسة داخلية) وللتخفيف من أعباء المعيشة على والدى وزحام الشقة التى اكتمل عدد الأولاد والبنات بها ليصل إلى ثمانية ليصبح العدد الكلى للأسرة عشرة بالأب (مصطفى أفندى) والأم (مدام إنشراح)، فقد انتقلت إليها في المرحلة الثانوية بدءًا من ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٦ حيث حصلت على الثانوية العامة بمجموع مرتفع لدخول أى كلية أرغب في الالتحاق بها وانتهى بى المطاف في كلية الهندسة جامعة القاهرة التى تخرجت فيها بعد خمس سنوات في عام ١٩٧١ بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى.

في أسرتنا كنا مثل معظم الأسر من الطبقة المتوسطة في ذلك الوقت، الأب يعمل والأم في البيت، كان هناك نظام مستقر في الأكل ومواعيده، حيث وجبة الغذاء في تمام الثانية والنصف ظهرًا مع موعد نشرة الأخبار من الراديو الكبير الموضوع على رف عالٍ في الصالة والموضوع داخل تلبيسه من القماش الأبيض المزركش، ويعقب الاستماع إلى النشرة أسئلة

سريعة من والدى عن أحوال كل واحد منا فيما يشبه جلسة الاستماع أو الاستجواب اليومية، لم يدخل بيتنا التليفزيون حيث بدأ في مصر عام ١٩٦١، حتى نتفرغ للدراسة، إلا أن الأسرة في النهاية اشترت أول تليفزيون عام ١٩٧٥ بعدما غادرت أنا إلى كندا لدراسة الدكتوراة وخلال السنوات الخمس عشرة تلك كنا ندبر أمر مشاهدة المباريات المهمة بتعليق المعلق الشهير محمد لطيف إما في مسرح المدرسة أو في حديقة ميدان سفنكس حيث كان يوضع تليفزيون عام كما في معظم الميادين الأخرى أيام الدكتورعبد القادر حاتم وزير الإعلام في هذا الوقت أو لدى جيراننا الست صفية وجوزها عم محمد الجيلانى.

تعلمت من والدى الجدية في العمل والصدق والشهامة والأمانة وحرمة المال العام، أتذكر يومًا أن والدى عقب وصوله من العمل وعند تغيير ملابسه قد اكتشف أن معه قلما جافا من عهدة العمل وهمَّ بإعادة ارتداء ملابسه ليقوم بإعادة القلم إلى مكتبه، فلم ينتظر اليوم التالى ولم تفلح محاولاتنا في إثنائه عما ينوى القيام به ولكنه في النهاية وافق أن أقوم أنا بالذهاب إلى مكتبه وإعادة هذا القلم على أن ينتظرنى قبل أن يبدأ تناول طعام الغذاء.

كانت لهذه الواقعة تأثيرها الكبير في نظرتى للمال العام وحرمته، وظلت في ذاكرتى في كل ما توليته من مسئوليات فيما بعد، أصبح لدى حساسية شديدة في التعامل مع المال العام الذى عرفت أن له قدسية ولا يجب خلطه مع المال الخاص أو التصرف فيه على أنه كذلك، كان يقول لى إن هذه الأموال تخص الفلاح البسيط الذى كنا ومازلنا نراه في الحقول في الصباح الباكر وقدماه تغوصان في الطين وهو يروى الحقل ويحوطه طائر أبو قردان من كل جانب.

مسئولياتى فيما بعد كانت تتطلب التعامل مع ملايين الجنيهات وأحيانًا المليارات في المشروعات الكبرى التى كانت تدخل في نطاق المناصب التى

توليتها، لم تغب عنى واقعة قلم والدى الجاف ولا مغزاها في أى لحظة، بل أقول إننى قد تزيدت وتوسعت في هذا الفهم، لم أتقاض إطلاقًا سوى مرتبى الشهرى المثبت في دفاتر الحكومة دون زيادات من مكافآت وبدلات في جميع مراحل حياتى، لم أسافر كيلومترا واحدا على نفقة الحكومة في أمور تخصنى، لم أسمح أن يرافقنى مسئول واحد في أى سفريات أو مهام رسمية طالما كنت قادر على تدبير أمورى في المطارات وغيرها، اعتذرت عن عشرات المهام خارج الوطن حرصًا على عدم تعطيل الأعمال وأوفدت البديل في الحالات الضرورية ... بل إننى أثناء شغلى موقع محافظة القاهرة بعد ٣٠ يونيو ٢٠١٣ لم أغادر حدود محافظة القاهرة نفسها طوال ٣٠ شهرا كاملة هى فترة شغلى لهذا الموقع.

بعد وفاة والدى (مصطفى أفندى) ـ رحمه الله ـ ولم يتجاوز عمره ٤٧ عامًا وكان ذلك عام ١٩٧٢ زادت مسئولياتى، الشقيق الأكبر في ألمانيا للدراسة وتوليت وشقيقى جمال الذى يكبرنى بعامين، مسئولية الأسرة بالكامل كنت أنا وهو قد تخرجنا ونعمل معيدين في جامعة القاهرة هو في الطب وأنا في الهندسة ويتبعنا في ترتيب الميلاد خمس بنات يتوزعن على مراحل التعليم المختلفة من الابتدائى إلى الجامعة، قد كان للأم (مدام إنشراح) دورها المحورى في استمرار رسالة الأب، البنات لازم تتعلم وتأخذ شهادات كما أراد والدنا (مصطفى أفندى) وهو ما كان، بل أن أصغرهن كانت من الثلاثين الأوائل على الجمهورية في الثانوية العامة عام ١٩٨٣ وأصبحن خريجات في كليات الهندسة والطب والعلوم بتفوق واضح أهّل بعضهن للعمل أساتذة في كليات الهندسة ورؤساء أقسام بها، وهكذا نجحت مجهوداتنا فى استمرار الرسالة التى أرادتها أسرة مصطفى أفندى لأولادها.

في مرحلة ما بعد وفاة والدى، كان شقيقى جمال يقضى فترة النيابة في القصر العينى ويبيت هناك بشكل متكرر وكنت أنا الولد الوحيد

الموجود مع والدتى وأخواتى البنات الخمسة، المسئولية كبيرة جداً، محاولة التماسك أمامهن كانت صعبة، الجلوس على نفس مائدة الطعام التى جلسنا عليها مع والدى عادة لم تتغير، حاولت أن أقلده في الاستفسار والاستجواب اليومى عن أحوال من هم أصغر منى، المتطلبات المالية للإنفاق على الأسرة كانت كبيرة، معاش والدى ومرتبى وشقيقى جمال تكفي بالكاد، استجمعنا كل مدخراتنا واشترينا عربة فيات ١١٠٠ موديل ١٩٦٩ وحولناها إلى تاكسى لتساعد في المصاريف وكنت من باب التسلية أقودها في بعض الأحيان.

عندما سافرت إلى كندا لدراسة الدكتوراه عام ١٩٧٤، تصادف أن عاد إلى مصر شقيقى الأكبر الدكتور محمد من ألمانيا بعدها بعدة شهور في نفس العام، وتولى مع شقيقى جمال استكمال الرسالة حتى تخرجت أصغر شقيقاتى في الجامعة في عام ١٩٨٤.

أمضى أخى الأكبر الدكتور محمد السنوات من ١٩٧٤ وحتى ١٩٨٣ فى جامعة أسيوط حيث كانت البعثة التى سافر من خلالها إلى ألمانيا مخصصة لجامعة أسيوط وقد أسهم مع العشرات فى إنشاء كلية الهندسة بها قبل أن يتعاقد مع جامعة الكويت ١٩٨٣ حيث كنت أعمل وعمل أستاذاً بها ورئيساً لقسم الهندسة الكهربية لمدة ٢٦ عام وحتى ٢٠٠٩ حيث عاد واستقر فى مصر وتوفيت زوجته ويعيش حالياً مع ولديه وأحفاده الثلاثة.

لم أعد إلى مصر بعد مغادرتى لها عام ١٩٧٤ إلا بعد ٧ سنوات كاملة قضيت منها ٦ سنوات فى كندا بالإضافة إلى عامى الأول فى جامعة الكويت.

وأثناء عملى فى جامعة الكويت فى السنوات العشر التالية وحتى ١٩٩٠ كانت هناك فرص أن أعود إلى مصر فى زيارات متفرقة وعندما عدت إلى

مصر بشكل دائم فى عام ١٩٩٠ كانت قد حدثت بها تغييرات كبرى مازالت تلقى بظلالها حتى اليوم.

والآن وقد تخطى معظمنا سن الستين لا يمر يوم دون نتهاتف جميعًا للاطمئنان على بعضنا البعض ومع ظهور تطبيقات الواتس آب فى تليفوناتنا الذكية أصبح التواصل على جروب الأسرة من الأمور اليومية المهمة.

والدتى مدام إنشراح ـ مدَّ الله في عمرها ـ ما زالت بيننا حتى اليوم ونتجمع حولها في المناسبات وقد أصبح نصف أولادها ممن تخطوا أو على مشارف سن السبعين وتزايد عدد أحفادها وأحفاد أبنائها، وعليه فإن عيلة مصطفى أفندى التى يحمل هذا الفصل عنوانها هى الآن قبيلة كاملة الأركان.

مع والدى ووالدتى فى حفل التخرج كلية الهندسة عام ١٩٧١

والدتى وإخوتى وأخواتى عام ٢٠١٢

مع أشقائى الأكبر سناً: الدكتور محمد مصطفى سعيد أستاذ الهندسة والدكتور
جمال مصطفى سعيد أستاذ الجراحة عام ٢٠١٧

مع شقيقاتى الأصغر سناً، فاطمة وثريا وهدى وابتسام وعزة عام ٢٠١٧

الفصل الثالث

أنا وأهل مصر

مقتطفات من مرحلة الطفولة والشباب

أنا وأهل مصر

مقتطفات من مرحلة الطفولة والشباب

ارتباطي وعشقي للوطن بكل أطيافة وكل أماكنه كان نتاج الأصول الريفية لوالدي واعتيادى على العودة إلى بلدتنا عزبة سعيد منسوبة إلى جدي على سعيد (خال والدى) بالشرقية في الإجازات الصيفية منذ ولادتي حتى أوائل السبعينيات من القرن الماضي، وكانت أيضًا لطبيعة عمل والدى التي اقتضت أن تنتقل الأسرة إلى مقر عمله في محافظات عديدة منها المنيا وكفر الشيخ وقنا والبحيرة والقاهرة والجيزة والصداقات والمعارف العديدة التى تكونت خلال هذه الفترة ممثلة الموجة الأولى لمعايشتى لأبناء الوطن منذ خمسينيات العام الماضى.

وأسهم في ارتباطي مع مصر بكل أماكنها تجربتي في مدرسة المتفوقين الثانوية (الداخلية) التي ضمت أوائل الإعدادية في كل محافظات الجمهورية في تجربة فريدة من نوعها استمرت ثلاث سنوات، بدأت عام ١٩٦٣ ممثلة الموجة الثانية لمعايشتى لمصر والمصريين.

وبعد ربع قرن وفي عام ١٩٩١ ولمدة ثلاث سنوات أيضًا كانت لى فرصة جديدة لأن أجوب محافظات الجمهورية المختلفة.

في عام ١٩٥٤ التحقت بأولى سنوات الدراسة في مدرسة ملوي الابتدائية وكان مسكننا يقع بالشارع نفسه الواقع به مركز شرطة ملوي وفي مواجهته، وكان كل جيراننا من الإخوة الأقباط، وكذلك معظم

المدرسين، وللحق لم يكن هذا الأمر يمثل أهمية تذكر أو كان موضعًا للنقاش.

وفي عام ١٩٥٥ التحقت بالسنة الثانية الابتدائي في مدرسة بيلا الابتدائية في كفرالشيخ، وكنا نقيم حيث عمل والدي مديرًا للإصلاح الزراعي في قرية الزعفران على بعد عدة كيلومترات من مدينة بيلا، وأتذكر أننا ونحن في هذه السن الصغيرة كان التلاميذ من أبناء العاملين يغادرون الزعفران مع شروق الشمس في عربة نقل مغطى صندوقها بالقماش المقوى، وبها صفان يمينًا وشمالاً من الكنب الخشبى على أرجل معدنية شبيهه بعربات نقل جنود الشرطة، وكثيرًا ما كانت السيارة تتلوى على الطريق الترابى بفضل سقوط الأمطار لتستقر بصعوبة قبل أن تنزلق في أحد الترع المجاورة وسط خليط من صراخ التلاميذ وخوفهم من ابتلال ملابس المدرسة، ما كان يترتب عليه (كما هي التعليمات) أن نعود دون الذهاب إلي المدرسة وضياع دروس يوم كامل.

وفي عام ١٩٥٦ انتقل والدى ونحن معه حيث وظيفته الجديدة مديرًا للإصلاح الزراعي في المطاعنة التابعة لمركز إسنا في محافظة قنا (تابعة لمحافظة الأقصر الآن) وكانت تجربة الإقامة والدراسة في أقصي الصعيد في هذا الوقت تجربة فريدة من نوعها.

الرحلة الأولى إلى مدينة إسنا كانت في قطارالنوم الذي يغادر في الثامنة مساء من محطة مصر، القطار نظيف إلى أقصى درجة والسراير مفروشة بأنصع الملايات والمخدات محشوة بريش النعام والوجبات الغذائية كما في أفخر المطاعم، والوصول صباح اليوم التالى.

أبناء الصعيد غاية في البساطة والشهامة والرجولة كبارًا وصغارًا، ومع أن الفقر كان يلقي بظلاله على الجميع إلا أن عفة النفس والكبرياء والشموخ كانت هي الطباع الغالبة على الجميع كبارًا وصغارًا، وكانت

تجـربة فريـدة لأطفـال بحـرى ـ هـكذا يطلـقـون علـى من يـأتي من القـاهـرة والـدلتـا ـ في الانـدمـاج مع أطـفـال الـصـعـيـد بلـهـجـتـهم المعـروفـة ونـطـقـهـم لكلـمـات عديـدة بطريقـة تختلف عنا وفيها خشونة أكثر ويقابلها طريقتنا الـبـحـراوى في الـنـطق؛ ممـا كان يعـرضـنـا كثـيـرًا لـلـتـريـقـة علـى الـدلع فـي الكلام.

المدرسـة غـايـة في الـبـسـاطـة، فـصـول قـلـيـلـة في مـبـنـى من دور أرضـي وحوش ترابى وأطفـال فقراء يحملون الكتب في شنطة قمـاش من أي لون يتم تعليقها على أحد الكتفين، أما اللبس فكل تلميذ علـى قدر استطاعته، أطفـال بـالجلاليب وآخـرين بـالـبـيـجـامـا الـكـسـتـور المقـلـمـة وأبـنـاء الموظـفـين بقميص وبنطلون أو شورت، آخر اليوم مخصص للعب الكرة الشراب في حوش المدرسة.

امتدت فترة وجود والدى في المطاعنة من ١٩٥٦ حتى ١٩٥٨ وفيها كان العدوان الثلاثى على مصرعام ١٩٥٦ والوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨، ومع أن الغـارات الجوية كانت قليلاً ما تصل إلى الصـعيد إلا أنـنـا كنـا نـنـخـرط ونحن صغـار في مجموعات لطلاء زجاج الـنـوافـذ بزهـرة الـغـسـيـل ونجوب الـشـوارع نـطـلـب من أصـحـاب الـبـيـوت إغلاق الـنـور وهـو أقـصـى مـا يمـكـن لأطـفـال دون ثـمـانـي الـسـنـوات الـقـيـام به فـي مـثـل هـذه الـظـروف، وأتـذكـر خطاب الـرئيس عبد الـنـاصـر في الأزهرالشريف، وكـان له صـدى كبيـر بين أوسـاط الشباب الكبار الذين كنا نشاركهم لقاءاتهم التي يتحدثون فيها عن العدوان الثلاثي الغاشم.

كانت الـوحدة مع سوريـا حدثًا مهـمًا في فـبـرايـر ١٩٥٨، وكان الأطـفـال دون الـعـاشـرة وأنـا مـنهم غـايـة في الحـمـاس من فـكـرة الـوحـدة الـتـي أسـهـب المدرسون وناظر المدرسة في الإشادة بها، وأتذكر أنه كانت عندى مشكلة ربمـا شـاركنـي فيهـا باقى أطفـال المدرسـة وهـى الفرق بين سـوريا وروسـيـا ومن

هى الدولة الأقوى فيهما ومع من بالفعل اتحدت مصر وبالطبع كنا عاوزين مصر تتحد مع الدولة الأقوى.

كانت مدينة إدكو في محافظة البحيرة هي المحطة الأخيرة في التنقل بين محافظات مصر قبل الاستقرار في القاهرة عام ١٩٥٩ حيث قضيت سنة دراسية واحدة من ١٩٥٨ إلى ١٩٥٩ في مدرسة إدكو الابتدائية بالقرب من مدينتي رشيد وإدفينا شرقًا في محافظة البحيرة ومدينة الإسكندرية على مسافة أبعد ناحية الغرب، وكان هذا العام جميعه مستهلكا في حديث الانتقال إلى القاهرة والتطلع إلى ركوب الترام هناك والنزول منه وهو ماشي كما كنا نرى في الأفلام.

وكانت إقامتنا في استراحة مخصصة لوالدى حولها حديقة مزروعة بالأرز ولها سور وبالخارج ترعة كبيرة مرتبطة ببحيرة إدكو، التي كانت تبعد عن منزلنا أقل من كيلو مترين، والحديقة كانت إلي جانب نبات الأرز مليئة بأسماك البلطى التى تكبر في المياه المستخدمة في ري الأرز، وكانت فرص صيد الأسماك عظيمة سواء في حديقتنا، حيث نستطيع مسكها باليد دون أى أدوات أخرى أوبالسنارة من الترعة التي يطل عليها بيتنا أو من بحيرة إدكو، التى كان ينتشر فيها الصيادون بمراكبهم الطويلة الرفيعة ذات الصياد الواحد بشباكه ورشاقته وسرواله الطويل الأسود والصديرى الأزرق، وأتذكر أننا كنا نعطي الصياد خمسة قروش ونأخذ كل ما يأتي في شبكته عند إلقاءئها لمرة واحدة وكان لا يقل عن خمسة كيلوجرامات من الأسماك البحرى بأنواع مختلفة الفاخرة، وقد تصل قيمتها حاليًا إلى أكثر من ٣٠٠ جنيه.

في عام ١٩٥٩ انتقلنا إلى القاهرة وأقمنا بشارع سلامة بحي السيدة زينب، ويتفرع هذا الشارع من شارع زين العابدين المجاورلمسجد السيدة زينب، حيث قضيت السنة الأخيرة من المرحلة الابتدائية في مدرسة عمر

لطفي الابتدائية، ثم السنة الأولى من المرحلة الإعدادية كانت في مدرسة محمد على الإعدادية المطلة على ميدان السيدة زينب، وهنا تفتحت عيناي على مدينة القاهرة بضجيجها وزحامها وجمالها ومساجدها ومسارحها ودورالسينما ومناسباتها الدينية، ومنها موالد السيدة زينب والحسين والإمام الشافعي والسيدة عائشة والسيدة نفيسة وغيرها من المناسبات.

كنت دائم الصلاة في مسجد السيدة زينب في معظم المناسبات، وللمسجد موقع خاص في نفسي حتى الآن، وأصبحت في عام ٢٠١٤ وأنا محافظ القاهرة عضوًا في مجلس إدراته بعدما تعلقت وارتبطت به قبل ذلك بأكثر من خمسين عامًا، وقد لاحظ تعلقي بمسجد السيدة زينب الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى، وكان هو مقرئ المسجد في ذلك الوقت وكانت له سيارة أمريكية سوداء كبيرة يقودها سائق، وكان وهو كبيرفي السن يدعوني ليوصلني بسيارته حتى منزلنا تشجيعًا لهذا الطفل الصغير دائم التردد على مقام السيدة زينب ومسجدها.

كان تعلقي بمساجد آل البيت هو الدافع لمشروع تبنيته عندما أصبحت محافظًا للقاهرة لتطويرالمناطق المحيطة بهذه المساجد، وهو ما حدث في ميادين السيدة زينب والسيدة نفيسة تحديدًا، وكان من المخطط إجراء أعمال تطوير أخرى في الحسين والسيدة عائشة.

وأسهم في ارتباطي مع مصر بكل أماكنها تجربتي في مدرسة المتفوقين الثانوية (الداخلية) والتي ضمت أوائل الإعدادية في كل محافظات الجمهورية في تجربة فريدة من نوعها استمرت ثلاث سنوات بدأت عام ١٩٦٣ عرفت فيها زملاء الدراسة الثانوية من كل محافظات الجمهورية، وانتهت عام ١٩٦٦ بتفوقنا في الكليات المختلفة إلا أن أكثرمن نصف الدفعة التحقوا بالكلية الفنية العسكرية وأنا منهم قبل أن أتركها إلى هندسة القاهرة بناء على رغبة والدى الذى كان رأيه أن أحصل

على بكالوريوس الهندسة أولاً ثم أصبح ضابطا مهندسا بعد ذلك إذا أردت.

بقي أيضًا الإشارة إلى أنه قد أتيحت لي فرصة زيارة المدرسة في عام ٢٠١٤ ضمن مسؤلياتي كمحافظ للقاهرة، وكان رفيقي في الزيارة الدكتور/ محمود أبو النصر وزير التعليم في ذلك الوقت، وقد هالني الزحف العمراني العشوائي حول المدرسة التي كانت في الستينيات في أطراف القاهرة وتحيطها المساحات الخضراء، والآن المباني تحيطها من كل جانب وملاصقة لها بشكل غريب، وتطل عليها شرفات هذه المباني ويتدلى في فناء المدرسة الغسيل المنشور من هذه الشرفات.

وكانت من نتيجة هذه الزيارة تدبير تمويل عاجل قدره عشرة ملاين جنيه للحفاظ على مباني المدرسة من الانهيار، وخاصة عنابر السكن التي كانت لنا فيها ذكريات جميلة والنادى الاجتماعي، الذى كان مكان تحلقنا حول جهاز التليفزيون الوحيد في المدرسة، الذى تابعنا فيه مناظرات طه حسين وتوفيق الحكيم التي كانت حديث الأوساط الثقافية في هذا الوقت، وتابعنا فيه كذلك حادث اغتيال الرئيس الأمريكي جون كنيدى، وغيرها من الأحداث التي كانت المدرسة حريصة أن نكون متابعين للشأن الثقافي العام والأحداث الدولية.

ومن نتائج هذه الزيارة أيضًا أن سعينا نحن أبناء دفعة ١٩٦٦ وهي الأشهر في تاريخ المدرسة على أن يكون لنا دور في إعادة تطويرها وتكوين جمعية لخريجيها لعقد لقاءات دورية لمناقشة أوضاعها وكيفية النهوض بها، وحتى الآن نجتمع بصفة دورية لهذا الغرض، ومن بيننا خبراء متميزون وقادة كبار من القوات المسلحة، وأساتذة طب عظام في الجراحة والقلب، ووزراء سابقون، ومحافظون، وأصحاب شركات متخصصة في الهندسة، وغيرهم ممن حققوا نجاحات كبيرة في مسيرتهم العلمية.

تغيرت الآن نظم القبول في المدرسة وبعدما كان الأساس هو قبول خمسة على الأكثر من العشر الأوائل في الإعدادية على مستوى كل محافظة، وكان هذا يمثل أساسًا عادلاً للقبول بالإضافة إلى ضمان أن من يتم قبوله يكون بالفعل متفوقًا ومتميزًا، علاوة على تحويل أي طالب لا يحصل على مجموع ٨٠٪ في سنوات النقل إلى مدرسة أخرى في محافظته الأصلية، وأصبح النظام الآن يعتمد على اختبارات قبول تجري بين كل من حصل على ٩٠٪ في الإعدادية مع إهمال السكن الداخلي؛ ما أدى إلى اقتصار القبول بشكل كبيرعلى الطلاب من أبناء القاهرة؛ ما أفقد المدرسة إحدى مميزاتها والمتمثلة في تجميع المتفوقين من جميع أنحاء الجمهورية .

من أبناء المدرسة الذين تولوا مناصب قيادية في الدولة الدكتور/ هاني هلال وزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي بدءًا من عام ٢٠٠٥، واللواء مهندس إبراهيم يونس وزير الإنتاج الحربي في عام ٢٠١٤، ومنصور عبد الرحمن أستاذ الطب ورئيس جامعة بني سويف في عام ٢٠١٧، والدكتور/ أحمد زايد أحد أكبر أساتذة الرياضيات في الجامعات الأمريكية، بالإضافة إلى صاحب هذه المذكرات، وغيرهم من خبراء التسليح والطائرات والدبابات والمدرعات في القوات المسلحة، وأساتذة الطب المتميزين، ومنهم مجدي جمعه (أستاذ جراحة القلب بجامعة القاهرة) وحامد رشاد (أستاذ الجراحة العامة بجامعة بنها) وأحمد حمزة ضرغام (أستاذ القلب والصدر بجامعة القاهرة) وهاشم نعينع (أستاذ الباطنة بجامعة الإسكندرية) وعادل حامد عطيه (مؤسس إحدى كبريات الشركات في نظم الصوت والإضاءة وتجهيز قاعات المؤتمرات)، ويمثل إعادة إحياء مدرسة المتفوقين وإنشاء مدرسة أخرى للمتفوقين أحد الأفكار التي تسعى لتتبناها الدولة مرة أخرى.

كانت تجربة مدرسة المتفوقين في منتهى الثراء، من حيث معايشة عباقرة صغار من جميع أنحاء الجمهورية أتوا إليها بكل طباعهم ولكناتهم وعاداتهم، وإتاحة فرص الزيارات التى كنا نقوم بها لبعضنا البعض خلال العطلة الصيفية إلى معرفة أكثر بأهالي مناطق مصرية جميلة، مطوبس بكفر الشيخ ويجاورها إدفينا على الجانب الآخر من نهر النيل (فرع رشيد)، حيث كنا نزور صديقنا هاشم نعينع وهو الآن أستاذ الأمراض الباطنة والقلب بكلية الإسكندرية، وكذلك عزبة رجب على بعد كيلومترات من دمنهور عاصمة البحيرة، حيث كنا نزور صديقنا إبراهيم يونس وهو نفسه اللواء المهندس إبراهيم يونس وزيرالإنتاج الحربي في عام ٢٠١٤، وكذلك زيارة شبرامنت على طريق صقارة بالجيزة، حيث صديقنا محمد أحمد القاضي، وهو نفسه اللواء مهندس محمد القاضي من رجال القوات المسلحة المشاركين في حرب أكتوبر المجيدة.

وفي شبرامنت تحديداً عرفت الأديب الكبير جمال الغيطاني الشقيق الأكبر لصديقنا إسماعيل الغيطاني، وهو الآن لواء مهندس من خبراء الإشارة في القوات المسلحة الذين شاركوا في حرب أكتوبر أيضًا، وكان جمال الغيطاني دائم التردد على شبرامنت بعدما عرفها عن طريق شقيقه إسماعيل حتى إنه تعود على الذهاب إليها دون وجود إسماعيل الذي كان سبب الزيارة الأولى له لشبرامنت.

معرفتي بالأديب الكبير جمال الغيطاني استمرت بشكل متقطع لسنوات، حيث فوجئت به عام ١٩٩٤ في مكتبي وأنا أشغل منصب عميد كلية الهندسة بجامعة القاهرة بالفيوم، وكانت آخر مقابلة لي معه قبل ذلك قد مر عليها ٢٨ عامًا وساعدته في تحويل نجله محمد الذى كان قد التحق بالكلية ويرغب في تحويله وقبوله إلى هندسة القاهرة، ومحمد جمال الغيطاني الآن مهندس ولكنه التحق بالسلك الدبلوماسي بالخارجية

المصرية وعمل في وفد مصر في الأمم المتحدة في نيويورك، وهو الآن مستشار في سفارة مصر في أديس أبابا.

ومع تعييني محافظًا للقاهرة كانت لي فرص متفرقة للقاء جمال الغيطاني لاهتمامه الشديد بمنطقة الجمالية وهي مسقط رأسه، حيث كنت أزور في أوائل الستينيات صديقي إسماعيل وأقابله والأسرة كلها الأب والأم والأخ الأكبر جمال الغيطاني في منزلهم العتيق الواقع في (١) حارة الطبلاوى في الجمالية، وكان يطلب مني دائمًا وأنا محافظ للقاهرة أن نستعين به في تسجيل حلقات عن هذه المنطقة تحتفظ بها محافظة القاهرة في سجلاتها، وللأسف لم تسعفنا الظروف للاستفادة من هذا العرض المجاني، حيث توالت أزمات جمال الغيطاني الصحية وانتهت بوفاته عام ٢٠١٥، وقد نجحت في إطلاق اسمه على شارع (الضببية) وهو الواصل بين شارع المعز وشارع الجمالية في منطقة الحسين بالتشاور مع شقيقه اللواء إسماعيل الغيطانى وزوجته الكاتبة ماجدة الجندى وصديقه الأديب يوسف القعيد.

تجربتي في مدرسة المتفوقين كانت في منتهى الثراء من النواحي التي ذكرتها ومن نواح أخرى متعددة، فكرة المدرسة كانت جيدة جدًا وكنا الدفعة السادسة وكانت المدرسة تحظى باهتمام الرئيس جمال عبد الناصر ووزير التربية والتعليم وقتها الأستاذ/ السيد يوسف (عديل عبد الناصر) وكان اهتمام الوزير بالمدرسة متمثلا في زيارتها أسبوعيًا وحضور الطابور الصباحي، وكنا نرتدى زيًا موحدًا عبارة عن بليزر - جاكيت أزرق وبنطلون رصاصي وكرافته حمراء وقميص أبيض وكان عدد جميع طلاب المدرسة لا يزيد عن ٢٠٠ طالب، وكنا نُستدعى بالزي الرسمي لاستقبال وتوزيع الرؤساء في مطار القاهرة والهتاف بسم الرئيس الضيف واسم عبد الناصر وفي حضور الاحتفالات التي يحضرها الرئيس، حيث كنا نستخدم في ملء الفراغات بشكل مناسب وبزي موحد.

وعن مستوى التعليم في ذلك الوقت ونوعية المعلمين، كانت الوزارة تشرف علي المدرسة مباشرة، وليس من خلال المنطقة التعليمية وتوفر أفضل المدرسين من الحاصلين على الدكتوراه في تخصصاتهم ومدرسي اللغات الإنجليزية والألمانية من خريجي جامعات هاتين الدولتين والأمر نفسه في تدريس اللغة العربية والرياضيات والعلوم وكانوا كلهم من كبار المتميزين في وقتها.

يبقي أن أقول إن هذه المدرسة في ذلك العام ١٩٦٦ كان عدد طلابها في الثانوية العامة وقتها لا يتعدى ٦٥ طالبا فقط، وكان منهم ١٧ من الثلاثين الأوائل على الجمهورية، ومن ضمن العشرة من الأوائل على مستوى الجمهورية كان هناك خمسة من طلاب المدرسة في سابقة لم تحدث في تاريخ الثانوية العامة المصرية.

وبعد ربع قرن وفي عام ١٩٩١ ولمدة ثلاث سنوات أيضًا، كانت لى فرصة جديدة لأن أجوب محافظات الجمهورية المختلفة، هذه المرة كأستاذ جامعي ضمن فريق استشاري لمشروع التنمية المحلية ممول من وكالة المعونة الأمريكية لتدريب قيادات الإدارة المحلية على أساليب التخطيط والإدارة وإدارة المشروعات وإعداد دراسات الجدوى لمشروع البنية الأساسية، التي كانت تمولها المعونة الأمريكية في هذا الوقت في مشروع كان يشرف عليه الكتور/ أحمد جويلي محافظ الإسماعلية ثم دمياط وبعد ذلك تولي وزارة التموين والتجارة الداخلية، وقد أتاح لي المشاركة في هذا البرنامج تكوين صداقات ومعارف مع قيادات المحافظات في أكثر من نصف محافظات الجمهورية، كما أتاحت لي معرفة مناطق أخرى لم أكن قد زرتها من قبل في شمال سيناء وجنوبها ودمياط وأسيوط، وهو ما نفعني كثيرًا بعد خمسة عشر عاما، حينما توليت مهمة محافظ الفيوم، حيث كانت قد تكونت لى خلفية العمل في هذا المجال.

تعرفت خلال جولاتي المتعددة في هذا المشروع على عينة من المحافظين من العظماء، ومنهم الدكتور/ فاروق التلاوى في الوادى الجديد والدكتور/ أحمد جويلي في دمياط واللواء منير شاش في شمال سيناء والدكتور/ عبد الرحيم شحاته في الفيوم، ولقد كانت هذه الفترة مهمة في الترسيخ لعلاقات مع قيادات ومواطنين في مناطق عديدة كانت الأساس في تكوين جزء أساسى في شخصيتي المرتبطة بحب الناس ومعرفة طباعهم وعاداتهم واكتشاف ملامح الشهامة المتعددة، التي يتمتع بها المصريون والتي تصبغها كل محافظة بطبيعتها الخاصة، وساعدني ذلك أيضًا معرفة العادات المحلية واللهجات وطرق النطق المختلفة والمفردات التي تتميز بها كل منطقة بالإضافة إلي العادات والتقاليد والأطعمة وطقوس الأفراح والمناسبات الأخرى.

وهكذا كانت الموجات الثلاث التي أتيحت لي لمعايشة أحوال مصر ومعرفة طباع وخصال أهلها ولهجاتهم ومشاكلهم وتطلعاتهم من الركائز المهمة في بلورة شخصيتي وتعميق صلتي بأبناء معظم محافظتها ومعايشتهم في مواقعهم والمساهمة المتواضعة في مواجهة قضاياهم اليومية، عرفتهم طفلاً صغيرًا في الموجة الأولى (١٩٥٤-١٩٦٣) وشابًا يافعًا في الموجة الثانية (١٩٦٣-١٩٦٦) وأستاذًا جامعيًا في الموجة الثالثة (١٩٩١-١٩٩٤) وما بين الموجتين الثانية والثالثة من موجات معايشة أحوال مصر كانت دراستي الجامعية في الهندسة في جامعة القاهرة، حيث تخرجت عام ١٩٧١، وكانت أيضًا فترة دراساتي العليا في الهندسة التي أنهيت فيها مرحلة الدرسات العليا من الجامعات الكندية حتي عام ١٩٧٩ ثم التحاقي بجامعة الكويت عام (١٩٨٠) أستاذًا مساعدًا ثم مساعدًا لنائب رئيس الجامعة حتى عام ١٩٩٠ حين وقع الغزو العراقي للكويت وكان هذا العام بداية مرحلة جديدة للمنطقة ككل ومرحلة جديدة أيضًا في حياتي وحياة أسرتي.

مع طلاب دفعتى فى مدرسة المتفوقين عام ١٩٦٦ وقد التحق الكثير منهم بالكلية الفنية العسكرية

مع طلاب مدرسة المتفوقين عام ٢٠١٦ بعد ٥٠ عاماً من التخرج

الفصل الرابع

مع خالد عبد الناصر

مع خالد عبد الناصر

امتدت صداقتي مع خالد أكثر من ٤٥ عاما، بدأت من سنوات الدراسة الأولى في هندسة القاهرة عام ١٩٦٦ وهو في سن السادسة عشرة، وانتهت بوفاته في سن الستين في سبتمبر عام ٢٠١١، عرفت من خلاله الكثير من المعاني الجميلة مثل التواضع، والرجولة، واحترام الذات، وعرفت كذلك من خلاله الكثير من أفراد أسرة الزعيم الراحل جمال عبدالناصر وقابلته هو شخصيًا قبل وفاته بشهور والتي كانت في ٢٨ سبتمبر١٩٧٠، وقابلت والدته السيدة تحية عبد الناصر، وعرفت أشقاءه عبد الحميد وعبد الحكيم، وحضرت حفل زواجه من السيدة داليا سمير فهمي، وحضرت أفراح بعض أولاده، عرفت من خلاله المهندس سمير فهمي والد زوجته، وعرفت أيضًا شقيقها سامح فهمي وزير البترول فيما بعد وهادى فهمي، ومازالت تربطني بهم علاقة ود واحترام حتى الآن.

وعرفت من خلاله أيضًا بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة ونواب رئيس الجمهورية فيما بعد، ومنهم السيد حسين الشافعى، وكذلك الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل، وعرفت أيضًا من خلاله سياسيين ناصريين أمثال حمدين صباحي الذى كان فيما بعد من قيادات ثورة ٢٥ يناير وجبهة الإنقاذ والمرشح في انتخابات رئيس الجمهورية عامي ٢٠١٢ و٢٠١٤، والدكتور عزازى علي عزازى الذى أصبح فيما بعد محافظًا للشرقية

واستقال مع وصول مرسى والإخوان إلى الحكم، وقال كلمته الشهيره إنه لن يكون "شماشرجي" قال ذلك بعدما كلفوه بعمل ترتيبات زيارة زوجة الدكتور مرسي إلى الشرقية بوصفها زوجة رئيس الجمهورية بعد انتخابه في ٢٠١٢، وقابلت بشكل عابر أزواج شقيقاته حاتم صادق وأشرف مروان.

بدأت علاقتنا عام ١٩٦٦ في أولى سنوات الدراسة الجامعية، وكان خالد وقتها ابن جمال عبد الناصر الزعيم والرئيس، وكان شابًا فارع الطول مثل الرئيس، ويتحرك بحراسة متواضعة جدًا، ويركب سيارة فيات ١٢٨ حمراء اللون، ويقودها بنفسه، وكان موضع اهتمام شديد من أبناء الدفعة والذين حرص على أن تكون علاقاته معهم علاقة "زمالة" أكثر من كونها علاقة " منظرة" ابن رئيس الجمهورية ولأن اسمه بحرف "خ" واسمي يبدأ بحرف "ج" فكنا في مجموعة دراسية واحدة، وكانت الدفعة تقسم وهو أمر متبع حتى الآن إلى مجموعتين أو أكثر، وكان فصله الدراسي ترقيمه تالٍ مباشرة إلى فصلي الدراسى، وعليه كنت من المقربين منه جدا في أوائل سنوات الدراسة، ثم توطدت علاقاتنا مع الوقت وصولاً إلى مرحلة البكالوريوس.

في المجموعة الدراسية التى ضمتنا، كنا نتلقى جميع المحاضرات سويًا، وكان حضوره وانصرافه وتحركاته موضع اهتمام كل الزملاء في محاولات عديدة من أبناء الدفعة للتودد إليه، ولكن ذلك كان دائمًا يقابله بتصرفات واضحة منه مؤداها أن تكون علاقاته كلها علاقات زمالة بين نظراء دون أي مظهر للاستعلاء أو التكبر.

كنت من الطلبة المتفوقين في الدفعة، وغالبًا ما كنت أنجح بتقدير امتياز في سنوات النقل في الكلية وكان في الدفعة ثلاثة أو أربعة زملاء آخرون بنفس درجة التفوق، وكان كل منا له مجموعة من المقربين تجلس في كتله متقاربة في المحاضرات، وكنا موضع احترام زملائنا ويرجع

البعض منهم إلينا في فهم ما غمض عليهم في المحاضرات، وكذلك للمساعدة في حل التمارين التي كانت تنهمر علينا كالمطر طوال الوقت، وكان تفوقي أحد أسباب توطد العلاقة مع خالد، حيث كان أوائل الدفعة في أى مجموعة موضع احترام باقي الزملاء وتقديرهم وهو أمر قد يكون اختفى هذه الأيام.

مع تعاقب سنوات الدراسة ازدادت علاقتي توطدًا مع خالد، وكنت أذهب إلى بيت الرئيس عبد الناصر في منشية البكرى من حين إلى آخر للمذاكرة ومراجعة الدرس، وأتذكر أن عم "زينهم" كان هو السائق الذى يحضر إلى منزلنا في العجوزة ليصطحبني إلى منشية البكرى بسيارة خالد الفيات الحمراء، وأتذكر إجراءات التأمين إلى المنزل والمرور أولاً على مبنى مجاور كان مقر السكرتارية والتأمين ويرأسه السيد/سامي شرف الذى أصبح وزير رئاسة الجمهورية فيما بعد، وأتذكر وأنا في هذه السن الصغيرة كنت من أشد المعجبين بأفراد الحراسة الخاصة والحرس الجمهورى بأجسامهم الفارعة وعضلاتهم المفتولة الذين كانوا يرافقوننى من بوابة منزل منشية البكرى حتى قبل الدخول إلى منزل الرئيس.

وأتذكر واقعة مقابلتي وجهًا لوجه للزعيم جمال عبد الناصر وكان ذلك قبل وفاته في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بشهور قليلة (مارس ١٩٧٠) وكنا طلابا في السنة الثالثة في كلية الهندسة، حيث كنت أنا وخالدا في أحد غرف الاستقبال وغادر خالد وتركني بمفردى في الغرفة وبعد قليل جاء من فتح الباب ودون اكتراث ظننته خالدا قد عاد ، إلا أنه هالني بعد لحظات أن الذى دخل الغرفة كان الزعيم عبد الناصر شخصيًا، وكانت هذه أول مرة أشاهده عن قرب بعيدًا عن مواكبه الرسمية التي كنا جميعًا نصطف فيها لتحيته حال مروره في سيارته المكشوفه أو عن حضوره العروض العسكرية التي كانت تتم في عيد الثورة على كورنيش النيل بالقرب من مبنى الإذاعة والتليفزيون في ماسبيرو.

عبد الناصر كانت له هيبة شديدة جداً، ووجدته أمامي وقتها بطوله الفارع ونظراته الحادة وعيونه التي تلمع، وكان رد فعلي التلقائي هو أنني بدأت التصفيق بمفردى، نظر إلي الزعيم وأظنه أشفق علي وسألني عن اسمي وعن خالد ولم تطاوعني الكلمات بالإجابة وربت على كتفي وخرج وأنا في غاية الذهول، وحكيت في كلمات متقطعة ما حدث لخالد بعد عودته وانخرط في نوبة ضحك مستمر وأنا أحاول التماسك ولملمة مشاعرى مرة أخرى.

كانت وفاة عبد الناصر فجأة في أعقاب مؤتمر القمة العربية وتوديع آخر القادة العرب وكان أمير الكويت، واهتزت مصر كلها كما اهتز العالم العربي بل والعالم كله، فلم يكن عبد الناصر رئيسًا عاديًا ولكنه كان زعيمًا وقائدا ملهمًا وصاحب رسالة أحبه المصريون والعرب ورأوا فيه رمزا للعزة والكرامة والزعيم الذى أحيا مفهوم القومية العربية في العصر الحديث، لم أستطع حضور الجنازة المهيبة، حيث تم إغلاق كوبرى الجلاء الفاصل بين مسكني في العجوزة ونقطة بداية الجنازة في مقر قيادة الثورة، ولكنني تابعت المشهد المهيب الذى كان وكنت تحديدًا أحاول تتبع صديقي خالد في النقل التليفزيوني في بداية الجنازة وعند قبر عبد الناصر في المسجد الذى أطلق عليه اسمه في أول الخليفة المأمون.

ذهبت للعزاء في منزل الرئيس في اليوم التالي، وكان اليوم مخصصا للمقربين من الزعيم وأسرته، وكذلك كبار رجال الدولة، وجلست في هذه الليلة في مكان بين الحديقة ومدخل المنزل، وكان فيه نائب رئيس الجمهورية محمد أنور السادات قبل أيام من رئاسة الجمهورية، وكذلك السيد حسين الشافعي والكاتب الكبير حسنين هيكل وغيرهم، في ذلك اليوم لم يكن من الممكن أن أطلب من السائق زينهم أن يحضر ليصطحبني وذهبت في أحد أتوبيسات هيئة النقل العام إلى أقرب مكان ممكن في منشية البكرى، ثم استقليت تاكسيا إلى مدخل المنطقة ثم استكملت سيرًا

على الأقدام وفي العودة اصطحبني عميد كليتنا في ذلك الوقت الدكتور/ عبده السعيد وكان معه فى السيارة الدكتور فؤاد عسل وكيل الكلية والذى أصبح هو أيضًا عميدًا عام ١٩٧٢ وأوصلاني حتى قرب منزلي بالعجوزة.

كانت الوفاة قبل نهاية الإجازة الصيفية ما بين السنة الثالثة والسنة النهائية في كلية الهندسة، وكان يجول بخاطرى دائمًا كيف سيكون الحال مع صديقي خالد عندما يعود إلى مقاعد الدراسة بعد وفاة الزعيم عبدالناصر الرجل الأقوى في مصر كلها بل في العالم العربي وأفريقيا وأحد أبرز الزعماء الكبار في العالم كله. عدنا إلى الدراسة وعاد خالد، هو حزين بالتأكيد ومصدوم، قد فقد الأب والسند ولكنه لم يكن منكسرًا، فارقته الابتسامة وكان حزنه وقورًا، كان حزنه حزن الكبار فعلاً.

مع نهاية العام الدراسى في يوليو عام ١٩٧١، وإعلان النتائج النهائية لمرحلة البكالوريوس كان ترتيبي الخامس على الدفعة بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى، وكان تقدير خالد جيد جداً مع مرتبة الشرف وترتيبه ٣١ على الدفعة التي جاوز عددها ٥٠٠ طالب إلا أن إمكانيات خالد الذهنية كانت تمكنه من حصد تقدير أعلي من ذلك بكثير، ولكن لا بد أن التزاماته المتعددة كابن رئيس الجمهورية وككبير العائلة بعد وفاة الرئيس كانت تلقي عليه مسؤليات تستقطع من وقته وتركيزه الكثير، خالد كان في منتهى الذكاء بل إنه كان حاد الذكاء، يفكر ويبدع في التحليل ولا يرضي بالمسلمات في الأمور العلمية.

تم تعيين الأحد عشر الأوائل على الدفعة معيدين في الكلية، وكنت منهم بقرارمن رئيس جامعة القاهرة حسبما تقتضي القواعد وبعد انخراط المعيدين الجدد في مسؤلياتهم وبعد مرور حوالي شهرين أو ثلاثة على بداية العام الدراسى الجديد في سبتمبر ١٩٧١، صدر قرار جمهوري بتعيين خالد معيداً في قسم الأشغال العامة (أحد تخصصات الهندسة

المدنية) وهو القسم نفسه الذى كنت قد التحقت به معيداً قبل ذلك بشهور قليلة، ساد جدل حول تعينه بقرارجمهورى متخطياً بعضا من هم أعلى منه تقديرًا ولكن الجميع أجمع أن هذا هو أقل القليل الممكن تقديمه لابن الزعيم بالإضافة أنه كان من الممكن إلحاقه بوظائف أكثر تميزًا من الناحية المادية، ولكن كانت الرغبة في البعد عن الشبهات.

لسنوات ثلاث من ١٩٧١ وحتى ١٩٧٤ عملنا سويًا معيدين في تخصص تخطيط النقل وهندسة الطرق، وتوطدت علاقتنا أكثر وسجلنا الماجستير في هذا التخصص مع مشرف واحد وهو المرحوم الدكتور عبد الرحمن الهوارى أستاذ تخطيط النقل في هندسة القاهرة ومؤسس هذا التخصص في الجامعات المصرية.

حضرت في هذه الفترة فرح خالد عام ١٩٧٢ وتعرفت على والد زوجته المهندس/ سمير فهمي وكان في ذلك الوقت رئيسًا لشركة أتوبيس شرق الدلتا ولكنه كان قبلها من قيادات البترول في مصر وعرفت سامح فهمي وهادي فهمي وكانا وقتها في سن الثامنة عشرة وكنت أذهب إلى منزلهم في مصر الجديدة للحصول على تذاكر مجانية للسفر إلى الإسكندرية كان يدبرها المهندس سمير فهمي ويتركها في البيت لكي أتسلمها بعد ذلك.

واشتركت مع خالد تحت إشراف أستاذنا الدكتور الهوارى في أول أعمالنا الاستشارية في الشركة التي يرأسها المهندس سمير فهمي، وكان منوط بنا وضع تخطيط متكامل لعمل الشركة وتحليل الأعمال وتوقعات النمو المتوقع فيها ودراسة خطوط أوتوبيسات وأحجام الحركة المتوقعة عليها وحجم الأسطول في المستقبل، وكانت هذه من أوليات الدراسات الاستشارية التى قام بها في مصر فريق عمل مصري صميم في هذا التخصص الذي كان جديداً في هذا الوقت.

وحضرت في تلك الفترة فرح عبد الحميد عبد الناصر، وكان في حديقة استراحة المعمورة وحضره الرئيس محمد أنور السادات، وتعرفت في تلك السنوات على عبد الحكيم عبد الناصر وكان طالبًا مبتدئًا في هندسة القاهرة، وكنت وأنا معيد في الكلية ـ وبعيدًا عن علاقتي بخالد ـ ألتقي عبد الحكيم في منزلهم لمراجعة بعض التمارين ومازالت تربطني حتى الآن علاقة متميزة معه، وقد دعوته لعقد قران أصغر بناتى سحر والذى تم فى صحن جامع محمد على فى القلعة فى مارس ٢٠١٧.

زارني خالد في منزلي بالعجوزة عدة مرات في سنوات عملنا كمعيدين في الكلية ما بين ١٩٧١ حتي ١٩٧٤ وكان من اللافت للنظر أن جهات عديدة كانت تعرف بهذه الزيارة مع أن اتفاقي معه على أي زيارة كانت تتم بشكل شخصي ومباشر، وكانت المفاجأة أن هناك من يحضر إلى الشارع وينظفه ويرشه بالمياه قبل الزيارة مع وجود بسيط لأفراد تأمين على مداخله حتى تنتهي الزيارة وكان سكان الشارع يرحبون به في كل مرة وكان يتحدث معهم ويصافحهم بتواضع جميل، وقد أحب في منزلنا البساطة والأكل الذى تعده والدتي وخاصة الباذنجان والكوسة بالبشاميل والملوخية والكشرى.

حينما توفى والدى عام ١٩٧٢ وشيعت جنازته فى عزبة سعيد بالشرقية حضر خالد تشييع الجنازة، وكذلك حضرها زملائى المعيدين فى هندسة القاهرة، وأتذكر أن خالدا بعد تشييع الجنازة قد جلس يتحدث مع جدى على سعيد (خال والدى) وكان عمره وقتها ٧٥ عاما وكانت تبدو عليه ملامح العز والثروة ويرتدى ملابس ناصعة البياض، وسألنى خالد بعدها مبتسمًا عما إذا كان والده قد أخذ أى أراض من هذا الجد الإقطاعى أم لا؟

سافرنا في ١٩٧٤ لدراسة الدكتوراه هو إلى لندن، حيث درس الدكتوراه في تخطيط النقل في "أمبيريال كولدج" وأنا إلى جامعة "ووترلو" في كندا

إحدى أعرق الجامعات الكندية وأقواها في التخصصات الهندسية، وأتذكر أنني واجهت بعض الصعوبات في الحصول على تأشيرة دخول كندا وأن خالدا تحدث مع السيد/نور الدين فرغل كبير أمناء رئاسة الجمهورية في هذا الوقت والذى قابلني في قصر عابدين وتحدث أمامي مع السفير الكندى وأخبره أن الحكومة المصرية ترغب في سفرى للدراسة في كندا وكلفني بالذهاب إلى مقابلة السفير بعدها مباشرة، حيث أعطاني التأشيرة في نفس اليوم وكان الأمرعادة يحتاج إلى أسابيع عدة.

عاد خالد من لندن عام ١٩٧٩ بعد الحصول على الدكتوراة، أما أنا فقد عملت في وزارة النقل الكندية على سبيل التدريب من ١٩٧٩ بعد الحصول على الدكتوراة ولمدة عام، وانتقلت بعدها للعمل في جامعة الكويت وكنت من الجيل الأول المؤسس لكلية الهندسة والبترول في جامعة الكويت وهي من أفضل الجامعات في الخليج العربي والمنطقة واستمر عملي في جامعة الكويت لعشر سنوات من ١٩٨٠ حتى ١٩٩٠.

في تلك الفترة كانت زياراتي لمصر مستمرة ولقاءاتي مع خالد واحدة من ضمن بنود الزيارة، وكنا نلتقي بشكل دائم إلى أن ظهرت قضية (ثورة مصر) والمحاكمات التي تمت وهو أحد المتهمين فيها وحكم عليه بالإعدام وغادر مصر ومعه أسرته إلى يوغسلافيا، وعاش هناك ثلاث سنوات تقطعت فيها سبل الاتصال بيننا وكنت وأنا في الكويت أتألم لما وصل إليه الحال مع خالد وأسرته إلى أن عاد وأودع في الحجز، ثم أخلي سبيله في جلسة الاستئناف التي ألغت الحكم.

مع بداية ١٩٩١ وبعد استقراري في مصر وعودتي إلى العمل الجامعي توطدت علاقتي مع خالد، حيث اشتركنا في نفس التخصص والمهنة وكان لنا مكتب مشترك في شارع التحرير في الدقي وتعاقدت معنا هيئة المعونة اليابانية في أعوام ١٩٩٥ و١٩٩٦ لإجراء دراستين استشاريتين الأولى

بخصوص دراسات كوبري السلام والثانية تتعلق بإعداد المخطط الهيكلي لسكك حديد مصر، وكان ذلك بالاشتراك مع شركة يابانية كبرى هي "باسفك كونسلت" بالإضافة إلى استشارات هندسية في عام ١٩٩٨ لمجموعة "بيكو للاستثمار" لصاحبها صلاح دياب الذى عرفته عن طريق خالد في هذا الوقت.

مع بدايات عام ٢٠٠٠ بدأت المشاكل الصحية تلاحق خالدا متمثلة في الضغط المرتفع وبعض الأورام الحميدة التي استدعت السفر إلى الخارج واستئصالها وكان خالد مدخنًا شرهًا، وهذا ما أثر على صحته كثيرًا وأصبحت معظم زيارتي له في منزله بالقرب من شارع النزهة مرتبطة بالاطمئنان على صحته أو بتهنئته بسلامة العودة من رحلة علاج طويلة من الخارج، ولكن كل ذلك لم يمنع خالد من الاستمرار في مزاولة مهامه الجامعية أو مشاركتي في بعض الأعمال الاستشارية أو الاشتراك في الأبحاث العلمية.

كان خالد بارعًا في التحليل المنطقي للأمور وبارعًا في استخدامات برامج الحاسوب المتخصصة، وكان سخيًا في شراء هذه البرامج وشغوفًا بمعرفة إمكانياتها وخباياها وقناعتي أن خالدا إمكاناته كانت تؤهله لمواقع تفوق ما وصل إليه إلا أن الاعتبارات الخاصة بصفته الابن الأكبر للرئيس عبد الناصر وحرصه على مراعاة توازنات كثيرة في أمور حياته العامة وتحركاته بشكل عام كانت هي الحاكم في هذا الأمر - رحمة الله عليه -.

تزايدت الأمراض على خالد مع نهاية عام ٢٠٠٩ ودخل المستشفى وسافر للخارج أكثر من مرة ومشاكله الصحية تشابكت مع بعضها البعض، إلى أن كان مرضه الأخير أوائل ٢٠١١ وكنت أنا مشتبكًا مع تداعيات ثورة يناير ٢٠١١ بحكم موقعي محافظا للفيوم، وكنت دائم الاتصال به سواء مباشرة أم من خلال الصديق المشترك سامي جبرين

الضابط السابق في المخابرات الحربية، الذى رافقه في كل خطوات العلاج في مصر وخارجها.

مع تدهور صحة الدكتور خالد، دخل مستشفى كليوباترا في مصر الجديدة وزرته في المستشفى عدة مرات ولكن حالته الصحية كانت قد تدهورت كثيرًا وفقد نصف وزنه، وأصبح شاحب الوجه وأصبح واضحًا أن لديه مشاكل صحية صعبة، وأتذكر أنه لم يكن مرتاحًا أن يراه الناس وهو في هذه الحالة وكثيرًا ما ذهبت إلى المستشفى ولم تطاوعني نفسي أن أراه على هذا الوضع الذي رأيته في المرات السابقة ولكن كنت أقضي معظم اليوم منتظرًا في الطرقات أو في أحد الاستراحات مع من أراه من أفراد أسرته.

توفي خالد في ١٥ سبتمبر ٢٠١١ وأخبرني بالوفاة الدكتور عزازى علي عزازى، وكان يشغل منصب محافظ الشرقية في ذلك الوقت، وحضرت الجنازة في اليوم التالي وتم دفنه في مقبرة قد اشتراها في المقابر الواقعة الآن على محورالمشير، وحضرت العزاء في اليوم التالي، وهناك قابلت كل أبناء دفعة ١٩٧١ في هندسة القاهرة، وهم زملائى وزملاء خالد وكان الكثير منا لم يتقابلوا منذ أربعين عامًا وجمعنا خالد في عزائه مرة أخرى، وأتذكر أننى أثناء تأديتى لواجب العزاء أن كانت جلستى بجوار الدكتور كمال الجنزورى الذى كنت أتابعه رئيسًا لمجلس الوزراء حتى ١٩٩٩ ولم يكن هو يعرفنى، إلا أن القدر أتاح لى بعد شهرين تقريبًا أن أكون ضمن حكومة الإنقاذ التى بدأ فى تشكيلها فى أواخر نوفمبر من نفس العام بتكليف من المجلس الأعلى للقوات المسلحة والذى كان يدير شئون البلاد فى ذلك الوقت.

مع خالد عبدالناصر فى زيارة لمزرعة أحد الأصدقاء ١٩٧٢

الفصل الخامس

سنوات الدراسة في كندا

١٩٧٤-١٩٨٠

سنوات الدراسة في كندا
١٩٧٤-١٩٨٠

حصلت على تأشيرة السفر إلى كندا بتدخل من نور الدين فرغل أمين رئاسة الجمهورية لدى سفير كندا، وسافرت إلى كندا ومعي خمس منح من خمس جامعات كندية للدراسات العليا في مجال هندسة وتخطيط النقل واستقرت بي الأمور في جامعة ماك ماستر الواقعة في مدينة هاملتون بالقرب من تورنتو.

كان سفرى إلى كندا في عام ١٩٧٤ نقلة كبيرة جداً بالنسبة لى، وكنت قد انتهيت من دراسة الماجستير في جامعة القاهرة وعقدت قِراني على زوجتي نجوى، وكانت إحدى طلابي وأنا معيد في الكلية وهي من أسرة مصرية طيبة وأنفقت كل مدخراتي البسيطة في حفل عقد قراني الذي تم في حديقة نادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة بشارع هارون بالدقي وكان الشاهد على عقد القران صديقى خالد عبد الناصر وأحيته فرقة أحضرها أحد طلابي ومعها المونولوجست حمادة المصرى والراقصة هياتم وتقاضت وقتها خمسة عشر جنيهًا، وتكلف كل الحفل ٣٥ جنيها.

سافرت إلى كندا بمفردى ثم لحقت بي نجوى بعد حوالي شهرين، وقد غادرت مصر ومعي تقريباً بعض عشرات الدولارات، في الطريق إلى كندا توقفت في ألمانيا، حيث كان يقيم شقيقي الأكبر بعد الانتهاء من دراسة الدكتواره في جامعة أخن وبعد أيام غادرت مستكملاً الرحلة إلى تورنتو

وكان السفر إلى ألمانيا وزيارة شقيقي فرصة لأقترض منه ١٠٠ دولار إضافية تساعدني في مواجهة المتطلبات العاجلة في كندا قبل أن أتسلم من الجامعة دفعة مقدمة من المنحة التي قدموها لي للدراسة وقدرها ٢٨٠ دولارا شهريًا.

البدايات كانت صعبة والسكن الأول كان في غرفة صغيرة لا تتعدى مساحتها ١٠ أمتار مربعة، وكان إيجارها الأسبوعي ١٥ دولارا وهي من الغرف التي تقع تحت السقف المائل للبيوت القديمة وكان الوقوف بشكل كامل غير متاح في بعض أنحاء الغرفة والتي تشترك مع غرف أخرى في الحمام والمطبخ، والأكل معظمه جبنة وتونة ولانشون وكوكاكولا، ومع دخول رمضان بعد وصولي بأيام كان الصيام حتى التاسعة مساء والسحور حوالي الواحدة صباحًا وانتهى الأمر إلى تناول وجبة واحدة يوميًا من تشكيلة من النواشف، حيث لا أجيد الطبخ ولا يوجد هناك وقت أصلاً لذلك.

مع قرب وصول زوجتي انتقلت إلى مسكن أكبر مساحته حوالى ٤٠ مترا مربعا، ويتكون من غرفة واحدة بها سرير يدخل في الحائط أثناء النهار ومطبخ وحمام، ولأول مرة بعد شهرين أتذوق طعم الأكل البيتي المطبوخ وإن كنا قد مررنا بتجارب عديدة نتيجة استرخاص اللحوم التي نشتريها وعرفت فيما بعد أنها من لحوم الخنزير التي عادة ما تباع بحوالي نصف أسعار اللحوم الأخرى.

كان مستوى التعليم في مصر في هذا الوقت متميزًا جدًا، وأتذكر أنني كنت قادرًا في اليوم التالي لوصولي إلى كندا أن أتابع المحاضرات وأناقشها مع أساتذتي وزملائي الطلاب، بل وأقوم بحكم المنحة التي حصلت عليها بتصحيح الواجبات التي كان يكلف بها زملائي من الطلاب الكنديين والأجانب في المواد الدراسية التي أحضرها معهم طالبًا ثم مصححًا لأوراقهم، وعادة ما كان الطلبة المصريون يظهرون تفوقًا واضحًا

بالمقارنة بالطلاب الكنديين أو الأجانب الآخرين وكان ذلك بسبب جديتهم وذكائهم خاصة وأن معظمهم من المعيدين في الجامعات المصرية.

كان الاختلاف في الثقافة واضحًا، هم متحررون في أقوالهم وملابسهم وطريقة تعاملهم مع الأساتذة بعكس ما تعودنا عليه، عندهم جرأة في المناقشة والاختلاف والاعتزاز بالنفس في مواجهة الأساتذة ولا يقبلون بشيء إلا بعد الاقتناع به تمامًا، اللبس للبنات ممكن أن يكون شورتا قصيرا وبلوزة تكشف عن أجزاء من الجزء العلوى للجسم أكثر مما تستر، الشباب نفس الشيء، الأحذية من الكاوتش وبدون شراب، الوصول إلى الجامعة بالدراجة، الجلوس والنوم على الحشيش النظيف جدًا أمام مباني الجامعة عادى، تبادل القبلات بين الجنسين عيني عينك، الأفلام الإباحية منتشرة في كل دور العرض.

كنا مجموعة من الطلبة المصريين الذين وصلوا إلى الجامعة في نفس الفترة الزمنية، أذكر منهم الآن الدكتور ممدوح شكرى والذي أصبح فيما بعد نائباُ لرئيس جامعة ماك ماستر ثم بعد ذلك رئيسًا لجامعة يورك في تورنتو، وأذكر أيضًا الدكتور محمد البستاوى الذى أصبح فيما بعد عميدًا لنفس الكلية التي كنا ندرس بها ثم نائبًا لرئيس الجامعة للأبحاث أيضًا، وأذكر الدكتور وجيه المراغي وزوجته الدكتورة هدى المراغي التي أصبحت فيما بعد أول سيدة تتولى منصب عميد كلية الهندسة في كل الجامعات الكندية، حيث شغلت منصب عميد كلية الهندسة جامعة وندسور على الحدود بين كندا وأمريكا، وكان معي أيضًا الدكتور عزت فهمي ابن دفعتي في هندسة القاهرة الذى أصبح فيما بعد عميدًا لكلية الهندسة في الجامعة الأمريكية في القاهرة وكان ممن سبقونى إلى الجامعة ولحقت بهم قبل أن يتخرجوا الدكتور جودة عبد الخالق وزير التموين وزميلى في حكومة الإنقاذ الوطنى التى شكلها الدكتور الجنزورى وزوجته الدكتورة كريمة.

مع بعض الاستقرار في الدراسة وامتصاص الصدمه الثقافية الأولى، كانت هناك فرص للانطلاق إلى عالم جديد مختلف تمامًا عما نعرفه عندنا، كنا فى مصر نعتبر دارس الدكتوراة شخصية مرموقه في مجتمعه، أما هناك هو طالب يذهب إلى المدرسة استعدادًا للدخول للحياة العملية بعد ذلك، كنا ندرس فى مصر ونعرف أننا بعد الدراسة مآلنا أن نكون أساتذة جامعات، عندهم الدراسه لا تضمن أي شيء سوى تأهيل أفضل يسمح بفرص عمل أفضل ليس بالضروره أن يكون عملاً جامعيًا.

سافرت خلال العام الأول إلى عدة مدن منها تورونتو وأوتاوا ومونتريال ثم تجرأت وسافرت أقود سيارتى الفولكس المتواضعه إلى نيويورك وعرفت أن نيويورك لا تمثل أمريكا كما كنا نعتقد، نيويورك مدينة ضخمة وصاخبة، عاصمه للمال والأعمال، ليست المكان المفضل للمعيشة، وكذلك كل المدن الكبرى، الشرق الأمريكى أو الكندى يختلف عن الوسط والغرب، في الوسط والغرب والجنوب هناك أمريكا الحقيقية والأمريكيون على طبيعتهم، في نيويورك كل المتناقضات، حصلت على أول مخالفة مرور بقيمة ٥٠ دولارا عام ١٩٧٥ (أكثر من ٥٠٠ دولار الآن) للوقوف ٣ دقائق أمام أحد البنوك في شارع ٤٢ الشهير في مانهاتن. الزنوج يملأون المدينة، توقيف المارة وأخذ نقودهم تحت تهديد السلاح شيء عادى، البوليس يشاهد ويراقب ولا يتدخل، المصريون اليهود يمتلكون عشرات المطاعم والمحلات، يعرفونك من أول نظره، يحدثونك عن مصر وذكرياتهم فيها وحبهم لها ورغبتهم في العوده إليها مره أخرى ومعظمهم خرج ما بين ١٩٥٦ و١٩٦٧ أو بعدها مباشرةً.

بيوت جميع الطلاب المصريين الدارسين في كندا كانت متواضعه، شقق صغيرة، في عمارات وسط البلد وهى المنطقه التى يهجرها الكنديون للعيش في فيلات على أطراف المدينة، أثاث الشقة لا يتعدى السرير

وغرفة معيشة متواضعه وترابيزه للأكل، كنا نشعر أننا نمتلك الدنيا كلها مقارنة بالأوضاع المعيشية الصعبة في مصر في تلك الأيام وأخصها الحصول على شقة أو خط تليفون في حين أننا هناك نؤجر الشقة في نصف ساعه ونحصل على خط التليفون في ربع ساعة، بينما كانت الناس في مصر في هذا الوقت تتوارث إيصال التليفون ويدخل ضمن التركه التى يخلفها أي متوفي.

أتذكر واقعة في هذا الخصوص، عند عودتى من الجامعة قالت لى زوجتى نجوى أننا فزنا بجائزة سيأتى من يحضرها لنا بعد قليل، وقد حضر فعلاً ومعه جائزة عبارة عن علب صلصة وعلب مكرونة مطبوخة وأشياء بسيطة أخرى، إلا أن الحصول عليها يتطلب أن يعرض علينا مميزات أحد أنواع المكانس الكهربية التى يعمل مندوب مبيعات لدى أحد الشركات المسوقه لها، وكان ثمنها يعادل مرتبى الشهرى بالكامل ولا احتاجها لأن إمكانياتها تتعدى متطلبات شقتنا الصغيره وسجادتنا التى كانت جزءا مقطوعا من الموكيت بأبعاد ٢ في ٣ أمتار ويغطى نصف غرفة المعيشة والستائر من البلاستيك وهى رخيصه للغاية وكل أثاث غرفة المعيشة لا يتعدى كنبة وكرسيا وكانت إمكانات المكنسة المعروضة تمكنها من تنظيف السجاد وفرش أطقم الصالونات والستائر الفاخرة، وكلها أشياء لم نكن نمتلكها. عند نهاية الشرح الذى قام به مندوب المبيعات والمفروض أنه في الظروف العادية يؤدى إلى إمكانية أن يقتنع الزبون ويشترى، كنت أشعر أن البائع عنده شعور راسخ أن هذا الشخص، والذى هو أنا، استحالة أن يشترى المعروض في ظل وضعه البائس الذى رآه، وعندها أخبرته بالفعل عدم حاجتى للمكنسة وعندها سألنى ما هى نوع المكنسة التى أستخدمها حاليًا لأنه من الممكن أن يأخذها مقابل تخفيض في ثمن المكنسة التى جاء ليعرضها، كاد يغشى عليه لأن ما لدى كان مكنسة عادية بيد من خشب.

سألنى عن وظيفتى وأجبته بكل فخر أننى طالب دراسات عليا وشددت على تعبير الدراسات العليا ولكنهم يعتبرون الطالب فى أية مرحلة هو مجرد طالب ويذهب إلى المدرسة (goes to school)، وأستفسر عن معنى ما أقوم به وقيمته طالما لا أحصل على المقابل المادى الذى يلبى متطلبات المعيشة المعروفة لديهم، وقال ما معناه: أنت في هذه السن ومازلت تذهب إلى المدرسة؛ تعال واعمل معنا عدة ساعات أسبوعيًا، وقد حدث بالفعل وأخذنى في حصص عمل تدريبية بعدما قدمنى لرؤسائه، وللأسف لم تستمر هذه التجربة مع أننى تعلمت من خلالها الكثير من فنون البيع، إلا أن المواقف المحرجة العديدة التى كنا نتعرض لها من أصحاب البيوت عند زيارتهم للتسويق لم ترق لى وتوقفت عند التدريب رغم حاجتى المُلحة للمال.

من ضمن المواقف المحرجة أننا ذهبنا سويًا لعرض نفس النوع من المكانس على أسرة كندية صغيرة فى أحد الشقق السكنية فى مبنى سكنى ضخم يضم الدور الواحد عشرات الشقق، ولأننا وصلنا قبل الموعد بعدة دقائق، فقد خاطبنى ناصحًا أن نلتزم بالموعد ووقفنا على جانب الباب عدة دقائق قبل أن تخرج الزوجة غاضبة وتغلق الباب خلفها بمنتهى الشدة ويفتح الزوج الباب ويتبادلان الشتائم ثم يغلق الباب أيضًا بنفس الشدة، وصاحبى هذا يخاطبه أننا على موعد لشرح مزايا المكنسة وأننا جئنا فى الموعد تمامًا ويحاول الزوج إفهامه أن الزوجة قد غادرت غاضبة ولن تعود ويغلق الباب، ويعاود صاحبنا طرق الباب لتأكيد أننا جئنا بناء على اتفاق مسبق وانتهى الأمر بسباب وشتائم بين الزوج والبائع هذه المرة.

كانت المحاضرات فى الجامعة ليست كمحاضراتنا في مصر، أعداد صغيرة، المحاضرات تتم على شكل حوارات ونقاش، يقوم أحدنا بعمل تلخيص وعرض لأحد موضوعات المقرر، المراجع موجودة، التطبيقات

العملية متوفرة والمكتبات تقاس مقتنياتها بمئات الآلاف من الكتب، المجلات العلمية متاحة للجميع والعدد الصادرالأسبوع الماضي تجده على الرف من يوم صدوره.

الطلاب خليط ما بين من يزاولون العمل ويدرسون بعض الوقت لزيادة المعرفة وبحثًا عن فرص للترقي في أعمالهم التي يشغلونها بالفعل، وبين الطلاب مثلنا المتفرغون للدراسة كما علمونا في مصر حتى نعود بالدكتوراة (الشهادة الكبيرة) التي تؤهلنا إلى بداية مسار للترقي الجامعي.

كنا نأخذ الأمور بجدية شديدة ونكاد نحفظ الكتب ولا يمكن للطلاب الآخرين أن يضارعونا في ذلك، عند تقسيمنا إلى مجموعات لعمل مشاريع مشتركة كنا من باب التباهي نقوم بكل أعمال المجموعة تطوعًا ونضع أسماءهم مع أسمائنا عليها من باب إظهار الشطارة والجدعنة.

في أحد المقررات في جامعة ماك ماستر وكنت على وشك الانتهاء من رسالة الماجستير وقمت بالتسجيل في هذا المقرر دون أن يتطلب الأمر مني ذلك ولكنها الرغبة في التمكن من موضوع معين، ناقشت أستاذ المادة وكان أمريكيًا في شيء رأيته غير منطقي فيما شرحه، فأجاب أنه قد أخذ ذلك عن كتاب لدكتور هو الأشهر في هذا التخصص في كل جامعات أمريكا الشمالية وكتابه يدرس في معظم الجامعات تقريبًا واسمه هتشنسون وكنت قد سمعت هذا الاسم من قبل وأعرف قيمته ولكنني ككل المصريين كنا نعتبر هؤلاء العلماء الكبار، طبقة فوق البشر وعلمهم لا ينازع، وأضاف أنه لاستيضاح الأمر يمكنني الذهاب إليه وشرح وجهة نظرى ثم أعود وأعرضها على باقى الطلاب.

وكانت هذه الواقعة من اللحظات المهمة جدًا في حياتي العملية والعلمية، حيث تحدث الأستاذ الأمريكى مع هذا العالم المشهور وحدد لي موعدًا وسافرت لمقابلته في جامعة ووترلو وتبتعد عن جامعتنا أقل من

١٠٠ كليومتر، وكان موعدى الواحدة ظهرًا وذهبت في الموعد وناقشته واحترم وجهة نظرى وعرض ما عنده بمنتهي التواضع وانتهي اللقاء وعرض على أن نتناول الغذاء سويًا وقبلت وفي نهاية المقابلة قال لي ماذا تعمل في الجامعة التي كنت أدرس فيها وقتها، وقال لى متابعًا، مكانك هنا، وليس من الضرورى الانتهاء من الماجستير، تستطيع أن تبدأ الدكتوراه من الغد.

كان لقاء ممتعًا مع واحد من قمم العالم في تخصص تخطيط النقل والذى لم أكن أحلم حتى بمصافحته فإذا به يدعوني أن أكون أحد طلابه في هذه الجامعة الأهم في العلوم الهندسية في كندا والعالم.

كان الانتقال إلى جامعة ووترلو والعمل مع الدكتور هتشنسون الذي يعيش في كندا، وهو إسترالي الأصل، نقطة مهمة في تاريخي العلمي والمهني، تعلمت منه الكثير؛ ما ساعدني مستقبلاً أن أشق طريقي بالكيفية التي أدت بي إلى مواقع أكاديمية وتنفيذية وسياسية عديدة على مدى عشرات السنين فيما بعد.

مما تعلمته من هذا الرجل الذى أنهيت معه رسالتي للدكتوراه وامتدت علاقتي به حتي الآن على مدار ٤٠ عاما، الإخلاص والتفاني في العمل والتركيز فيه والاعتزاز بالنفس والقدرة على الحوار البنّاء والقدرة أيضًا على اكتساب احترام وثقة كل المحيطين به من طلابه وزملائه ورؤسائه ومرؤسيه.

كان يعلمني ألا أتحدث في موضوع إلا لو كان ما أعرفه يعادل عشر مرات ما سأقوله، وكان يعلمني أنني إذا تحدثت في موضوع فيجب أن أثق في نفسي كوني الذي اخترت التحدث فيه وبالتالي أمتلك ميزة عن أي شخص يسمعني، كان يعلمني ألا أخشى أحدا وأن أتحدث بلهجة واضحة دون تردد وأن أنظر إلى محدثي وجهًا لوجه بثقة لا يعوزها الاحترام، كان شديد الحرفية في الكتابة العلمية الدقيقة وتعلمت منه أن تكون الكتابة لها

خط تفكير ومنطق واضح دون لف ولا دوران، كان حكيمًا يقول كلمات قليلة ولكنها تحمل معاني كبيرة.

دامت علاقتنا أكثر من أربعين عامًا كاملة منذ لحظة لقائنا عام ١٩٧٦ حتى الآن، عرفت زوجته ماري وهي كندية من أصول إسكتلندية وأولاده؛ جين وتوم وسوزان، كانوا أطفالا صغارا والآن أصغرهم سوزان عمرها يتخطى الخمسين.

وعندما ذهبت للعمل في جامعة الكويت بدءًا من عام ١٩٨٠ دعوته أستاذًا زائرًا في الجامعة مرتين في عام ١٩٨٢، ١٩٨٨، وكان يدعوني سنويًا للعمل أستاذًا زائرًا في جامعة ووترلو وذهبت بالفعل عدة مرات وألقيت محاضرات بحثيه في كل مرة .

واشتركنا في إجراء أبحاث علمية ونشرها في مجلات عالمية متخصصة وكان مجرد وجود اسمه على أي بحث يضفي احترامًا عليه وعلى كل من شاركه في كتابة هذا البحث، وفي عام ٢٠٠٦، حيث كنت رئيسًا لجامعة الفيوم وذهبت إلى كندا لبحث سبل التعاون مع جامعتها وكانت جامعة ووترلو هى أهم هذه المحطات، ورتب لي كل شيء حيث قابلت رئيس الجامعة وكل قيادتها وكنت قد تركتها من قبل مجرد أحد طلابها، وأثناء زيارتى في ٢٠٠٦ وبالرغم من أنه قد تقاعد وترك الجامعة فقد قام بتنظيم لقاء في منزله الريفي جمع كل أساتذتي وزملائي وقت وجودي في الجامعة منذ أكثر من ٢٥ عاما إلى عشاء جميل يحمل كل معاني الحب والصداقة بين الجميع.

من أهم الأحداث في هذا الوقت التي عاصرتها من خارج الوطن كانت زيارة الرئيس السادات لإسرائيل في نوفمبر ١٩٧٧، وأتذكر أن هذه الزيارة والترتيب لها كانت كالزلزال الذى هز العالم كله والولايات المتحدة على وجه الخصوص، نظر الأمريكان بإعجاب شديد إلى الرئيس السادات

وأشادوا بشجاعته وجرأته في اتخاذ هذا القرار التاريخي، ودارت ماكينة الإعلام الأمريكي الرهيب لتناول الزيارة وأهميتها وتدعياتها ونقلتها على الهواء بكل تفاصيلها وتابعها الملايين لحظة بلحظة وأتذكر أن الإعلامي الأمريكي الشهير والتر كورنكيت علي قناة CBS كان له دور كبير في التمهيد للزيارة ثم في تغطيتها.

كان المصريون في أمريكا الشمالية في هذا الوقت محط أنظار كل المحيطين بهم كون أن رئيسهم على هذا القدر من الحنكة والشجاعة والجرأة واعتبر الكنديون أن كل مصرى هو سادات صغير، وكان أساتذتي ينادونني بالسادات بدلاً من اسمي وبصراحة كانت كل تصرفات الرئيس السادات في مرحلة الإعداد ثم تنفيذ الزيارة وزيارة الكنيست وخطبته الشهيرة وقتها شيئا كأنه جزء من الأحلام، وتعددت لقاءاته التليفزيونية قبلها وأثناءها وبعدها، وكانت له طلة مميزة وأسلوب واضح وقناعة لا يمكن أن يخطئها المشاهد هناك.

في السنوات الأولى من حكم الرئيس السادات كان معظم اهتمامه منصبًا على الاستعداد للحرب وتجهيز القوات المسلحة استكمالاً لما بدأه الرئيس عبد الناصر، ومع نهاية حرب أكتوبر ١٩٧٣ وما تلاها من مباحثات الحدود والتوجه الذى اتخذه الناصريون والاشتراكيون والشيوعيون في مناهضة السادات في هذا الوقت، اتجه تفكيره إلى فك القيود عن الجماعات الإسلامية وإعطائهم فرص العمل في الجامعات واستقطاب الطلاب في مواجهة التيار المناهض للسادات.

بدأت ملامح هذا الصراع بين الجماعات الإسلامية من ناحية وذوى الاتجاهات الاشتراكية والشيوعية من ناحية أخرى تتبلورعلى استحياء بدءًا من عام ١٩٧٤، وامتد الصراع ليكون على النظام ككل، وعندما سافرت إلى كندا في منتصف ذلك العام لم تكن الأمور قد تطورت بشكل واضح في

هذا الشأن، إلا أن الأحداث تطورت بعد ذلك وتجلت في وقائع مثل مقتل الشيخ الذهبي في يوليو عام ١٩٧٧، وحادث الفنية العسكرية على يد تنظيم التكفير والهجرة الذى تزعمه شكري مصطفى وحادث الفنية العسكرية الذى نفذه حزب التحرير الإسلامى بزعامة صالح سرية في أبريل ١٩٧٤.

أفرز التوجه الإسلامي لدى شباب الجامعات أيضًا شريحة أو عينة من المعيدين ممن ينتمون إلى هذا التيار وبدأ ظهورهؤلاء كمبعوثين مصريين أو الحاصلين على منح خارجية للدراسة في الجامعات الكندية والأمريكية وهو ما قوى شوكة تنظيمات مثل اتحاد الطلبة المسلمين (MSA) بشكل ملحوظ وبدأ هذا التنظيم في محاولة السيطرة على التجمعات المصرية في تلك الجامعات وأعتقد أن هذا هو سبب تزايد أعضاء هيئة التدريس من الإخوان المسلمين في الجامعات المصرية فيما بعد وبخاصة في الكليات التي كان لها مبعوثون في الخارج في منتصف السبعينيات وما بعدها من القرن الماضى وعلى رأسها كليات الهندسة.

لقد رأيت أول سيدة مصرية منتقبة في حياتي في كندا وكان ذلك عام ١٩٧٦ حيث توافد العشرات للدراسة وكان الرجال من أصحاب الدقون وزوجاتهم من السيدات المنتقبات وكان هذا شيئًا غريبًا ويختلف عما تركنا عليه مصر منذ سنوات قليلة جدًا وبدأنا نسمع عن تعبيرات جديدة مثل أمير الجماعة من الطلاب الجدد ورأينا من يتقدم لإمامة الصلاة متخطيًا كل الطلاب القدامي ودون أن يستأذن أو يدعوه أحد وانتشرت الدعوات إلى حلقات حفظ وتفسيرالقرآن المكثفة والمطولة يعقبها دروس دينية تحض على الجهاد في أفغانستان.

وبدأنا نسمع عن شيوخ لم نكن نعرف عنهم شيئًا من قبل مثل الشيخ القرضاوى ونسمع فقهًا جديدًا عن شيوخ غير مصريين مثل ابن تيمية

وبدأنا نرى نسخًا متداولة من كتب سيد قطب وغيره من غلاة المتشددين، وأكاد أجزم أن من لم يفلح هؤلاء في استقطابه من الطلبة المصريين في جامعات كندا وأمريكا في هذا الوقت كان بسبب حرص وفطنة هؤلاء الطلبة ليس إلا، ولم يكن له علاقة بأي توجهات من الدولة لشبابها في هذا الوقت. كان القرضاوى يجوب التجمعات الطلابية في طول أمريكا الشمالية وعرضها وعند مجيئه يتم حشد المئات في لقاءات ومحاضرات يلقي فيها كل وسائل الاحترام والتوقير وكأنه قائد ملهم له رسالة مكلف بأدائها وكان الطلاب كلهم عند الاستماع إليه وكأن على رؤسهم الطير. رأيت ذلك بنفسى عندما زار القرضاوى مقر جميع الطلاب المسلمين (MSA) في ووترلو عام ١٩٧٨ وكيف كان الاحتفاء به والترتيب لزيارته وقد تذكرت زيارة ومحاضرة القرضاوى هذه عندما تكرر نفس المشهد على نطاق أوسع كثيرًا في ميدان التحرير في يوم الجمعة ١٨ فبراير في خضم أحداث الثورة عام ٢٠١١.

الدراسة في كندا كانت فرصة عظيمة للانفتاح ليس على كندا فقط ولكن على الولايات المتحدة وكل العالم، كندا شديدة التأثر بالولايات المتحدة لكن لها طبيعتها الخاصة، رتم الحياة فيها أهدأ، الحياة أكثر أمانًا، مستوى الرفاهية أعلى، لها مساحة أكبر من أمريكا لكن عدد سكانها لا يتعدى ١٠٪ من سكانها، المسافات طويلة، البرد قارس، وسائل الاتصالات والمواصلات غاية في التقدم، فيها أقوى نظام بريد في العالم تحتضن فروع من جميع الشركات والمصانع الأمريكية، أراضيها شاسعة، الفلاح هو أغنى شخص هناك، ملكية الأرضي بمئات الفدادين، جميع الأعمال الحقلية مميكنة، أسعار الأراضي رخيصة جدًا، الفلاح يعمل فقط حوالى ٦ شهور في العام بعدها يكون البرد القارس وتتساقط الثلوج وتتعذر الزراعة، يغادر معظم الفلاحين إلى أماكن أدفأ، غالبًا إلى فلوريدا في الولايات المتحدة حيث مقر الإقامة الصيفية للفلاحين الأغنياء.

زرت معظم الولايات في أمريكا بدأ من نيويورك في عامي الأول في كندا ثم كل الولايات في طريق السفرمن كندا إلى فلوريدا كانت رحلتي إلى فلوريدا في أعياد الكريسماس وعيد الميلاد عام ١٩٧٧ وبدأت في كندا عند درجة حرارة حوالي ٢٠ تحت الصفر متسلحًا بجميع أنواع المعاطف وصولاً إلى فلوريدا حيث الحرارة حوالي ٣٠ فوق الصفر والناس تنتشر على البلاجات.

السفر هناك متعة، تتسلح بالخرائط وتنطلق، كل شيء ميسر، الفنادق الصغيرة منتشرة على الطريق، الفندق الصغير نظيف وهو جزء من سلسلة فنادق تنتقل من واحد إلى آخر على مسار الرحلة هم يرتبون لك كل شيء، مررت بعدة ولايات، أتذكر منها تينسيى حيث مدينة ناشفل وأهلها لهم لكنة جميلة، وجورجيا حيث مدينة أتلانتا الجميلة ثم مدن عديدة في فلوريدا منها أورلاندو، حيث ديزني لاند ووست بالم بيتش حيث أجمل مدينة على شاطئ الأطلنطي قبل فلوريدا، تشعر وكأن وست بالم بيتش قطعة من الجنة على الأرض، من حيث الجمال والأشجار والتنسيق والمباني والشاطئ الواسع الممتد وأحدث موديلات السيارات البيضاء المكشوفة، والناس المبسوطة الضاحكة وكأنه ليست هناك مشاكل في هذه الحياة، مثل وست بالم بيتش في فلوريدا في أقصى شرق أمريكا مدن شبيهة في أقصى غرب أمريكا في كاليفورنيا أيضًا على المحيط الهادي مثل لونج بيتش التي تقع جنوب غرب كاليفورنيا بالقرب من هوليوود معقل صناعة السينما في أمريكا.

أمريكا الحقيقية ليست في نيويورك أو على الساحل الشمالي الشرقى عمومًا، في هذه الولايات تقع مدن المال والأعمال، أمريكا الحقيقية في الوسط والغرب والجنوب، اقتصاد كاليفورنيا يفوق اقتصاد ألمانيا، صناعة الأجهزة الإليكترونية في تكساس وكلورادو هي الأساس، المزارع التي تعمل طول العام في الوسط والجنوب والغرب، البترول في الجنوب، هناك كما

عندنا يعتز الناس بأنهم من أهل الريف إذا كانت أصولهم كذلك، هناك مقولة أن فلان لم يبدأ حياته في الريف وتطلق على من لا أصول أمريكية حقيقية له.

الأمريكيون كالكنديين طيبون جداً، ولا شأن لهم بالسياسة هم مهتمون بالأمور المحلية في كل مدينة أو الولاية التي يعيش فيها، ما يحدث في واشطن ونتابعه نحن وكل العالم هم مثلنا يتابعونه لكن بدرجة أقل من الاكتراث ودون أن يكون لهم أي اهتمام ملحوظ به، ما يحدث في واشطن لا يؤثر عليهم إلا بالقدر الذي يمس أي سياسات ضريبية تخص الحكومة الفيدرالية وهي قليلة والأساس أن هذه أمور تتحدد في كل ولاية.

الديمقراطية عندهم أسلوب حياة، حرية الرأي شيء مقدس، كل شخص يستطيع أن يقول ما يشاء وينتقد من يشاء، ليست هناك أي حصانة لأصحاب المناصب وصولاً للرئيس نفسه من أي انتقاد ومن أي شخص، عندهم كل هؤلاء (civil servents) أي خادمي الشعب الذي يدفع مرتباتهم ومخصصاتهم وعلى هذا الأساس الشعب هو السيد الحقيقي في هذه البلاد.

عندهم أيضًا مؤسسات نيابية راسخة سواء في مجلس النواب الأمريكي أو مجلس الشيوخ، نفس الشيء في كندا ، نفس الشيء على مستوى كل ولاية في أي من البلدين، الأدوار معروفة يحددها الدستور، لا يسمح بأي هيمنة من سلطة على أخرى لكل دورها وتمارسه كاملاً تحت رقابة الشعب الذي يتم الرجوع إليه وقت الانتخابات التي تتم في مواعيد محددة لا يتم تجاوزها بأي حال.

الإمكانات العلمية والتكنولوجية متقدمة جدًا في أمريكا وكندا، التطبيق العلمي للأبحاث العلمية شيء ملحوظ جدًا، جامعة ووترلو التي كنت أحد طلابها هي من اخترعت المحمول ماركة البلاك بيرى وكان في حينه قفزة

حقيقية في عالم تكنولوجيا الاتصالات، كل يوم هناك شيء جديد، عندما عملت في الكويت بعد مغادرتي كندا، كنت أعود إليها مرة على الأقل كل عام وأحيانًا مرتين وفي مجال تخصصي ومجالات أخرى كنت أرى أن هناك تطورًا كبيرًا كان يحدث حتى في هذه الفترات القصيرة، كأفراد هم ليسوا أفضل منا، ولكن كمؤسسات علمية ومراكز بحثية ومراكز إنتاجية هناك آلية للاستفادة من نتائج التطورات العلمية في الحياة العملية بغرض التطوير والتحديث وتقليل التكاليف والتسويق وتحقيق الربحية والتوسع والاستدامة.

هناك يوجد بحث علمي حقيقي لمشاكل واقعية في جميع نواحي الحياة، عكس الممارسات هنا حيث الأبحاث التقليدية والمكرره والمستوردة والتي أحيانًا تعالج قضايا غير موجودة أصلاً حيث نفتقد التداخل بين الجامعات ومراكز الأبحاث ومؤسسات الإنتاج.

عقب انتهائي من رسالة الدكتوراة وقبل مناقشتها كانت لدي فرص عديدة للعمل في كل من كندا وأمريكا، كل الوظائف التي تقدمت إليها كنت وبكل تواضع أحصل على عروض سخية لتوليها متفوقًا على الأمريكيين والكنديين أنفسهم، اخترت العمل في الحكومة الكندية وفي المكتب الفنى لوزير النقل في أحد الولايات في غرب كندا واستمر ذلك لمدة عام كامل وكانت تجربة ثرية بكل المقاييس.

من أهم أسباب اعتزازى بهذه التجربة أنها مكنتني من حضور برامج تدريبية متطورة جدًا في الأداء التنفيذى على مستوى الإدارة العليا على يد خبراء أمريكيين من المتخصصين في هذا المجال، هذه البرامج تتناول مهارات أصقلت إمكانياتي الإدارية التنفيذية بشكل كبير وكانت الأساس لكل الإمكانات الإدارية والتنفيذية التي مكنتني فيما بعد من تولي مناصب أكاديمية وتنفيذية وسياسية من المستوى العالي، اكتشفت أن تولي مناصب

الإدارية العليا لها أصول تكتسب من ممارسات ناجحة في قضايا مثل إدارة الاجتماعات، إدارة الوقت، تقييم الأداء، كتابة الخطابات إلى المستويات الأعلى وحتي مستوى رئيس الدولة، لكل شيء أصول، من حيث مستوى التفصيل وطريقة الكتابة وطول الخطاب وكيفية إنهاء الخطاب.

مع نهاية العام الأول من العمل مع وزارة النقل الكندية التي كانت تالية لخمس سنوات من الدراسة الجامعية انتهت بالحصول على الدكتوراة اكتشفت حينها أنه وبالرغم من المرتب المناسب الذي كنت أتقاضاه من وظيفتي الجديدة إلا أن الحفاظ على مستوى المعيشة الذى يناسب وضعي قد أدى في النهاية إلى الوصول إلي قناعة أن هذه الوظائف تناسب من ينوي الاستقرار هناك، أما من سيعود إلى الوطن فعليه البحث عن وظيفة يمكنه التوفير منها ليواجه متطلبات العودة إلى مصر.

كان لى هناك بيت صغير يتكون من طابقين وحديقة صغيرة أيضًا، البيت يناسب جدًا متطلبات أسرتي الصغيرة ولكنه لا يقارن ببعض البيوت الأخرى الأكبر والأشيك وذات الحدائق الأكبر وأحدها كان على ناصية الشارع الذي أقطن فيه وله حديقة كبيرة وبها زهور جميلة وتروى عن طريق رشاش مياه دوار رشيق الحركة (sprinkler) وكان مرورى أمام هذا البيت يوميًا دافعًا لي على البحث عن طريقة تؤدى إلى وظيفة يمكن التوفير من مرتبها لأي تطلعات مثلما تطلعت لاقتناء هذا البيت الواقع على ناصية الشارع.

وصلتني عروض من جامعات سعودية ومن جامعة الكويت التي انتقلت إليها بالفعل وكانت خططي أن أكون هناك لمدة عام واحد لتحقيق الغرض الأصلي من الذهاب وأصررت على ذلك عند مناقشة عقدى مع الجامعة وذهبت إلى هناك للمساهمة مع كتيبة عمل من الزملاء الكويتيين والمصريين والعرب في بناء واحدة من أفضل كليات الهندسة في الوطن

العربي، لم أعد إلى العمل في كندا ولم أشتر هذا البيت الذى استهواني ودفعني إلى ترك أمريكا الشمالية إلى الخليج العربي. وللغرابة فقد أمضيت هناك عشر سنوات كاملة انتهت عام ١٩٩٠ مع الغزو العراقي للكويت.

الفصل السادس

سنوات في جامعة الكويت

١٩٨٠ - ١٩٩٠

سنوات في جامعة الكويت
١٩٨٠-١٩٩٠

بعد خمس سنوات من الدراسة في الجامعات الكندية بدأت من ١٩٧٤ وبعد عام سادس من العمل مخططًا للنقل في وزارة النقل هناك وحتى ١٩٨٠، وبالرغم من المنح الدراسية المجزية نسبيًا والتى كنت أحصل عليها سواء من الجامعة أو مراكز تطوير أبحاث النقل المتعددة أو من مرتبى الحكومى، إلا أن ذلك كله كان يكفل لى ولأسرتى مستوى معيشة معقول دون القدرة على التوفير لمواجهة متطلبات العودة المباشرة إلى مصر حيث الحاجة إلى تدبير المسكن والأثاث والسيارة بالإضافة إلى المصروفات العادية الآخرى اللازمة لأى أسرة.

كان قرار الذهاب إلى الخليج تحديدًا ولفترة قصيرة بغرض تدبير متطلبات العودة إلى الوطن، كانت عندى عروض من جامعات في المملكة العربية السعودية بالإضافة إلى جامعة الكويت وعروض أخرى من مراكز أبحاث أمريكية ووقع اختيارى وزوجتى نجوى على جامعة الكويت حيث كان قد سبقنا إلى هناك بعض زملاء الدراسة في كندا وأقنعونا بذلك، وكان السيناريو التى وضعته وقتها هو الذهاب لفترة قصيرة لتدبير احتياجات المالية الضرورية لمواجهة متطلبات المستقبل.

سبقتنى نجوى في زيارة إلى مصر في الطريق إلى الكويت وأمضيت أنا عدة أيام إضافية قبل التوجه مباشرة إلى الكويت مستقلاً الطائرة إلى لندن ثم الخطوط الكويتية من لندن إلى الكويت.

كانت الطائرة من طراز بوينج ٧٤٧ الضخمة وبعد سنوات من الحياة في جو أمريكى/ كندى خالص وجدت نفسى في صالة الانتظار في لندن وسط المئات من الركاب نصفهم من الأطفال وربعهم من السيدات الأسيويات (عرفت فيما بعد أنهم من المربيات) والباقى من الرجال والنساء الكويتيين، ولأن الوقت كان صيفًا في أواخر أغسطس فقد عرفت أنهم جميعًا كانوا عائدين من إجازات صيفية أوروبية مع التركيز على لندن التى كان لها سمعة خاصة عند الكويتيين وأهل الخليج بشكل عام في هذا الوقت وقبل أن تتنوع وجهاتهم لتشمل كل الدول الأوروبية ثم تركيا ودول شرق آسيا فيما بعد.

أن تعيش في كندا لسنوات حيث تصل درجة الحرارة إلى ٥٠ تحت الصفر شتاءً ثم تصل إلى الكويت صيفًا حيث درجة الحرارة خارج المطار المكيف قد تعدت ٥٠ درجة مئوية كفيلة تمامًا بإقناعك أنك انتقلت فعليًا إلى عالم آخر تمامًا، التأقلم بعد ذلك على الجو العام في الكويت أخذ بعض الوقت، مثلما احتاج الأمر كذلك إلى بعض الوقت للتأقلم مع اللهجة الكويتية التى تعودت عليها بعد ذلك.

المجتمع الكويتى في ثمانينيات القرن الماضى كانت له عدة خصائص متميزة عن المجتمعات الآخرى، أول هذه الخصائص انقسام المجتمع إلى فئتين رئيسيتين من الكويتيين وغير الكويتيين، وثانيها وجود فصيل ثالث ممن يطلق عليهم (البدون) أى ممن ليست لهم جنسية محددة ومعظمهم من البدو الذين فشلوا في إثبات جنسيتهم الكويتية حسب القواعد التى حددها قانون الجنسية عند صدوره. كانت نسبة الكويتيين في هذا الوقت لا تتعدى ٢٥ - ٣٠ ٪ من عدد السكان والباقى من الوافدين غير الكويتيين، وكان معظم الوافدين العرب من أبناء فلسطين والأردن ومصر والعراق وسوريا أما الوافدون الأجانب فمعظمهم من الهند وباكستان وبنجالاديش

وإيران والفلبين، بالإضافة إلى بعض الدول الأوروبية وأمريكا ومعظم وظائف الإدارة العليا كانت من نصيب الكويتيين بينما كانت الوظائف الأخرى بالإضافة إلى وظائف المدرسين تحديداً من نصيب غير الكويتيين من أصول عربية.

متوسط الدخل ومصادره تختلف أيضًا ما بين الكويتيين وغيرهم، معظم الكويتيين من أصحاب الدخول العالية أو من أصحاب الوكالات التجارية والأعمال الحرة وهناك عائلات بعينها تتمتع بمكانة مالية عالية وبعضها تمتلك كيانات اقتصادية كبيرة واستثمارات في مناطق مختلفة من العالم. مظاهر الغنى في الكويت واضحة ومتعددة منها الفيلات الضخمة والسيارات الفارهة والأسر كبيرة العدد والأعداد الكبيرة من السائقين والخدم الأجانب.

كانت ظاهرة تباين خصائص المجتمع الكويتي التى يماثلها بشكل كبير مجتمعات دول الخليج الأخرى أحد المجالات التى أوليتها أهمية خاصة في أبحاثى العلمية التى أجريتها خلال وجودى في الكويت وبخاصة تلك المرتبطة بمجال تخصصى، حيث أجريت عشرات الدراسات حول خصائص ومتطلبات النقل للأسر في الكويت والاختلافات فيما بينها بحسب الأسر الكويتية وغير الكويتية وخصائص الانتقال للأسر الكبيرة والممتدة (عدة أجيال في نفس الأسرة) واختلاف متطلبات الانتقال بين النساء والرجال، وكانت هذه الأبحاث تحظى باهتمام كبير في المؤتمرات العلمية العالمية المتخصصة لمعالجتها ظواهر غريبة وغير متكررة في مجتمعات أخرى ومنها مثلاً أن يصل متوسط حجم الأسرة إلى ١٥ - ٢٠ شخصا بينما في المجتمعات الأخرى يكاد يكون هذا المتوسط ما بين ٢ - ٣ أشخاص.

من خصائص المجتمع الكويتى أيضاً وجود الاختلافات المرتبطة بالتنوع المذهبى، حيث ينقسم المجتمع الكويتى إلى السنة والشيعة، وكذلك فإن

مجتمع غير الكويتيين يضم نسبة غير قليلة من الإيرانيين ممن يعتنقون المذهب الشيعى ولاؤهم واضح لإيران تحديداً. وهو نفس الوضع الموجود في باقى دول الخليج تقريبًا ولا يختلف الأمر إلا في السعودية في جزئية أن هذا الوجود في السعودية مرتبط أكثر بالمناطق الشرقية من البلاد دون غيرها.

كانت تجربة السنوات العشر من العمل في جامعة الكويت من التجارب الثرية في حياتى المهنية، حيث شاركت منذ ١٩٨٠ في بناء كلية الهندسة والبترول التى كانت قد بدأت قبل ذلك بأربع سنوات في ١٩٧٦، وكانت جامعة الكويت نفسها قد بدأت قبل ذلك بعدة سنوات، وللعلم فإن جامعة الكويت منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضى كانت من أوائل الجامعات التى حصلت على شهادات الاعتماد العالمية في مجالات الهندسة والطب والعلوم متخطية في ذلك معظم الجامعات العربية.

في هذه السنوات العشر تخرج على يدى الآلاف من المهندسين الكويتيين الذين يشغلون الآن المواقع القيادية العليا في الحكومة الكويتية أو يديرون مؤسسات هندسية خاصة تعمل في الكويت وخارجها، وقد شعرت بالفخر وأنا أشغل موقع محافظ الفيوم حينما عدت إلى الكويت عام ٢٠٠٩ عضواً في الوفد المصرى لمؤتمر القمة الاقتصادية العربية بحضور الملوك والرؤساء العرب وقابلنى واحد ممن كانوا من طلابى في كلية الهندسة والبترول وأصر على أن يرتب لى وزملاء الدراسة حفل استقبال بهذه المناسبة. الحفل كان قبل رحلة عودتى إلى مصر وبعد انتهائه انطلقوا جميعًا في موكب من السيارات الفارهه لتوصيلى إلى مطار الكويت للحاق بطائرة العودة إلى القاهرة وتسابقوا جميعًا وهم من كبار المسئولين والمهندسين في حمل حقائبى وإنهاء إجراءات سفرى في تظاهرة من الحب والتقدير.

من الأحداث المهمة التى شهدها العالم العربى أثناء وجودى في الكويت في ثمانينيات القرن الماضى، كانت الحرب بين العراق وإيران في أواخر عام ١٩٨٠ والتى بدأت دون أسباب مفهومة واستمرت لمدة ثمانى سنوات كاملة تلقى بظلالها على منطقة الخليج بأكملها وكانت الكويت أكثر الدول تأثرًا بهذه الحرب بعد العراق وإيران، وظلت أخبار هذه الحرب هى الخبر الأول في تليفزيونات العراق وإيران وإرسالها كان واضحًا في الكويت حتى قبل اختراع الأقمار الصناعية، وكانت هذه الأخبار أيضًا من الأخبار الرئيسة في التليفزيون الكويتى، وكان للكويت موقف متوازن من طرفي القتال لأسباب جغرافية وسياسية وديموجرافية معقدة، وقد خرج العراق وإيران من هذه الحرب بمبادرة جزائرية إلا أن الحرب كانت قد أنهكت الدولتين وفقدتا فيها مئات الآلاف من القتلى ومليارات الدولارات من الخسائر الاقتصادية التى أدت فيما بعد إلى الغزو العراقى للكويت عام ١٩٩٠ حلاً لمشاكل العراق الاقتصادية مما أوصل المنطقة إلى معترك جديد وتسبب في حربي الخليج؛ الأولى عام ١٩٩٠ لإخراج القوات العراقية من الكويت وتحريرها والثانية عام ٢٠٠٣ للقضاء على حكم صدام حسين.

ومثلما كانت حرب العراق وإيران عام ١٩٨٠ غير مبررة وتزامنت مع الشهور الأولى لعملى في الكويت وألقت بظلالها على المنطقة على مدار ثمانى سنوات كاملة، فإن غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠ كان غير مبرر أيضًا وكان سببًا رئيسًا في تغيير جوهرى في مسار حياتى كلها وأعادنى إلى أحضان الوطن بعدما أمضيت ستة عشر عامًا كاملة بعيدًا عنه، لتبدأ رحلتى الطويلة مع العمل العام في مصر.

عرفت الآلاف من أهل الكويت وبخاصة في المجتمع الجامعى طلابًا وأعضاء هيئة التدريس، لى معهم صداقات حتى اليوم وبعضهم كان ضيفي

في القاهرة وقت الغزو العراقى للكويت عام ١٩٩٠ الذى اشتركت القوات المصرية في الخلاص منه فيما عرف بعاصفة الصحراء.

الكويتيون شعب طيب ومتحضر ويظهر ذلك أكثر في أوساط المتعلمين تحديدًا ومن خرجوا في بعثات تعليمية في الولايات المتحدة وأوروبا، إلا أن هناك فئات أخرى أقل تعليمًا قد يشعر البعض أنها أكثر خشونة في التعامل وخاصة مع الطبقات الكادحة من غير الكويتيين وهو أمر لا تنفرد به الكويت دون باقى دول الخليج.

الكفاءة والقدرة على الإنجاز كانتا غالبًا ما تحظى باحترام القيادات الجامعية الكويتية وباقى رجال الدولة، وقد لمست ذلك شخصيًا حينما تم اختيارى وعمرى لا يتجاوز ٣٨ عاما متخطيًا العديد من زملائى من الكويتيين وغيرهم لشغل وظيفة نائب مدير الجامعة المساعد لشئون التخطيط في السنوات الأربع الأخيرة من عملى هناك بدأ من عام ١٩٨٦ حتى عام ١٩٩٠.

وقد شاركت من خلال هذا الموقع في وضع وتنفيذ خطة تطوير الحرم الجامعى وأشرفت على الأعمال الاستشارية التى كانت تقوم بها مكاتب إنجليزية وأمريكية وكذلك أعمال التنفيذ في جميع مواقع الجامعة المنتشرة في الشويخ والخالدية والعديلية ومشرف وهو الأمر الذى أتاح لى السفر المتعدد إلى الولايات المتحدة لمتابعة هذه الأعمال والاستشارية منها على وجه الخصوص.

كان تعاقدى مع جامعة الكويت في عام ١٩٨٠ قد تم وأنا أعمل في كندا الأمر الذى أتاح لى العودة إلى كندا سنويًا بعد ذلك حتى عام ١٩٩٠ وكنت في سفريات العودة هذه أتعمد المرور على عاصمة أو أكثر من العواصم والمدن الأوروبية في طريقى إلى كندا أو إليها وقد أتاح ذلك لى ولأسرتى زيارة عشرات المدن الأوروبية ومنها لندن وباريس وفرانكفورت ومدريد

وعواصم كل الدول الإسكندافية والمدن الواقعة على حوض البحر المتوسط وأتاح لى ذلك أيضًا الانخراط في أبحاث علمية مع شركاء في جامعات كندا وأمريكا وكذلك العمل أستاذًا زائرًا عدة مرات في هذه الجامعات، لقد أتاح لى النظام الذى كانت تتبعه جامعة الكويت في تشجيع الأبحاث العلمية وعرضها في المؤتمرات العالمية السفر إلى جميع قارات العالم دون استثناء وهو ما صقل إمكانياتى العلمية ومكننى من نشر عشرات الأبحاث في مجلات علمية عالمية محكمة وكان كفيلاً بأن تتم ترقيتى مباشرة إلى درجة الأستاذ في الهندسة في جامعة القاهرة في خطوة واحدة بعد عودتى إلى أرض الوطن عام ١٩٩٠.

مهما كثر الحديث هنا في مصر عن قدر مصر وأهميتها للمنطقة، فإن الشعور بهذه الحقيقة لا يترسخ إلا عندما تعيش في منطقة الخليج العربى، هناك تعرف أن لمصر شأنا عظيما حتى وإن اختلف العرب مع قادتها في بعض الأحيان، اهتزت منطقة الخليج كلها بعد جريمة اغتيال السادات عام ١٩٨١ وانتظر الخليج بشغف موقف مصر من العدوان الإسرائيلى على مخيمات صبرا وشاتيلا في لبنان عام ١٩٨٢، ولعبت مصر دورًا محوريًا في حرب تحرير الكويت عام ١٩٩٠، وكانت رمانة الميزان في مؤتمر القمة الاقتصادى الذى عقد في الكويت عام ٢٠٠٩ وكان السؤال المهم المطرح في أروقة هذا المؤتمر قبل بدايته هو: هل سيحضر الرئيس المصرى هذا المؤتمر أم لا؟، عدم حضور الرئيس المصرى لأى مؤتمر قمة عربى يفقد هذا المؤتمر نصف أهميته وفاعليته، هذه حقائق معروفه تمامًا في العالم العربى عمومًا ومنطقة الخليج العربى على وجه الخصوص.

الفصل السابع

أكاديمي في مهمة رسمية

١٩٩٠ - ٢٠٠٨

أكاديمى في مهمة رسمية
١٩٩٠ - ٢٠٠٨

كانت الفترة من أغسطس ١٩٩٠ وحتى تعييني محافظًا للفيوم في أبريل ٢٠٠٨ عامرة بالإنجازات الأكاديمية التى لم أتوقعها أو أسعى إليها.

كنت قد وصلت إلى القاهرة في ٢٠ يوليو ١٩٩٠ قادمًا من كندا في طريق عودتى إلى الكويت، حيث كنت أعمل منذ عام ١٩٨٠ وكان الموعد المحدد للسفر هو الثالث من أغسطس ١٩٩٠ حيث سأقضى كامل هذا الشهر وحتى بداية العام الدراسى في سبتمبر قائمًا بأعمال نائب مدير جامعة الكويت للتخطيط، وقد كنت أشغل لمدة أربع سنوات قبلها منصب نائب المدير المساعد للتخطيط، وكان نائب المدير شخصيًا سيبدأ إجازته فور وصولى.

فوجئت كما فوجئ الجميع بغزو العراق للكويت صباح يوم الثانى من أغسطس في خطوة غير متوقعة من صدام حسين، وكان تقديرى وغيرى وقتها أن هذا الأمر سينتهى خلال أيام حيث إن ما حدث كان يمثل تصرفًا غريبًا ولم يكن من المتصور غير أن ينتهى فورًا مع أول تدخل عربى أو دولى متوقع أن يحدث دون محالة.

استمر الوضع أكثر مما يجب، وتميزت تصرفات صدام حسين بالعناد والتهور وبرر أفعاله بأن الكويت كانت في الأصل أحد أجزاء العراق وأن غزوه للكويت كان في استعادته كما كان جزءًا من العراق.

لم أسافر إلى الكويت في الثالث من أغسطس كما كان مخططًا، ولكننى سافرت بعد ذلك بعدة أسابيع وتحديدًا في ١٩ أكتوبر ليس للعودة إلى العمل هناك فقد أصبحت الكويت محتلة وتمت فيها أعمال عديدة من النهب والسرقة، وإنما كانت عودتى لإحضار الأوراق الخاصة بأولادى حتى يمكن إلحاقهم في المدارس المصرية، وكان الأمر يتطلب إحضار أوراق تثبت موقفهم الدراسى في العام السابق، وقد كان توقيت سفرى قد تأجل حتى اطمأن على زوجتى نجوى التى وضعت ابنتى الصغيرة سحر يوم ١٤ أكتوبر ١٩٩٠.

سافرت إلى الكويت مع مجموعة من الزملاء المصريين العاملين في جامعة الكويت وكان السفر بالطائرة إلى العاصمة الأردنية عمان ثم برًا حتى الكويت التى وصلناها فجرًا بعد سفر استغرق حوالى ١٢ ساعة بسيارة تم استئجارها، عبرت بنا المسافة من عمان إلى العراق ثم إلى النقطة الحدودية صفوان بين العراق والكويت وصولاً إلى مدينة الكويت التى وصلنا إليها فجرًا وجدناها شيئًا آخر غير الكويت التى غادرناها منذ أسابيع قليلة، المدينة مظلمة وحزينة ونقاط التفتيش على طول الطريق والأسلحة الثقيلة على الجانبين ورجال التفتيش مدججين بالسلاح والمعاملة تتم بغلظة شديدة، وتوجد جثث معلقة على أعمدة في الشوارع والإضاءة ضعيفة وحركة المرور محدودة جدًا.

أمضيت في الكويت خمسة أيام كاملة في جو من الرعب الشديد وعدت إلى شقتى في مجمع العمارات الضخمة داخل حرم الجامعة في الشويخ الذى كان مظلمًا والمصاعد في المساكن لا تعمل وكنت الوحيد في العمارة التى تضم أكثر من مائة شقة سكنية، وعندما علم بوجودى من بقى في البلاد من زملاء الجامعة من الكويتيين توافدوا لزيارتى وتلقفوا بشغف شديد الصحف المصرية التى كانت معى وعمرها عدة أيام إلا أنها كانت غاية في الأهمية لهم لمعرفة كيف يوصف العالم الأحداث العجيبة التى

تعرضت لهم بلادهم والتى كان النظام العراقى يفرض عليهم تعتيمًا شديدًا بشأن رأى العالم فيما حدث لهم وكان وجودهم يمثل خطرًا شديدًا عليهم وعلي أنا شخصيًا ولكننى كنت متعاطفًا معهم بحكم الفترة الطويلة التى قضيناها سويًا قبل ذلك والتى تصل إلى عشر سنوات كاملة.

تمكنت من إحضار الأوراق المطلوبة وبعض ممتلكاتى الخفيفة وسيارتين مرسيدس قمت بقيادة إحداهما وقاد الأخرى أحد أصدقاء الرحلة ممن لم يعثروا على سيارتهم على أثر، وعدت إلى مصر في ٢٥ أكتوبر بعد رحلة مضنية ومغامرات محفوفة بالمخاطر وساعدنى كثير من طلابى في الدراسات العليا من الكويتيين والفلسطينيين واللبانيين وبعضهم قام باصطناع بعض الأوراق اللازمة للتحرك بالسيارات إلى خارج الكويت وكان ذلك يعرضهم ويعرضنى لخطر داهم إذا ما تم اكتشافه.

من الأحداث المهمة في رحلة العودة التى استمرت ثلاثة أيام كاملة بدأت من الكويت ثم إلى الحدود الكويتية ـ الواقعة عند صفوان ثم إلى بغداد ثم إلى طرابيل على الحدود العراقية ـ الأردنية ثم داخل الأردن وصولاً إلى الزرقا ثم العقبة ثم بالعبارة إلى طابا ثم اختراق سيناء مرورًا بمدينة نخل وسط سيناء ثم إلى نفق الشهيد أحمد حمدى ثم طريق السويس إلى القاهرة، عند طرابيل على الحدود العراقية الأردنية كان المشهد حزينًا، آلاف الهاربين من حرب الكويت يبيتون في العراء، منهم النساء والأطفال والشيوخ، تتأمل في المشهد فلا تجده إلا مشهدًا عبثيًا، الجنود العراقيون في كل مكان جميعهم مدججين بالسلاح وتتساءل عن أى حكام عرب هؤلاء الذين أجبروا المواطنين على قبول هذا الوضع المهين في الصحراء على الحدود المصطنعة بين الدول العربية ونتيجة تصرفات خرقاء لأمجاد شخصية لم يجن العرب من ورائها إلا خرابًا بينًا.

مع نهاية سبتمبر ١٩٩٠ مع استمرار الأوضاع في الكويت كما هى، بدأت في التفكير فيما سأفعله إذا استمر الوضع كما هو عليه لفترة طويلة، بدأت في التفكير في الاستقرار في مصر بعدما بعدت عنها لمدة ١٦ عامًا متواصلة في كندا والكويت، حدثنى في هذا الوقت الدكتور مخلص أبو سعده أستاذ الرى والهيدروليكا بجامعة القاهرة وكان معينًا حديثًا للإشراف على كلية الهندسة في الفيوم. كنت أعرف الدكتور مخلص قبل ذلك بسنوات عديدة، حيث كان مدرسًا حديثًا عائدًا من الخارج بينما كنت أنا طالبًا متفوقًا في السنة الثالثة في كلية الهندسة جامعة القاهرة عام ١٩٦٩ ثم تقابلت معه بعد ذلك في الكويت عام ١٩٨٦ حيث كان قد حضر باحثًا في معهد الكويت للأبحاث العلمية وكنا نتقابل عند صديق مشترك على فترات، كان حديث الدكتور مخلص يدور حول قيامى بالتدريس في كلية الهندسة في الفيوم لفترة لحين استقرار الأمور في الكويت وفي خلال هذه الوقت يمكننى أن أقرر الاستمرار في كلية الهندسة من عدمه، وبناء على ذلك دعانى لأقابله في اليوم في أول يوم عمل له هناك بصفته المشرف الجديد على الكلية.

لم تكن تجربة السفر إلى الفيوم على طريقها البدائى في هذا الوقت تجربة ممتعة كما لم تكن الحال التى وجدت عليه كلية الهندسة يشجع على الاستمرار وأخبرته بذلك في نفس يوم الزيارة بعد عودتى عصرًا إلى القاهرة، الكلية صغيرة ولها مبنى واحد وبها قسم وحيد هو قسم الهندسة المدنية بالإضافة إلى قسم الرياضيات والفيزيقا الهندسية الذى لا يخرج مهندسين ولكنه متخصص في تدريس المواد الرياضية والميكانيكا الهندسية والفيزياء لكل أقسام الكلية ولكن في حالتنا هذه كان يخدم طلاب القسم الوحيد في الكلية وهو قسم الهندسة المدنية وعدد أعضاء هيئة التدريس بها لا يتجاوز عدد أصابع اليدين. كنت في كندا أدرس الدكتوراة في واحدة من أقوى جامعات العالم في الهندسة وكنت في الكويت قد نجحت مع

الرعيل الأول من إنشاء كلية للهندسة والبترول كانت هى الأقوى في منطقة الخليج العربى كله وتسير الدراسة بها على أحدث النظم العالمية في التدريب الهندسى.

لم يوافقنى الدكتور مخلص أبو سعده فيما انتهيت إليه، ونقل تحفظاتى إلى الدكتور مأمون سلامة رئيس جامعة القاهرة في هذا الوقت والذى تحدث معى وشجعنى على البقاء مشيرًا إلى أننى من الصعب أن أبقى خارج الوطن إلى ما لا نهاية وقاما بتدبير درجة أستاذ في الهندسة وتم الإعلان عنها في حينه وتقدمت بالأوراق اللازمة ومنها الأبحاث العلمية اللازمة للترقى مباشرة إلى درجة أستاذ في التخصص وكنت بذلك أول أستاذ في الكلية في أوائل عام ١٩٩١، وقد كان لهذة الأقدمية دور كبير في قيادتى للكلية عميدًا لها فيما بعد لمدة ٩ سنوات متواصلة بدأت في عام ١٩٩٢ وانتهت في عام ٢٠٠١.

بدأت تدريجيًا في الاندماج في وظيفتى الجديدة في الفيوم أستاذًا لتخطيط النقل وهندسة الطرق والمرور وأعجبت بطلاب الكلية من أبناء الفيوم وبتمسكهم وحرصهم الشديد على التعلم والإصرار على التفوق والإنجاز ووجدت أيضًا مجموعة متميزة من المعيدين المسجلين للحصول على الماجستير والدكتوراة مع زملاء لى في هندسة القاهرة أو من هم خارج مصر وكانت هذه هى الثروة الحقيقية التى وجدت أنها تصلح أساسًا جيدًا لبناء كلية متميزة للهندسة بالفيوم.

لم يمض وقت طويل على تعيينى أستاذًا في أوائل عام ١٩٩١ حتى تم اختيارى أول عميد للكلية من أبنائها وكان عمرى وقتها ٤٤ عامًا وأمضيت في هذة المنصب تسعة أعوام كاملة، حيث شغلت موقع العميد ثلاث دورات كل منها ثلاث سنوات وتعاقب على رئاسة جامعة القاهرة خلال هذه الفترة كل من الدكتور مأمون سلامة والدكتور مفيد شهاب والدكتور فاروق

إسماعيل والدكتور نجيب الهلالى جوهر. وقد كان شغل المنصب لفترة ثالثة هو استثناء من قاعدة شغل المنصب بحد أقصى ٦ سنوات على فترتين كل منها ثلاث سنوات.

كنت عضوًا في مجلس جامعة القاهرة بصفتى عميدًا لكلية الهندسة جامعة القاهرة في الفيوم طوال هذه الفترة، حيث كان هذا المجلس يزخر بقامات كبيرة من القيادات التاريخية لجامعة القاهرة. أذكر منهم إلى جانب رؤساء الجامعة علماء عظام مثل على السلمى في الإدارة وخيرى السمرة في الطب وأحمد مستجير وسعد نصار في الزراعة وحسن محمود إمام في الهندسة ونعمان جمعة في الحقوق وأحمد الغندور في الاقتصاد ومحمد البلتاجى في دار العلوم وجيهان رشتى في الإعلام وكان من أعضاء مجلس الجامعة من الخارج الدكتور أحمد فتحى سرور والدكتور عاطف صدقى والدكتور عاطف عبيد والدكتورة آمال عثمان.

نجحت خلال ٩ سنوات في بناء كلية متميزة في الهندسة وتم إنشاء أقسام جديدة للهندسة المعمارية والهندسة الكهربية والهندسة الصناعية خلال هذه السنوات، كما تم زيادة أعضاء هيئة التدريس بنسبة ١٠٠٠٪ وتم إنشاء معامل متخصصة ومبانٍ جديدة زادت بها مساحة الكلية ومدرجاتها ومعاملها بنسبة تفوق ٥٠٠٪ كما تم المساهمة في الأمور الهندسية مع إدارة جامعة القاهرة بالفيوم والتى كان يرأسها وقتها الدكتور محمد سعيد سليمان نائب رئيس جامعة القاهرة لشئون فرع الفيوم في تطوير الحرم الجامعى وإضافة توسعات عديدة له وإنشاء مبان حديثة لكليات الجامعة، بحيث أصبحت في سنوات قليلة تمتلك مقومات جامعة حقيقية يمكن أن تقوم على أرض الفيوم.

مع قدوم سبتمبر ٢٠٠١ انتهت مهمتى كعميد للكلية، ولكننى لم أتوقف عن العمل مستشارًا هندسيًا للجامعة لاستكمال مرافقها الحيوية إلى

جانب عملى أيضًا مستشارًا هندسيًا لمحافظة الفيوم لفترة امتدت من ١٩٩١ حتى ٢٠٠٣ حين تم تعييني نائبًا لرئيس جامعة القاهرة، وتعاقب على منصب محافظ الفيوم في هذه الفترة كل من الدكتور عبد الرحيم شحاته والدكتور فاروق التلاوى واللواء محمد حسن طنطاوى والدكتور سمير الخولى والدكتور سعد نصار والدكتور محمد رأفت محمود واللواء مجدى القبيصى وكانت تربطنى بهم جميعًا علاقة أساسها الود والاحترام وهدفها خدمة محافظة الفيوم التى كنا نسعى جميعًا للارتقاء بمستوى الخدمات لأبنائها وإنجاز مشروعات تلبى المتطلبات الأساسية للمواطنين.

من الناحية الإدارية كانت تجربة إنشاء كلية للهندسة في مجتمع زراعى بطبعه وبإمكانات بشرية متواضعة وبموروث إدارى يرتبط أكثر بإدارة الأمور المحلية في مجالس القرى والمدن عنه في إدارة المؤسسات الأكاديمية تمثل تحديًا كبيرًا في هذا الوقت، واحتاج الأمر إلى مزيج من التأهيل البشرى والضبط الإدارى والمتابعة والتطوير التكنولوجى إلى أن وصلنا إلى المرحلة التى يمكن القول معها أن هناك نواة يمكن البناء عليها لمؤسسة أكاديمية في المجال الهندسى.

من الناحية الأكاديمية كان أساس التطوير والبناء يرتبط بتوفير المزيد من فرص السفر والدراسة في الخارج ونجحنا في ذلك بشكل كبير، حيث كان للكلية أكثر من خمسين من دارسى الدكتوراة في جامعات أمريكا وكندا واليابان وفرنسا وألمانيا وإنجلترا وغيرها من الدول الرائدة في مجال العلوم الهندسية وهؤلاء يمثلون الآن القوة الضاربة للكلية ومعظمهم وصل إلى درجة الأستاذية، ومنهم من أصبحوا بعد ذلك رؤساء للجامعة أو نوابًا لرئيسها وعمداء للكلية ورؤساء لأقسامها.

يتميز المهندسون المدنيون المتخرجون من كلية الهندسة بالفيوم بالجلد الشديد والقدرة الفائقة على التحمل، وهم ممتازون في تولى مهام

الإشـراف عـلى المـشـاريع في الـظـروف المـعـيـشـيـة الـصـعـبـة والأمـاكن الصحراوية، كما يتميزون وغيرهم من باقى أقسام الكلية بالقدرة الفائقة على استخدام برامج الحاسب الآلى وتطبيقاتها الهندسية بشكل يماثل زملاءهم في الجامعات الأخرى ليس ذلك فحسب بل يماثل خريجى الجامعات الأجنبية.

أصدر رئيس مجلس الوزراء الدكتور عاطف عبيد قرارًا بتعيينى نائبًا لرئيس جامعة القاهرة في أكتوبر ٢٠٠٣ بناء على ترشيح من الدكتور نجيب الهلالى جوهر رئيس الجامعة في ذلك الوقت، وكان من المتوقع أن أشغل هذا المنصب قبل ذلك بأربع سنوات في عام ٢٠٠١ ثم قبلها بعامين في عام ١٩٩٩ وعرفت فيما بعد أن هذه الأمور تتم وفق توازنات عديدة.

ولكن وقد انتهى الأمر إلى أن أتولى هذا الموقع فقد كان ذلك بداية مرحلة جديدة في حياتى المهنية الأكاديمية. كنت بصفتى الجديدة أحد القيادات العليا الست في إدارة جامعة القاهرة، ومكننى ذلك من المشاركة الفعالة في التخطيط والتنفيذ لخطط جامعة القاهرة العريقة وفروعها في الفيوم وبنى سويف والخرطوم مع دور محورى وأصيل في إدارة جامعة القاهرة في الفيوم بكلياتها الست وطلابها البالغ عددهم ١٥ ألف طالب وأعضاء هيئة التدريس وعددهم أكثر من ألف عضو تدريس والإداريون وعددهم أكثر من ألفي موظف إدارى.

في سبتمبر ٢٠٠٤ كنت أحد المرشحين الثلاثة لرئاسة جامعة القاهرة مع انتهاء فترة رئاسة الدكتور نجيب الهلالى جوهر وتم وقتها تعيين الدكتور على عبد الرحمن في هذا المنصب والذى أصبح فيما بعد في أبريل ٢٠١١ محافظًا للجيزة والذى تربطنى به علاقة قديمة من وقت أن كان معيدًا في قسم الهندسة المدنية في جامعة القاهرة وكنت أنا أحد طلابها وكان من المعيدين المتميزين جدًا ومن العلامات البارزة في تاريخها

فيما بعد حيث شغل منصب عميد الكلية ثم تولى رئاسة الجامعة في ٢٠٠٤، وقد تزاملنا بعد ذلك بوصفه محافظا للجيزة وأنا محافظ للقاهرة حين تم تعييني في هذا المنصب في ١٣ أغسطس ٢٠١٣ في حين أعيد تعيينه محافظًا للجيزة بعد أن تركها عدة أسابيع احتجاجًا على الأحداث التى قام بها الإخوان في نطاق الجيزة والتى انتهت بمقتل ستة عشر مواطنًا بريئًا فيما أطلق عليه أحداث بين السرايات وجامعة القاهرة والتى وقعت في الثالث من يوليو ٢٠١٣.

عرض الدكتور عمرو عزت سلامة وزير التعليم العالى في مؤتمر عقد بمكتبة الإسكندرية حضره الرئيس حسنى مبارك في ديسمبر ٢٠٠٤، مقترحات بإنشاء ثلاث جامعات جديدة في الفيوم وبنى سويف فصلاً عن جامعة القاهرة وجامعة ثالثة في بنها فصلاً عن جامعة الزقازيق وكان الثلاثة يمثلون فروع لجامعتى القاهرة والزقازيق وأعمارها في هذا الوقت يتراوح ما بين ٢٠ و٣٠ عامًا، وقد لاقى ذلك موافقة الحكومة والرئيس وأصبحت مهمتى الرئيسة بعدها إعداد الخطط والإجراءات اللازمة والمتطلبات المالية والإدارية لاستقلال هذة الجامعات وبخاصة جامعة الفيوم وقد صدر قرار جمهوري بالفعل في مارس ٢٠٠٥ بإنشاء هذه الجامعات الثلاث لتعمل بهذه الصفة اعتبارًا من أغسطس ٢٠٠٥ وأعقبه صدور قرار جمهوري آخر في مايو ٢٠٠٥ بتعييني رئيسًا لجامعة الفيوم.

وقد كان حفل تدشين الجامعة الجديدة وقتها حدثًا مهمًا في تاريخ محافظة الفيوم ومتوجًا لمجهودات شعبها والمسئولين في الدولة من أبنائها الذين سعوا إلى ذلك منذ بداية الدراسة في أول كلية في الفيوم قبل ذلك بحوالى ٢٥ عامًا، حيث أنشئت كلية التربية عام ١٩٧٥ وأعقبها كلية الزراعة في ١٩٧٦.

حضر حفل التدشين الدكتور عمرو عزت سلامة وزير التعليم العالى ومحافظ الفيوم الدكتور محمد رأفت محمود والدكتور صوفي أبو طالب رئيس مجلس الشعب السابق وأحد أبناء الفيوم ممن أسهموا في فكرة إنشاء الجامعة من بدايتها وغيرهم الكثير من أبناء الفيوم الذين أنشأوا صندوقا لتبرعات الجامعة أسهم مع ما تخصصه الدولة في إنجاز الكثير من مشروعاتها.

سبق حفل التدشين ترتيبات عديدة تتضمن ترتيبات مالية مع وزارات الدولة لنقل مخصصاتها بشكل منفصل عن جامعة القاهرة وزيادتها لمواجهة المتطلبات الإضافية، وأخرى إدارية تخص كل أوراق الجامعة ومراسلتها وتصميم واختيار شعارات الجامعة وكلياتها وتدبير وسائل الانتقال لأساتذتها بعيدا عن موازنة جامعة القاهرة واختيار القيادات الأكاديمية والإدارية للجامعة كمؤسسة مستقلة وتعيين نواب لرئيس الجامعة وإجراءات أخرى عديدة بحيث مع بداية اليوم الأول للجامعة لم يشعر أى من أبنائها بأى اضطراب مالى أو إدارى نتيجة الوضع الجديد الذى في العادة ما يحدث في حياة هذه المؤسسات مرة واحدة في تاريخها كله.

بعد الاستقرار النسبى في أحوال الجامعة، بدأ التفكير في كيفية التوسع في عدد كلياتها وكذلك كيفية التجويد في إدارتها، وقد نتج عن ذلك اتخاذ كل الإجراءات الأكاديمية والإدارية واستصدار القرارات اللازمة لإنشاء كليات جديدة للأداب (فضلاً عن كلية التربية) وكليات الحاسبات والمعلومات والعلوم والتربية النوعية ورياض الأطفال والتمريض والصيدلة، وكان هناك حرص على عدم بدء الدراسة في أى كلية إلا عندما تكتمل هياكل أعضاء هيئة التدريس الكافية وساعد في ذلك وجود تخصصات بينية عديدة في الكليات القائمة أمكن معها نقل بعض أعضاء هيئة

التدريس إلى الكليات الجديدة لتدعيمها بالكوادر البشرية الموجودة في الكليات الأخرى.

شهدت جامعة الفيوم مبادرات جديدة منها الإدارة الإلكترونية المتكاملة للجامعة ككل وميكنة أعمالها المالية والإدارية وبدأ أيضًا إنشاء المستشفي الجامعى الجديد بطاقة ٢٠٠ سرير بمشاركة مجتمعية متميزة بالتوازى مع الموازنات العامة وتوسعت الجامعة في مراكز الأبحاث والوحدات ذات الطابع الخاص وإنشاء مركز لبحوث التنمية لخدمة قضايا المحافظة ومركز للدراسات السياحية والمؤتمرات على موقع متميز على بحيرة قارون ومراكز لمتحدى الإعاقة ومراكز لتطوير مهارات أعضاء هيئة التدريس وأخرى للتطوير الإدارى.

تميزت الجامعة أيضًا بقدرتها على التخطيط لحرم جامعى متكامل يضم معظم كلياتها وربط هذا الموقع بمواقع الجامعة الأخرى وتوفير إسكان متميز للطلاب ومطاعم لتقديم الوجبات بأسعار التكلفة والتنسيق مع المجلس الأعلى للآثار لإخلاء أماكن قيل إنها أثرية في وسط موقع الجامعة بشكل ألقى بظلاله على شكل الحرم الجامعى ككل.

كانت رئاستى لجامعة الفيوم في وقت تشهد فيه البلاد حراكًا سياسيًا ملحوظًا، من ناحية ظهرت في هذا الوقت حركة كفاية رافعة شعار "لا للتمديد لا للتوريث" وتم في هذه الفترة تغيير الدستور في المواد التى تخص رئيس الجمهورية وبحيث يكون بالانتخاب بين المرشحين بدلاً من الاستفتاء على اسم رئيس يطرحه مجلس الشعب، وتعديلات دستورية أخرى في شأن شروط الترشح لمنصب الرئيس وكانت محل لغط شديد وقتها.

كانت جماعة الإخوان المسلمين قوية في الشارع السياسى في أعقاب انتخابات مجلس الشعب التى جرت في أواخر ٢٠٠٥ وكان من نتيجتها في

الفيوم أن أصبح نصف ممثلى المحافظة في مجلس الشعب من الإخوان المسلمين، وكان قادة الإخوان يعتبرون الجامعة هى المسرح الطبيعى لاستعراض قوتهم في تحريك المظاهرات والاضطرابات ولم يكن ذلك في جامعة الفيوم فقط ولكنه كان في معظم الجامعات المصرية.

كنت بصفتي رئيسا للجامعة أسعى ليكون لنا خطًا تنويريًا في المجتمع وفي هذا السياق كنا نعقد لقاءات متعددة يحاضر فيها قادة الفكر والسياسيون أذكر منهم د.أسامة الباز وعلى الدين هلال ود.أحمد جويلى ود.مفيد شهاب ود.حسن يونس وغيرهم وتنظم الحفلات الفنية واللقاءات الطلابية والمنافسات الرياضية، أذكر منهم الفنانان محمد منير ومحمد صبحى.

تزامنًا مع محاولاتنا هذه كانت قيادات الإخوان المسلمين تتفنن في اختلاق المناسبات لإخراج الطلاب في مظاهرات مع إمدادهم بمستلزمات التظاهر وتعطيل الدراسة مثل مكبرات الصوت والإعلام وتعد لهم الهتافات والأناشيد بل إن هذه المستلزمات كان يتم إدخالها من أعلى أسوار الجامعة بترتيب من هذه القيادات التى كانت تستأجر شققًا سكنية حول أسوار الجامعة لتخزين هذه المستلزمات ثم تهريبها داخل الجامعة واستردادها مرة أخرى وتخزينها تحت بصر رجال الأمن الذين كانت حصانة هؤلاء البرلمانيين حائلا دون ضبطهم أو اقتحام مخازن مسجلة بأسمائهم، وقد كانت معظم المظاهرات مرتبطة بمناسبات وأحداث تخص حركة حماس في غزة وعلى رأسها عمليات الاغتيال التى نفذتها إسرائيل لقادة حماس مثلما حدث عند اغتيال الشيخ أحمد ياسين أو عبد العزيز الرنتيسى.

وقد كان قمة نشاط الإخوان في إشعال المظاهرات والاضطرابات في الجامعة ما حدث يوم ٨ أبريل ٢٠٠٨ حيث حولوا حادثا محدودا لإغماءات

بين بعض الطلاب عقب تناول وجبات العشاء في المدينة الجامعية وتم استغلال الموقف، حيث أحدثوا هياجًا شديدًا في المدن الجامعية ودفعوا الطلاب إلى المستشفيات وقد تم علاجهم جميعًا وخروجهم في الحال إلا أنه تم تضخيم الموقف وأشاعوا أن مئات الطلاب قد تسمموا وأحضروا وسائل الإعلام وتسابقت الصحف والبرامج الحوارية في المزايدة على أعداد المتسممين وكلما هدأت الأمور زادوها اشتعالاً بإشاعة وفاة طالبة وإخطار المدن الجامعية للطلاب بذلك، وبالمقابل وفاة طالب وإخطار المدن الجامعية للطالبات بذلك وهو أسلوب تهييجى واضح وأصبح أكثر وضوحًا في ممارستهم في تضخيم الأمور وتصديرها للرأى العام على غير الحقيقة.

كنت خلال السنة الأخيرة من رئاستى للجامعة، قد أصبحت واحدا من أقدم رؤساء الجامعات المصرية وكنت بهذه الصفة أكلف بمهام إشرافية وأكاديمية عديدة من قبل وزير التعليم العالى أو المجلس الأعلى للجامعات، وكان منها على سبيل المثال رئاستى للجنة العليا لمعادلة الشهادات الجامعية التى يحصل عليها أعضاء هيئة التدريس من الخارج، وكذلك من هم من خارج هيئة التدريس حيث تعتبر الشهادة التى يصدرها المجلس الأعلى للجامعات بعد فحص الشهادات الأجنبية ومراجعة متطلبات منحها في كل جامعة أجنبية بالمتطلبات في الجامعات المصرية هى أساس الاعتراف بهذه الشهادات والعمل بموجبها في جميع الجهات الحكومية المصرية.

وقد تم تكليفي أيضًا برئاسة لجنة طلب رئيس الوزراء تشكيلها لوضع ضوابط يتم بمقتضاها زيادة دخول أعضاء هيئة التدريس في الجامعات المصرية وكان تشكيل اللجنة يشمل عددا آخر من رؤساء الجامعات المصرية ونوابهم وممثلين لنوادى أعضاء التدريس في بعض الجامعات التى كان يسيطر عليها الإخوان المسلمين في هذا الوقت.

استمر عمل هذه اللجنة عدة شهور وكانت اجتماعاتها تمثل معاناة حقيقية بين حرص من الدكتور هانى هلال وزيرالتعليم العالى في ذلك الوقت لزيادة دخول أعضاء هيئة التدريس ورغبة الحكومة في أن يكون ذلك مرتبطًا بإجراءات تضمن التزامًا أكثر من قبل أعضاء هيئة التدريس وكانت الاجتماعات تمثل صراعًا حقيقيًا بين جماعة الإخوان المسلمين والدولة، حيث طالب ممثلو نوادى هيئة التدريس بزيادات خرافية من المستحيل أن يتم قبولها، بينما حاولت أنا وباقى أعضاء اللجنة الحصول على زيادة معقولة في الدخول مقابل ضمانات مؤداها تواجد ومشاركة أكثر من أعضاء هيئة التدريس، وقد عرضنا ما توصلنا إليه وقتها على الدكتور أحمد نظيف ووافق عليه وأقرته الحكومة وكلفت وزارة المالية بدراسة تبعاته وقواعده، إلا أن هذا قد استغرق بعض الوقت، وكان هو نفسه ما أعلنه الدكتور مرسى عقب توليه الحكم في أغسطس ٢٠١٢ معتبرًا إياه وعلى غير الحقيقة أحد إنجازات حكم الإخوان انحيازًا إلى أساتذة الجامعات.

سبق الإشارة إلى مبادرة إنشاء المستشفي الجامعى الجديد بطاقة ٢٠٠ سرير وقد كان هذا المشروع تحديدًا بالإضافة إلى مشروعات أخرى مثل إنشاء مبانٍ حديثة لكلية العلوم وكلية الحاسبات والمعلومات ومبانٍ بديلة ومتطورة للمبانى المتهالكة لكلية الزراعة سببًا في اختيارى فيما بعد محافظًا للفيوم في أبريل ٢٠٠٨.

أثناء رئاستى للجامعة وفي يوم ٣٠ مايو ٢٠٠٧ كانت هناك زيارة مقررة لرئيس مجلس الوزراء الدكتور أحمد نظيف لمحافظة الفيوم وكان البرنامج يتضمن زيارة الجامعة لمدة ٢٠ دقيقة فقط لازدحام جدول زيارة الفيوم بأنشطة أخرى، وكان الموعد المقرر لوصول رئيس الوزراء للجامعة حوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا إلا أنه يبدو أن زيارته لأحد الأماكن قبل

هذا الموعد لم تلق رضاه وغادر المكان غاضبًا وفوجئت برئيس مراسم مجلس الوزراء اللواء على محرز يتصل بى في التاسعة والنصف صباحًا يسألنى تليفونيًا عن إمكانية أن يحضر رئيس مجلس الوزراء إلى الجامعة الآن حيث إنه قد حدث خلل في المواعيد نتيجة ما حدث في المكان السابق ورحبت بالطبع.

حضر رئيس مجلس الوزراء إلى الجامعة واستمرت زيارته ساعتين كاملتين، وكانت زيارة ناجحة جدًا وأثار انتباهه قيامنا بإنشاء المستشفي الجامعى بضم مبنيين متجاورين كانا مخصصين لأغراض أخرى وإنشاء مبنى ثالث بينهما وتوصيل المبانى الثلاث ببعضها البعض وإعادة تأهيلها وتزويدها بمجمع للمصاعد بكافة أنواعها وتعديل شكلها الداخلى بالكامل، بحيث أصبح مبنى طبيا متكاملا لا يمكن تصور أنه كان عبارة عن مبانٍ قديمة منفصلة، وتكلف ذلك أقل من ٣٠ مليون جنيه من الناحية الإنشائية في حين أن إنشاء مستشفى جديد كان سيتكلف على الأقل عشرة أضعاف هذا المبلغ.

أعجب الدكتور نظيف بتجربة إنشاء المستشفى وأبدى إعجابه أيضًا بالمبانى الجديدة لكليات الزراعة والعلوم والحاسبات وبتطوير الحرم الجامعى وأبدى إعجابه أيضًا بما تم عرضه من خطط تطوير الجامعة مستقبلاً وحرصنا على أن تكون نموذجا للجامعات المصرية قليلة العدد ورؤيتنا في عدم الانسياق وراء تجارب إنشاء الكليات الأدبية ذات الأعداد الفلكية مثل الحقوق والتجارة ووعد بأن يدعم توجه الجامعة في هذا الخصوص.

في اليوم التالى لهذه الزيارة وفي حفل افتتاح مبنى المكتبة المركزية في جامعة القاهرة والذى حضرته السيدة سوزان مبارك وبعض السادة الوزراء وكان منهم المهندس أحمد المغربى وزير الإسكان والذى كان مرافقًا لرئيس

الوزراء في زيارته بالأمس لجامعة الفيوم والذى كنت أجلس بجواره في الاحتفال فإذا به يقول لى إن الدكتور نظيف كان معجبًا جداً بما شاهده في جامعة الفيوم وأنه أبدى إعجابًا خاصًا بقيادتى للجامعة وما وصلت إليه أمورها خلال عامين فقط من إنشائها، وقد تأكدت من هذه الرواية في واقعة أخرى بعد حوالى شهرين من هذه الزيارة، حيث إننا - خلال اجتماع للمجلس الأعلى للجامعات في الإسكندرية وكان يحضره الرئيس حسنى مبارك- قد فوجئنا به يطلب من الرئيس أن تكون الجامعات ضمن برامج زيارته المرتقبة لبعض المحافظات وقال له إنه يرشح لسيادته زيارة جامعة الفيوم ليرى ما أمكن إنجازه على أرض الواقع بفضل الإدارة الجيدة والإصرار والتفانى في العمل.

في منتصف شهر يونيو ٢٠٠٧ وبعد زيارة الدكتور نظيف للجامعة بحوالى أسبوعين، أخبرنى الدكتور هانى هلال وزير التعليم العالى وقتها أن الدكتور نظيف قد طلب منه أن يبحث عن رئيس جديد لجامعة الفيوم، حيث إنه سوف يكلفنى بمهام أخرى قريبًا وقد حدث بالفعل واستدعانى الدكتور نظيف في يناير ٢٠٠٨ لمقابلته في القرية الذكية وأخطرنى بذلك على أن يكون التنفيذ في أول حركة محافظين قادمة وهو ما أعلن عنه يوم الخميس العاشر من أبريل ٢٠٠٨ حيث تم اختيارى محافظًا للفيوم وأديت اليمين الدستورية أمام الرئيس حسنى مبارك صباح الأحد ١٣ أبريل ٢٠٠٨.

مع حلول عام ٢٠٠٨ كنت قد أمضيت أكثر من ٣٧ عامًا متدرجًا فى السلك الأكاديمى من بدايته ومرورًا بتجارب محلية وخارجية ومراحل متعددة وصولاً إلى رئاسة الجامعة ثم إلى العمل العام بعد ذلك، ولا شك أن فترة الستينيات وأوائل السبعينيات كانت هى الفترة الذهبية للتعليم الجامعى المصرى بسبب القامات العلمية الكبيرة التى قامت على التعليم

الجامعى فى هذا الوقت ومعظمهم تخرج من جامعات عالمية مرموقة بالإضافة إلى الرغبة الواضحة عند الطلاب فى هذه المرحلة وأولياء أمورهم فى استخدام التعليم كوسيلة من وسائل الحراك الاجتماعى والانتقال الطبقى مدعومين بمجانية حقيقية فى التعليم والذى كان متجانسًا تمامًا من حيث النوعية وهو الأمر الذى تغير الآن حيث انتشرت الجامعات الخاصة والبرامج المميزة ذات المصروفات فى الجامعات الحكومية وكلها تمثل صورًا لإمكانية أن يكون المال بديلاً عن التفوق فى الحصول على الدرجات الجامعية وأن يكون النفوذ بديلاً عن التفوق أيضًا فى الفوز بالوظائف الأكثر بريقًا والأعلى دخلاً.

والرأي عندى أننا نحتاج أن نعيد لمنظومة التعليم الجامعى الحكومى اعتبارها فسوف نظل العمود الفقرى لأي برامج للتنمية البشرية فى مصر فى السنوات المقبلة.

أول أسبوع عمل فى وظيفة عميد كلية الهندسة جامعة القاهرة بالفيوم ١٩٩٢

شقيقى الدكتور جمال فى زيارة تهنئة بمنصبى الجديد ١٩٩٢

تكريم جامعة القاهرة بمناسبة انتهاء عملى نائبا لرئيس جامعة القاهرة ٢٠٠٥

حفل فى اليوم الأول لجامعة الفيوم عام ٢٠٠٥ ويظهر فيها الدكتور عمرو سلامة وزير التعليم العالى والمرحوم الدكتور رأفت محمود محافظ الفيوم

صور توضح ما وصلت إليه جامعة الفيوم الآن

زيارة رئيس مجلس الوزراء الدكتور أحمد نظيف لجامعة الفيوم ٢٦ مايو ٢٠٠٧

زيارة رئيس مجلس الوزراء الدكتور أحمد نظيف لجامعة الفيوم ٢٦ مايو ٢٠٠٧

الفصل الثامن

من الجامعة إلى العمل العام

محافظ الفيوم ٢٠٠٨-٢٠١١

من الجامعة إلى العمل العام
محافظ الفيوم ٢٠٠٨-٢٠١١

توليت منصب محافظ الفيوم رسميًا يوم الأحد ١٤ أبريل ٢٠٠٨ وقد توجهت مباشرةً من قصر الاتحادية إلى الفيوم بعد أداء اليمين الدستورية أمام الرئيس حسنى مبارك دون التوقف في منزلى في العجوزة لإحضار متعلقاتى الشخصية وأخصها الملابس، حيث المبيت في الفيوم سيكون بشكل دائم من هذه اللحظة، ووجدت في انتظارى في مبنى المحافظة كبار المسئولين فيها بالإضافة إلى العديد من زملائى في الجامعة وعلى رأسهم نواب رئيس الجامعة وأمينها العام.

لم تكن مهام وظيفة المحافظ جديدة بالنسبة لى، حيث كنت مستشارًا لجميع محافظى الفيوم لمدة ١٦ عامًا قبل لحظة دخولى مبنى المحافظة ليس كمستشار هذه المرة ولكنى الآن المحافظ الفعلى والمسئول عن كل ما يخص حوالى ٣ مليون مواطن هم كل أبناء الفيوم في هذا الوقت، والمسئولية هنا تختلف عن مسئولية رئيس الجامعة التى تنتهى مع مغادرة الطلاب لمقر الجامعة بعد اليوم الدراسى والاهتمام الأساسى لرئيس الجامعة يكون في القضايا التعليمية ويتعامل مع مجتمع من المتعلمين والمثقفين والقيادات الأكاديمية، بينما يمتد اهتمام المحافظ ومسئولياته لتشمل كل ما يهم جميع المواطنين بأعمارهم المختلفة ومستويات التعليم المتباينة وتمتد المسئولية على مدار اليوم وتستمر خلال ساعات الليل.

المحافظ عليه معرفة كل شيء يخص المحافظة، فهو المسئول الأول، وهو ممثل رئيس الجمهورية في المحافظة يسأله عنها رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ويستفسر منه الوزراء ويناوشه أعضاء مجلس الشعب وعليه أن يجرى توازنًا كبيرًا بين الالتزامات الوظيفية المتشعبة والمجاملات الاجتماعية، الجميع يتقرب إليه ولهم مصالح أمرها بين يديه، بعض الأشخاص يحاربونه دون سبب، يحتاج إلى الحزم والقوة واتباع الحق وعدم المجاملة ويحتاج أيضًا أن يلم الناس حواليه "دون أن يتحول ذلك إلى أى نوع من الشللية التى تفقده الحياد في الحكم على الأمور، ببساطة يحتاج إلى أن تكون "عينيه في وسط راسه" كما يقولون.

من أول يوم أردت أن لا أكون أى محافظ والسلام، قررت أن أواجه القضايا المحورية للمحافظة، الفيوم تعانى من مشاكل في مياه الشرب والصرف الصحى ومياه الرى وتلوث بحيرة قارون وضعف الحركة السياحية والأمية العالية والبطالة والزيادة السكنية المضطردة وضعف الخدمات الصحية وسوء حالة الطرق وكثرة حوادثها، إن مواجهة هذه القضايا يحتاج تمويلا، والتمويل عند الحكومة، إذن التنسيق مع الحكومة مطلوب حتى لا تكون أحلامك حبرًا على ورق.

طلبت من الدكتور أحمد نظيف وقتها تشكيل لجنة وزارية لقضايا محافظة الفيوم وكانت هذه سابقة لم تحدث من قبل، واجتمعت اللجنة بصفة دورية وكان من أعضائها الدكتور يوسف بطرس غالى وزير المالية، المهندس أحمد المغربى وزير الإسكان، اللواء المحجوب وزير التنمية المحلية، زهير جرانة وزير السياحة وفاروق حسنى وزير الثقافة وماجد جورج وزير البيئة.

بدأنا مشروعات في كل القطاعات الذى ذكرتها في وقت واحد، سلاحى في ذلك كان معرفتى المسبقة بالمحافظة وقضاياها وشعبها وبالتالى البداية ستكون أسرع دون تحضيرات طويلة؛ وهو ما كان.

أول ما تم الاهتمام به هو مياه الشرب، وبذلت مجهودًا خرافيًا في إنجاز مشروعين رئيسين أولهما محطة مياه طامية في شرق الفيوم ومصدر المياه لها من نهر النيل عند "جرزا" التابعة لمركز العياط في نطاق محافظة الجيزة وطاقة المحطة ١٧٠ ألف متر مكعب في اليوم وتم الانتهاء منها وافتتاحها من قبل الرئيس حسنى مبارك في ٨ أكتوبر ٢٠٠٩، أما ثانى المشروعات فكان توسعات محطة جنوب الفيوم في منطقة "العزب" وطاقة هذه التوسعات ٢٤٠ ألف متر مكعب في الفيوم وهذه المحطة رغم الجهود المضنية في متابعتها إلا أن الانتهاء من التنفيذ تزامن مع ما حدث في يناير ٢٠١١ ولم يتسن افتتاحها في حينه بالرغم من عمل كل الترتيبات مع رئاسة الجمهورية قبل يناير، حيث كان سيحضر افتتاح هذه المحطة العملاقة الرئيس حسنى مبارك وكان قد وعد بذلك عند حضوره افتتاح المحطة السابقة افتتاحها في طامية شرق الفيوم في شهر أكتوبر ٢٠٠٩ وكانت الطاقة المجمعة للمحطتين توازى مجموع طاقات جميع محطات مياه الشرب التى جرى إنشاؤها على مدار عشرات السنين قبل ذلك، وقد تم بالتوازي مع إنشاء هاتين المحطتين إنشاء شبكة ضخمة من خطوط التغذية حصلت على تمويل استثنائى لها من يوسف بطرس غالى وزير المالية وكان يشرف على الإتاحة الدورية للتمويل السيد/ عمرو الجارحى مدير بنك الاستثمار وقتها ووزير المالية فيما بعد.

كان لى موقف مشابه مع الدكتور نظيف، حيث أعطى تعليماته للمهندس عمرو عسل رئيس هيئة التنمية الصناعية بتخصيص نصف موازنة هيئة التنمية الصناعية للمناطق الصناعية في الفيوم إذا تطلب الأمر طالما يحسن استخدامها، وكان ذلك في أعقاب افتتاحه لمصانع جديدة في المنطقة الصناعية بكوم أوشيم في زيارته لها في شهر سبتمبر ٢٠١٠.

من ضمن ما تم مناقشته في هذه اللجنة الوزارية قضية الفيوم المحورية المتمثلة في عدم وجود خدمات الصرف الصحى في بعض المدن والكثير من القرى الكبيرة والتى تمر بجوارها أو داخلها مصارف مائية وهذه تصب في النهاية في بحيرة قارون حيث إن نظام الصرف الزراعى مبنى على ذلك، ومع غياب معالجة مياه الصرف الصحى وانتهاؤها إلى المصارف ومنها إلى بحيرة قارون، زاد مستوى التلوث في هذه البحيرة الشهيرة وتحولت مياها مع الوقت ونتيجة بخر المياه من البحيرة وبقاء الملوثات وورود مياه جديدة من المصارف الملوثة إلى بؤرة تلوث خطيرة تهدر الحياة نفسها في محافظة الفيوم، وقد تم إقرار توفير تمويل لأكثر من ٥٠ قرية كبيرة يبلغ سكانها أكثر من ربع سكان الفيوم وبدأت جميع هذه المشروعات دفعة واحدة عام ٢٠٠٩ بتمويل ضخم بالأسعار السائدة وقتها يصل إلى ٤٠٠ مليون جنيه، وكانت ستحدث طفرة حقيقية في القرى التى تنشأ هذه المحطات لخدمتها مباشرة علاوة على معالجة القضية المحورية الخاصة ببحيرة قارون، وبكل أسف أن معظم هذه المشروعات توقفت في يناير ٢٠١١ وبدأ استئناف العمل في بعض منها بعد ذلك.

ومثلما حدث في موضوع مياه الشرب ومشروعات الصرف الصحى، أيضًا تم الإعداد لمشروعات كبيرة في الإسكان وتوفير مياه الرى ومشروع تطوير شمال بحيرة قارون، وتطوير المنطقة الصناعية في كوم أوشيم ووضع حجر الأساس لمنطقة صناعية جديدة على حدود محافظة الفيوم مع الجيزة مجاورة لطريق القاهرة الفيوم، وهذه المنطقة هى الآن محط أنظار مستثمرين من الصين وكوريا وغيرها وبخاصة بعدما تم الانتهاء من الطريق الدائرى الإقليمى حول القاهرة الذى يربط هذه المنطقة مباشرة مع موانئ الإسكندرية والعين السخنة وتم تبنى مشروع كبير لمحو أمية حوالى ١٠٠ ألف من أبناء الفيوم ومشروع لمجابهة الزيادة السكنية في

الأماكن الريفية ذات معدلات الإنجاب العالية، وساعدنى في ذلك السفيرة مشيرة خطاب بصفتها وزيرة الأسرة والسكان واللواء أبو بكر الجندى وكان حينها يشغل رئيس الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء قبل أن يشغل في يناير ٢٠١٨ موقع وزير التنمية المحلية.

من المشروعات المهمة في الفيوم والتى كان لى دور في إنجازها هو الطريق الدائرى للفيوم وقد بدأناه عام ٢٠٠١ حين كان الدكتور سعد نصار محافظًا وأنا بصفتى أستاذًا متخصصًا في تخطيط وتصميم الطرق ودعمنا في تنفيذه المرحوم المهندس حمدى الشايب وزير النقل في هذا الوقت وكنت من أعد دراسات الجدوى لتدبير التمويل ومن قام بالتصميم الكامل للطريق والإشراف على التنفيذ واستمر العمل في فترة تولى الدكتور محمد رأفت محمود منصب محافظ الفيوم من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٥ وكذلك أثناء تولى اللواء مجدى قبيصى لمنصب المحافظ أيضًا من ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٨ إلى أن توليت أنا المسئولية كمحافظ بعد ذلك وتم إنهاء المشروع بالكامل.

من ضمن المشروعات التى لاقت اهتمامًا كبيرًا أيضًا أثناء شغلى لموقع محافظ الفيوم كان مشروع تطوير مدارس الفيوم، وشمل المشروع تطوير ١٠٠ مدرسة على مرحلتين وقد انتهينا من المرحلة الأولى بالفعل ولم تبدأ المرحلة الثانية نتيجة أحداث يناير ٢٠١١.

كان مشروع تطوير مدارس الفيوم هو عمل ممول بالكامل من التبرعات ومن أهمها التبرعات المقدمة من جمعية مصر الجديدة التى كانت ترأسها السيدة سوزان مبارك التى زارت الفيوم بسبب هذا المشروع وغيره ثلاث مرات كان آخرها في أكتوبر ٢٠١٠ حيث تم الاحتفال بالانتهاء من مشروع تطوير المرحلة الأولى وعدد المدارس بها ٤٠ مدرسة.

اشتمل العمل في هذه المدارس على التحديث بالكامل وفق تصميمات حديثة للمبانى ودورات المياه والفصول وشبكات ومعدات معامل الحاسبات

والمعامل المتخصصة ورياض الأطفال والشوارع المجاورة وتدريب المعلمين وكل ما يتصل بالعملية التعليمية وكان عملاً شاقًا اشترك فيه أكثر من ٢٠ من شركات المقاولات من الفيوم، وكان العمل يتواصل على مدار ٢٤ ساعة كل يوم وكان العمال يتساقطون أثناء العمل من الإرهاق إلا أنهم بعد راحة بسيطة يعودون للعمل من جديد، وأتذكر أننا كنا نعمل في رمضان حتى الإفطار ونفطر سويًا؛ العمال وأنا في موقع العمل ونواصل العمل بعد الإفطار مباشرة.

ومن المفارقات المرتبطة بهذا المشروع الذى تكلفت مرحلته الأولى حوالى ٧٠ مليون جنيه وهو مبلغ كبير في هذا الوقت، إن أحد البلاغات التى تم تقديمها في أعقاب أحداث ٢٥ يناير وما تلاها ضمن ظاهرة انتشار تقديم بلاغات في جميع المسئولين من لجان الحريات ذات التوجهات الإخوانية في نقابات المحامين الفرعية في المحافظات، كانت تتحدث عن إهدار المال العام وأن من نفذ جميع هذه المشروعات بالأمر المباشر الصادر منى شخصيًا هى زوجتى من خلال شركة المقاولات التى تمتلكها وتديرها، والعجيب في الأمر أن زوجتى لا تعمل ولا تمتلك شركة للمقاولات ولا علاقة لها بالمشروع على الإطلاق، بل ولم تكن تعرف أي شيء عنه على الإطلاق.

أتذكر أنه أثناء آخر زيارة للسيدة سوزان إلى الفيوم في أكتوبر ٢٠١٠ وكان خط السير الموضوع يتضمن زيارة أربعة من المدارس التى تم تطويرها، وأثناء زيارة إحداها وقبل وصولنا إلى الموقع بعدة أمتار لاحظت وجود المئات من السيدات من المنطقة المحيطة بالمدرسة وهن يتدافعن إلى السيارة ويمنعهم رجال الأمن وأنهم يطلقون الزغاريد ابتهاجًا بالزيارة، وحيث إننى كنت مرافقًا لحرم السيد الرئيس في السيارة فقد عرضت عليها أن تنزل من السيارة وتتجه إليهم وتحييهم وقد استجابت للدعوة

وخرجت وأنا معها لتحية السيدات إلا أن رجال الأمن من الرئاسة كانت لهم وجهة نظر أخرى، حيث اجتمعوا حولها وحولى وأعادونا للسيارة وهم في حالة توتر شديد مما حدث ويبدو أنه كانت عندهم تقاريرهم حول توجهات أهل المنطقة التى لم تكن تؤيد ما اقترحته أنا وقبلته حرم رئيس الجمهورية.

من الأحداث الطريفة التى أتذكرها أيضًا ارتباطًا بزيارة السيدة حرم رئيس الجمهورية، حيث كنا قد أعددنا لها هدية بسيطة عبارة عن طبق من الفضة محفور عليه سواقى الفيوم وكان من المخطط تقديمها خلال الزيارة، إلا أن مسئولى الرئاسة اعترضوا بناءً على تعليمات لديهم بمنع تقديم أى هدايا ولو كانت رمزية مثلما كنا نخطط، وأثناء حفل الغذاء الذى أقمناه في نهاية الزيارة فى أوبرج الفيوم وكنت أجلس بجوار حرم الرئيس مباشرة ويجلس بجانبها من الناحية الأخرى حرم المشير طنطاوى وحرم الفريق سامى عنان وبدأت تتحدث عن نوع الطعام وعن أنه لا يختلف عن الأكل في أى مكان آخر مع أنها كانت تتمنى أن تكون الوجبة من الأكلات المشهورة في الفيوم وعندما شرحت لها أن هذه كانت اختيارات مسئولى الرئاسة وأضفت أيضًا أنهم منعونا من تقديم هدية رمزية لها واستغربت وطلبت أن نحضر الهدية وقبلتها وعلقت على موضوع تعليمات مسئولى الرئاسة أنهم يذكرونها وهى مكبلة بكل هذه القيود بالمقاتلين في العصور الوسطى في أوروبا وهم يرتدون السترات والخوذ الحديدية التى وإن كانت تحميهم إلا أنها تكبلهم وتشل من حركتهم. كانت محاولات إدخال الهدية إلى القاعة غير سهلة بالمرة وتمت بأوامر مباشرة منها عندما عرفت بذلك إلا أن مسئول الزيارة المخصص من الرئاسة قد فقد وظيفته في نهاية اليوم لعدم الالتزام بأوامر عدم تقديم الهدايا وأتذكر أننى عرفت ذلك عندما طلبته على تليفونه المحمول مساءً وبعد انتهاء الزيارة لأشكره على

مجهوداته رد على شخص آخر وسألته عنه وقال لى ببساطة شديدة أنه كان يعمل في الرئاسة حتى عصر ذلك اليوم.

كان الدكتور زكريا عزمى رئيس ديوان رئيس الجمهورية من الشخصيات النافذة في أثناء حكم الرئيس حسنى مبارك وكان هو حلقة الوصل الرئيسة لأى مسئول مع الرئيس في هذا الوقت، كنت قد عرفت الدكتور زكريا عزمى لأول مرة عام ١٩٧٢ في أحد زياراتى للدكتور خالد عبدالناصر في استراحة الرئيس جمال عبد الناصر في المعمورة حيث كان الدكتور زكريا عزمى وقتها ضمن ضباط الحرس الجمهورى.

صباح يوم ١١ مايو ٢٠٠٨ بعد أقل من شهر من بداية عملى كمحافظ للفيوم ٢٠٠٨، اتصل بى مسئول من رئاسة الجمهورية لإخطارى بزيارة للرئيس حسنى مبارك إلى الفيوم صباح اليوم التالى لافتتاح توسعات لمصانع كيماويات تابعة للقوات المسلحة في منطقة كوم أوشيم الصناعية وأضاف أن المشير طنطاوى والفريق عنان في الموقع الآن للترتيب للزيارة وأن علي أن أنضم إليهم لوضع الرتوش الأخيرة على برنامج الزيارة.

وذهبت وقابلنى المشير طنطاوى بود شديد وتم استعراض برنامج الزيارة ولاحظت غياب كلمة لى كمحافظ في الترحيب بالسيد الرئيس، وعندما أوضحت ذلك لسيادة المشير فكر قليلاً ثم قال موافقًا: ولما لا؟

قضيت الليلة السابقة للزيارة المرتقبة في إعداد الكلمة التى تمت الموافقة على إدراجها في البرنامج لألقيها أمام الرئيس واحتفظت بها مطوية في جيبى وتوجهت إلى مكان الاحتفال وكان قد اتصل بى وأنا في الطريق الدكتور زكريا عزمى ليستعجلنى حيث قرر الرئيس الحضور مبكرًا عن موعده.

عند وصولى إلى غرفة الاستقبال الملحقة بمكان الاحتفال استعدادًا لوصول الرئيس سألنى الدكتور زكريا: هل فعلاً تريد إلقاء كلمة أمام الرئيس؟ وطبعًا عرفت أن هذا الأمر كان محور نقاش قبل وصولى، وعندما أجبته أن هذا ما تم الاتفاق عليه بالأمس أشار إلى أنه لا داعى لذلك .. ووافقته.

بعد وصول الرئيس وانتظامنا في قاعة الاحتفال وعندما بدأ التقديم من المسئول عن المشروع الذى سيجرى افتتاحه بعد قليل ... قال الرئيس: أين المحافظ؟ وأضاف متسائلاً هو المحافظ مش ناوى يرحب بينا ولا إيه؟ وطبعًا اسقط في يد الدكتور زكريا عزمى ... وألقيت كلمتى بدون قراءتها من الأوراق حيث كنت قد حفظتها تمامًا.

كانت زيارة الرئيس ناجحة تمامًا وكانت الزيارة فرصة لأشرح له ما يتم في الفيوم وعرفت في هذه الزيارة الدكتور سيد مشعل وزير الإنتاج الحربى وقتها الذى كان يشجعنى بمنتهى الود على مجاورة الرئيس أثناء تفقده للمصنع الجارى افتتاحه وكانت هذه الزيارة مقدمة لزيارة أخرى أجراها الرئيس في ٨ أكتوبر ٢٠٠٩ للافتتاح مشروعات كبرى في مجال مياه الشرب والصرف الصحى والإسكان وقرى الظهير الصحراوى وكانت الزيارتان بداية لاهتمام كبير من الحكومة بالفيوم ومشروعاتها وتبعها أيضًا زيارة لرئيس مجلس الوزراء في سبتمبر ٢٠١٠ وكان مخططًا أن يزورها الرئيس مرة أخرى في أوائل عام ٢٠١١ لولا قيام ثورة يناير.

للترتيب لزيارة الرئيس في ٨ أكتوبر ٢٠٠٩ والتى كانت تتضمن الاحتفال في موقعين رئيسين أحدهما في أقصى شرق الفيوم (محطة طامية لمياه الشرب) والآخر في أقصى غرب الفيوم في منطقة الريان (لافتتاح قرية من قرى الظهير الصحراوى في منطقة وادى الريان)، كانت تعليمات الجهات المنظمة للرحلة أنه وبالرغم من أن الرئيس سينتقل

بالطائرة الهليكوبتر بين الموقعين إلا أنه يجب تجهيز بديل برى للانتقال وبذلنا في ذلك مجهودًا كبيرًا لتأمين وإعداد الطريق الذى يبلغ طوله حوالى ١٠٠ كيلومتر.

وقرب الانتهاء من افتتاح مشروع محطة مياه الشرب في طامية، سألنى الرئيس عن طول المسافة إلى الموقع الآخر وأوضح أنه يريد أن يرى الفيوم من الداخل وهو الأمر الذى كان يستدعى استخدام الطريق البديل وشرحت لسيادته أن هذا ممكن، إلا أننى فوجئت بتدخل الدكتور زكريا عزمى لدى الرئيس قائلاً إن ذلك سيستغرق وقتًا طويلاً وأن لسيادته موعدًا في القاهرة مع أحد الزائرين من الاتحاد الأوروبى وكان الدكتور زكريا عزمى وهو يتحدث مع الرئيس يشير إليَّ متوعدًا بضم كل أصابع يده اليسرى إلى بعضها البعض بشكل يمكن أن أراه ولا يراه الرئيس، إلا أن الرئيس فاجأنى بالقول: وأنت معايا مايهمكش من أى حد وجذبنى ومشينا ليس إلى السيارة لنبدأ الرحلة البرية ولكن إلى الطائرة التى قرر أن يستخدمها بدلا من الطريق البرى ودارت بيننا فى الطائرة أحاديث عن ذكرياته عندما كان قائدًا للقاعدة الجوية في بنى سويف إلى الجنوب من الفيوم وعن رحلاته الاستطلاعية العديدة وقتها محلقًا فوق الفيوم.

إن المسئول وهو يشغل مناصب سياسية أو تنفيذية عليا مثلما هو الحال عند شغل منصب الوزير أو المحافظ عليه اتخاذ قرارات عديدة ويعرضه الخطأ المحتمل عند اختيار أي منها إلى مشاكل غير متوقعة، كما أن المسئول كلما ارتفع منصبه يصبح عدد من يمكنه التشاور أو التواصل معهم أقل.

أتذكر أنه في أوائل شهر يوليو عام ٢٠٠٨ أن جاءنى ممثلون لأجهزة أمنية مصرية مسئولة عن ترتيب وتأمين زيارة للرئيس الليبى العقيد معمر القذافي لمحافظة الفيوم حيث يقوم خلالها بلقاء ممثلين للقبائل العربية

التى انتقل بعض منها إلى ليبيا وبقى البعض الآخر في الفيوم وبنى سويف والمنيا، وفي الفيوم تحديدًا هناك قرية الأصفر إلى الشمال من مدينة الفيوم وهى مسقط رأس "عمَّه" الرئيس القذافي، وتم عمل الترتيب اللازم والذى كان مؤداه استضافة الفيوم لأكثر من ٢٠٠٠ شخص من هذه العائلات وإعاشتها ثم نقلها إلى الصالة المغطاة شرق الفيوم، حيث يجرى اللقاء وقد تم عمل منصة عالية جدًا عليها كرسى واحد غاية في الفخامة للرئيس القذافي في مواجهة الحضور.

أخبرنى مسئولو الأجهزة الأمنية أنه لم يتحدد دورى في الزيارة وهل أقوم باستقبال الرئيس ومرافقته؟ وهل أحضر اللقاء أو لا؟ كل هذه كانت أسئلة مهمة حيث إن الرئيس القذافي كانت له تصرفاته وأقواله التى لو قيلت في وجودى فقد تؤخذ علىَّ، كما أن عدم وجودى قد يؤخذ علىَّ أيضًا. كانت رؤية المسئولين القائمين على برنامج الزيارة أن أمر تواجدى من عدمه تحدده الرئاسة، وأنه ما لم يتصل بى أحد قبل الزيارة بيومين فعلىَّ الاستفسار من الدكتور زكريا عزمى شخصيًا.

اتصلت بالدكتور زكريا عزمى بالفعل يوم الأربعاء ٢ يوليو وكان ثائرًا عندما سألته ويبدو أن أمر تجول الرئيس القذافي في عدة محافظات (كان سيتوقف قبلها في مدينة الطور في جنوب سيناء) وكان ذلك سيتم بعدما يحضر فقط مراسم الجلسة الافتتاحية لمؤتمر القمة العربية في شرم الشيخ في وقت انشغال الرئيس في مؤتمر القمة، ويبدو أن ذلك لم يكن شيئًا مرحبًا به وبعد محاولات منى للتهدئة وأننى لست من قررت أن يزور القذافي محافظة الفيوم كانت إجابة الدكتور زكريا عزمى عن استفسارى حول حضورى من عدمه هى ألا أحضر ... لكنه لاحقنى قائلاً قبل أن تنتهى المكالمة: وكمان أنسى أنك اتصلت بى يا سيادة المحافظ و ... إحنا أصلاً "ماتكلمناش مع بعض".

أصبح الأمر بالنسبة لى أكثر تعقيداً وأصبح أى قرار سأتخذه سيكون على مسئوليتى الشخصية، كانت الزيارة مخططًا لها صباح الجمعة ٤ يوليو وحتى مساء الخميس لم تصل إلىَّ أى تعليمات ....، وجلست طوال الليل أفكر فيما يجب أن أفعله وحتى الساعة الثامنة صباحًا لم أكن قد وصلت إلى قرار إلى أن هدانى تفكيرى أن اتصل بالدكتور مفيد شهاب وكانت تربطنى به علاقة قوية من قبل ذلك أثناء شغله منصب رئيس جامعة القاهرة، وكنت أنا عميدًا لكلية الهندسة وقتها، واتصلت به بالفعل الساعة الثامنة صباحًا وعندما سمع سؤالى استغرق في الضحك وقال لى: أنت كمان وقعت؟ وأضاف: أنا عندى تجارب عديدة مع الرئيس القذافي وقد أرسلنى الرئيس مبارك أكثر من مرة لمقابلته على الحدود المصرية الليبية ومرافقته حتى القاهرة وأنه كثيرًا ما تركنى لينصب خيامه لينام في منتصف الطريق والدكتور مفيد في سيارته ينتظر بالساعات. المهم أنه اقترح أن أكون جاهزًا في مكتبى من الآن (كنا ٨ صباح يوم الجمعة) وأن أتابع الزيارة وأنتظر أي تعليمات قد تأتى من الرئاسة، وقد كان ولم تأتى تعليمات ومكثت في مكتبى أكثر من عشر ساعات كاملة حيث حضر في الثانية ظهرًا بعد عدة توقفات من مزرعته على طريق القاهرة- الإسكندرية الصحراوى وغادر الفيوم في السادسة مساءً وكان العنوان المنشور في المصرى اليوم فى ٢٠٠٨/٧/٦ هو: "في مؤتمر القذافي في الفيوم: القبائل ترحب .. وبكرى يهلل والمحافظ يغيب".

قبل يناير ٢٠١١ كانت الفيوم على أعتاب مشروعات تنموية كبرى على وشك أن تبدأ، ومن أهمها مشروع التنمية السياحية للشاطئ الشمالى لبحيرة قارون وقد تم بالفعل عمل كل المخططات الخاصة بذلك ومنها استكمال الطريق شمال البحيرة وتوصيله بطريق القاهرة الفيوم وتطوير الطريق جنوب البحيرة حتى يصل إلى طرفها الغربى ويتصل بعدها مع

الطريق الشمالى وقد تم الانتهاء من أكثر من ٨٠٪ من هذا الطريق بالفعل وطوله بالكامل حوالى ١٥٠ كيلومترا.

وكانت الخطة تتضمن كذلك إنشاء مجتمعات سياحية شمال البحيرة وتأخر تنفيذ ذلك لاعتراض الآثار حيث أوضحوا أن المنطقة تحتوى على آثار إنسان ما قبل التاريخ وتم بذل مجهودات كبيرة لتمويل وإرسال بعثات أثرية للتقييم ودراسة إمكانية نقل هذه الآثار وتجميعها في متحف متكامل بما يسمح باستغلال باقى المنطقة في التنمية السياحية وقد نجحنا في ذلك بعد مجهودات استمرت لمدة عام كامل وقد ساعدنى كثيرًا في ذلك صديقى الدكتور زاهى حواس أمين عام المجلس الأعلى للآثار وقتها ووزير الآثار فيما بعد.

وكان من المخطط أن يوضح حجر الأساس لهذا المشروع الكبير صباح يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ وتأجل الموعد قبلها بأيام بطلب من زهير جرانة وزير السياحة وقتها ليكون ٣٠ يناير بحضوره ووزير البيئة المهندس/ ماجد جورج وكبار المطورين السياحيين المصريين وعلى رأسهم منصور عامر وآخرون على أن تبدأ بشائر المشروع خلال عام، ولو كان هذا المشروع قد أخذ حيز التنفيذ لكان للسياحة في الفيوم شأن آخر الآن وبخاصة أنها تتمتع أيضًا بركائز أخرى للسياحة البيئية ومنها مناطق وادى الريان ووادى الحيتان ومدينة ماضى التى أعلنت كأحد مناطق التراث العالمى من قبل منظمة اليونسكو تحت مسمى منطقة وادى الحيتان والتى تضم هياكل عظمية متكاملة لمئات الحيتان يقال إن عمرها أكثر من ٤٠ مليون عام، والغريب أن هذه المنطقة يعرفها ويزورها الأجانب وأعضاء البعثات الدبلوماسية فى مصر أكثر من المصريين أنفسهم وهى منطقة متفردة فى جمالها وطبيعتها ولا يوجد شبيه لها فى أى مكان فى العالم.

كانت سنوات العمل محافظًا للفيوم ممتعة ومليئة بالإنجازات ووجدت فيها فرصة ذهبية لخدمة أبناء محافظة الفيوم الذين ارتبطت بهم فترة طويلة امتدت أكثر من عشرين عامًا بدأتها أستاذًا جامعيًا، ثم متقلدًا مناصب أكاديمية وإدارية عديدة في مسيرة قلما تتيسر بهذا الثراء لشخص آخر.

قُطبا الفيوم
صوفي أبو طالب ويوسف والى

لا يمكن لمن عمل في الفيوم لمدة عشرين عاما إلا أن يكون قد عرف الدكتور صوفي أبو طالب والدكتور يوسف والى، كلاهما على رأس عائلة كبيرة في الفيوم وبحكم المصاهرة والنسب مع العشرات من العائلات الأخرى فهما علي ارتباط كبير بالفيوم كلها. وبحكم المناصب السياسية والتنفيذية التى تقلدها كل منهما، فيمكن القول إنهما مثلا ظاهرة حقيقية في الفيوم وأنهما بالفعل قطبا الفيوم.

عرفت الدكتور صوفي أبو طالب عام ١٩٦٦ حيث كان وهو أستاذ في كلية الحقوق جامعة القاهرة يحاضرنا نحن طلاب الهندسة في موضوع الاشتراكية العربية، وكان ذلك أحد المقررات الإنسانية التى يتم تدريسها لطلاب الهندسة، وغالبًا ما كنا لا نأخذ هذه المقررات بالجدية الكافية، إلا أن ذلك لم يثنه عن استمرار إلقاء محاضراته بجدية شديدة وبانتظام وبحرص على إقناعنا بأهمية الموضوع دون جدوى.

عرفت بتعيين الدكور صوفي أبو طالب رئيسًا لجامعة القاهرة في عام ١٩٧٥ وذلك من الصحف التى كانت تصلنا علي فترات وذلك أثناء إقامتى في كندا للدراسة، ثم تولى بعد ذلك رئاسة مجلس الشعب في ١٩٧٨، واستمر حتى حادث اغتيال الرئيس السادات في أكتوبر ١٩٨١ حيث شغل بعدها منصب رئيس الجمهورية المؤقت واستمر عدة أيام حتى أدى الرئيس

مبارك اليمين الدستورية في ١٥ أكتوبر ١٩٨١، واستمر الدكتور صوفي أبوطالب في شغل منصب رئيس مجلس الشعب حتى ١٩٨٣.

قابلت الدكتور صوفي أبو طالب مرة أخرى حينما عملت عميدًا لكلية الهندسة في الفيوم في عام ١٩٩٢، ثم ترسخت علاقتى به عندما شغلت منصب نائب رئيس جامعة القاهرة لشئون فرع الفيوم في ٢٠٠٣ وكان مداومًا على زيارتى في مكتبي تحت قبة جامعة القاهرة ، وغالبًا ما كان يحضر ومعه العشرات من أبناء الفيوم ممن لهم طلبات تعيين وغيرها ويرجونه في التوسط لهم عندى، وأتذكر أنه كان يدخل مكتبى ويغلق الباب خلفه ويطلب منهم الانتظار في الخارج ثم يقول لي: إنهم يعرفون الآن أننى قمت بالواجب ونقلت إلى نائب رئيس جامعة القاهرة في الفيوم طلباتهم، ...أما أنت ـ موجهًا كلامه إلي ـ فتعمل الشيء الصح ودون مجاملة ، كان يقول ذلك بكل تواضع وهو الذى سبق وتولى رئاسة الجامعة ورئاسة مجلس الشعب ورئاسة الجمهورية.

كان للدكتور صوفي أبو طالب دور كبير في إنشاء جامعة الفيوم، حيث سعى منذ منتصف السبعينيات إلى إنشاء كليات تتبع جامعة القاهرة في الفيوم (التربية والخدمة الاجتماعية والزراعة)، ثم سعى بعد ذلك إلى إنشاء فرع لجامعة القاهرة في الفيوم عام ١٩٨٣ ليضم هذه الكليات وكليات أخرى جرى إنشاؤها بعد ذلك (الهندسة ودار العلوم والسياحة).

وفي عام ٢٠٠٥ عندما صدر القرار الجمهورى بإنشاء جامعة الفيوم كان الدكتور صوفي أبو طالب على رأس المدعوين في الحفل الذى أقيم بهذه المناسبة تقديرًا لدوره في إنشاء الجامعة، وألقى كلمة بهذه المناسبة، وأهديناه أول درع للجامعة الجديدة.

توفي الدكتور صوفي أبو طالب في ٢١ فبراير ٢٠٠٨ أثناء استعداده لركوب الطائرة عائدًا من كوالالمبور وحرصت على أن أقيم حفل تأبين يليق

به في جامعة الفيوم بعد ظهر يوم السبت ١٢ أبريل ٢٠٠٨ بحضور المئات من الوزراء والشخصيات العامة ورجال السياسة والقانون والذين حضروا من القاهرة خصيصا لحضور حفل التأبين، وكان هذا الحفل هو آخر أعمالى كرئيس لجامعة الفيوم، حيث كان من المقرر أن أؤدى اليمين الدستورية في اليوم التالى لأتولى منصب محافظ الفيوم.

الدكتور يوسف والى هو قطب الفيوم الثاني مع صوفي أبو طالب ، وهو من عائلة ميزار في أقصى غرب الفيوم، و كانت للأسرة ملكيات زراعية شاسعة وخضعت لقوانين تحديد الملكية عدة مرات، وتولى مناصب متعددة منها وزير الزراعة واستصلاح الأراضي في ١٩٨٤ ثم نائب رئيس الوزراء، وأمين عام الحزب الوطني حتى ٢٠٠٢، ثم ترك كل المناصب عام ٢٠٠٤ بعدما استمر في السلطة عشرين عامًا. وكان شقيقه المهندس علي والي قد سبقه وتولى منصب وزير البترول عام ١٩٧١.

عرفت الدكتور يوسف والى في منتصف التسعينيات، وكنت عميدًا للهندسة حين زار الجامعة في الفيوم وقت أن شغل منصب نائب رئيس مجلس الوزراء وتوطدت علاقتى معه بعد ذلك، حيث كلفنى (من خلال محافظ الفيوم وقتها اللواء محمد حسن طنطاوى) بإعداد استراتيجية متكاملة للتنمية في محافظة الفيوم وتم عرضها بتفاصيلها عام ١٩٩٧ في اجتماع عقد في مجلس الوزراء برئاسته ومجموعة من الوزراء وأصبحت هذه الاستراتيجية والتى تم طبعها فى مجلد من ٤٠٠ صفحة من أهم المرتكزات التى يعود إليها المحافظون الجدد للفيوم عقب توليهم المسئولية وقد رجعت إليها أنا شخصيًا حينما شغلت هذا المنصب بعد إتمام هذه الاستراتيجية بعشر سنوات كاملة.

الدكتور يوسف والى شخصية بسيطة جدًا وزاهد في كل شيء وحينما كان يزور الفيوم وقت أن كان اللواء محمد حسن طنطاوى محافظًا لها كان

يأتى في سيارة تويوتا خضراء صغيرة ويجلس بجوار السائق ولم تكن له حراسة من أى نوع وفي وقت رئاستى للجامعة تبرع لصالح المستشفى الجامعى بجميع مكافآته من مجلس الشعب والذى كان عضواً فيها لسنوات طويلة وكانت تأتينى هذه التبرعات أولاً بأول وأضيفها بنفسى لحساب تبرعات المستشفي وأرسل لها الايصالات الدالة على ذلك.

مع انتهاء آخر مهام الدكتور والى في ٢٠٠٤ استمر في الذهاب إلى مبنى صغير ملحق بوزارة الزراعة وحتى سنوات قريبة وقد زرته في هذا المكتب أكثر من مرة .

ومع أحداث ثورة ٢٥ يناير طالته عدة بلاغات وتم انتداب قاضى تحقيق مخصص لوزارة الزراعة تحديداً وانتهت تحقيقاته إلى حفظ أكثرها وانتهت الأخرى ضمن التسويات التى أجراها حسين سالم مع الحكومة (جزيرة البياضية).

ما زلت أزور الدكتور يوسف والى حتى الآن في منزله على نيل العجوزة وأقابله مع أخوته السفير أحمد والى الذى كان سفيرنا في الدنمارك والدكتور ماهر والى الذى كان يشغل منصب عميد كلية الزراعة جامعة الأزهر والدكتور سعد نصار محافظ الفيوم السابق ومحمد عبد اللطيف الذى كان هو أيضًا وما زال من قيادات العمل السياسى في الفيوم.

أداء اليمين الدستورية أمام الرئيس حسنى مبارك محافظًا للفيوم فى أبريل ٢٠٠٨

الرئيس حسنى مبارك فى افتتاح مصنع الكيماويات الوسيطة فى منطقة كوم أوشيم الصناعية بمحافظة الفيوم مايو ٢٠٠٨

السيدة سوزان مبارك فى أحد زياراتها لمحافظة الفيوم ٢٠٠٩

زيارة رئيس مجلس الوزراء الدكتور أحمد نظيف لمحافظة الفيوم فى سبتمبر ٢٠١٠
وفتح مصانع جديدة ومشروعات جامعية

الفصل التاسع

محافظ في قلب الأحداث

ثورة ٢٥ يناير

محافظ في قلب الأحداث
ثورة ٢٥ يناير

بدأت مهمتى محافظًا للفيوم في ١٤ أبريل ٢٠٠٨ بقرار من الرئيس حسنى مبارك، وقد كانت السنوات من أبريل عام ٢٠٠٨ وحتى نهاية عام ٢٠١٠ سنوات عمل وإنجاز حقيقى على أرض الفيوم، ومازلت حتى الآن أفتخر بهذه التجربة الثرية التى عشتها محافظًا لهذا البلد الجميل الذى عشقته وعشقت أهله ومازلت حتى الآن.

مع بداية عام ٢٠١١، كانت حادثة التفجير في كنيسة القديسين في الإسكندرية والتى راح ضحيتها عدد كبير من المصلين في بداية هذا العام، وكان من نتيجة هذا الحادث أن تمت عملية استنفار في جميع أجهزة الداخلية لحماية الكنائس والأديرة وخاصة أننا كنا على أعتاب احتفالات عيد الميلاد والتى تتم مساء ٦ يناير في الكاتدرائية المرقسية في القاهرة وعواصم كل المحافظات ومنها الفيوم، حيث جرت العادة حضور المحافظ للاحتفالات في دير الأنبا إبرام في منطقة العزب جنوب مدينة الفيوم.

وأتذكر أن مدير الأمن في الفيوم قد أخبرنى بوجود ترتيبات أمنية شديدة حول الدير وأن العربات غير مسموح بها الاقتراب من المكان، وقد تجمعت كل القيادات الأمنية والشعبية قبل الصلاة بعدة ساعات في مقر سكنى وتحركنا سويًا إلى حيث مكان الاحتفال وسط ترتيبات أمنية لم تشهدها الفيوم من قبل، ومر الاحتفال على خير إلا أن هاجس القبض

على منفذى حادث الإسكندرية ظل هو الشغل الشاغل في مصر كلها في الفترة من وقوع الحادث في الأول من يناير وحتى الاحتفال بعيد الشرطة والذى تم في هذا العام يوم الأحد ٢٣ يناير، حيث أعلن وزير الداخلية حبيب العادلى في هذا الاحتفال الذى حضره الرئيس حسنى مبارك أنه قد تم تحديد منفذى الحادث وجاري القبض عليهم، ولم يقتنع الناس برواية وزير الداخلية حول الحادث وكيفية تنفيذة ومن قاموا بالتنفيذ.

في صباح يوم الإثنين ٢٤ يناير، قمت كما هو معتاد سنويًا بزيارة قيادات مديرية الأمن في الفيوم للتهنئة بعيد الشرطة، وكان ذلك في معسكرات الأمن الواقعة جنوب مدينة الفيوم، وقد جرى الحديث وقتها عن اللغط القائم حول رواية الداخلية عن حادث تفجير كنيسة الإسكندرية وعدم اقتناع الرأى العام بها، وجرى الاتفاق حول ضرورة الالتفاف حول القيادة السياسية وأن البلد تتعرض لمؤامرات تستدعى الحيطة والحذر، ودعم الداخلية في مجهوداتها، إلا أنه كان في الخلفية في هذا التوقيت أحداث مثل مقتل خالد سعيد في الإسكندرية، وموضوع عماد الكبير في إمبابة وما قيل عن اعترافات منسوبة إلى متهمين في حادث انفجار كنيسة الإسكندرية وكلها كانت تضع الداخلية في موضع الانتقاد بشكل عام.

يوم ٢٥ يناير وافق الثلاثاء وكان إجازة رسمية بمناسبة عيد الشرطة وكانت هناك دعوات للتظاهر في كل أنحاء البلاد احتجاجًا على تجاوزات الشرطة إلا أن ذلك لم يمنعنى من جولة كنت قد خططت لها لزيارة عدة مناطق في الفيوم تنتشر بطول المحافظة وعرضها، حيث كانت تتم فيها مشروعات مهمة لمياه الشرب والصرف الصحى وكنت أتابعها بشكل منتظم لدفع معدلات التنفيذ، وقد قطعت في هذا اليوم أكثر من ٢٠٠ كيلو متر في هذه الجولة وزرت مركز يوسف الصديق وهو من أكثر الأماكن تشددًا في الفيوم والمشهور عنها مناهضتها للسلطة والتى كانت تختار دائمًا نواب مجلس الشعب فيها من تيار الإخوان المسلمين، ولم ألحظ في الزيارة أى

تجمعات تمثل صدى لدعوات التظاهر في هذا اليوم، وقد قمت في هذه الجولة بالرغم من تحذير القيادات الأمنية وطلبهم تأجيلها.

بدأت الجولة في التاسعة صباحًا واستمرت حتى السابعة مساءً ولم أكن أتابع ما يجرى في باقى المحافظات أو في القاهرة طوال اليوم وكان ظنى أنه ليس هناك ما يبرر ذلك طالما أننى لم أجد أى مظاهر استجابة في الفيوم وقد رأيت ذلك بنفسى في جميع أنحاء المحافظة.

عدت إلى مقر سكنى في الثامنة مساءً وفوجئت بزوجتى تخبرنى بوجود مظاهرات في ميدان التحرير، وظللت أتابع هذه المظاهرات تليفزيونيًا حتى قرب منتصف الليل، حيث في هذا الوقت تقريبًا تصدت قوات الشرطة للمتظاهرين وأجبرتهم على إخلاء الميدان باستخدام وسائل سلمية ومنها خراطيم المياه، وقد انتظرت مستيقظًا حتى رأيت بنفسى أن الميدان أصبح خاليًا تمامًا من المتظاهرين، وذهبت للنوم حوالى الواحدة صباحًا بعد يوم طويل جدًا ومليء بالأحداث ولكنها كلها لحسن الحظ أحداث خارج نطاق محافظة الفيوم.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالى الأربعاء ٢٦ يناير تلقيت اتصالاً تليفونيًا من السيد علاء مبارك، نجل الرئيس، وكان الغرض من المكالمة هو التشاور بشأن حفل زفاف جماعى كان يجرى الترتيب له في الفيوم من قبل مؤسسة "محمد علاء مبارك" وعلى نفقتها بعدما تم اختيار حوالى ٦٠ عروسة و٦٠ عريس وشراء جميع مستلزمات التأثيث اللازمة بمعرفة المؤسسة وكان موعد الحفل قد تقرر من قبل ليكون مساء الخميس ٢٧ يناير، وأتذكر أن علاء مبارك وزوجته هيدى كانا قد زارانى في الفيوم مرتين قبلها لعمل كل الترتيبات لتوفير الأثاث ثم لحفل الزفاف.

سألنى علاء مبارك عن الأحوال في الفيوم وهل تستمر خطتنا للحفل المقرر له اليوم التالى (الخميس ٢٧يناير) أم ننتظر حتى تستقر الأمور وكان

رأيى الذى أوضحته أن الأمور في الفيوم عادية جدًا والقرار يرجع له في التأجيل من عدمه، وقد أخبرنى أنه تشاور مع (الوالد) يقصد طبعًا الرئيس حسنى مبارك وأن رأيه هو التأجيل لعدة أيام، وطبعًا لم يجد هذا الاحتفال طريقه إلى النور فيما بعد، فقد تتابعت الأحداث بعد ذلك وظلت القاعة التى تم تجهيزها بالكامل لهذا الاحتفال بكل ترتيباتها مغلقة لفترة ولم أتابع الأمر بعد ذلك حيث كانت الأمور تسير بشكل متسارع نحو تغييرات كبرى على وشك الحدوث.

أتذكر أن من ضمن الترتيبات أن الحفل سينقل على الهواء مباشرة على القنوات التليفزيونية مثلما حدث مع حفل سابق لنفس المؤسسة، وكان في مركز المؤتمرات في مدينة نصر وقام بتقديم هذا الحفل وقتها الإعلامى محمود سعد، إلا أنه في الحفل الذى كان يجرى الترتيب له في الفيوم أعتقد أنه كان من المقرر أن يتولاه الإعلامى عمرو الليثى الذى حضر مع علاء مبارك وزوجته هايدى في آخر زيارة لهما ترتيبًا للحفل.

تلقيت في نفس اليوم أيضًا اتصالاً من اللواء/ عبد السلام محجوب وزير التنمية المحلية في هذا الوقت يبلغنى فيه بتأجيل اجتماع مجلس المحافظين الذى كان مقررًا له أن ينعقد ظهر يوم الخميس ٢٧ يناير في محافظة قنا وكان يؤكد على أنه تأجل لعدة أيام وليس إلغاء للاجتماع.

عرفت أيضًا في صباح الأربعاء أن أحداث مساء الثلاثاء والتى لم تسفر عن أى ضحايا في القاهرة قد نتج عنها وفاة (٤) مواطنين في السويس الأمر الذى ألقى بظلاله على الأحداث التى توالت بعد ذلك.

بدأت صباح يوم الخميس ٢٧ يناير دعوات للتظاهر في اليوم التالى، الجمعة ٢٨ يناير، وكان المناخ العام غير مريح وغير مطمئن و(مكهرب) كما يقولون ولاشك أن قضية الوفيات التى حدثت في السويس قد تم استثمارها جيدًا في الشحن ضد قوات أمن وزارة الداخلية وضد الوزير

حبيب العادلى شخصيًا، ومع منتصف اليوم بات معروفًا أن غدًا الجمعة ٢٨ يناير لن يكون يومًا عاديًا.

لم تطاوعنى نفسى أن أعود إلى القاهرة مساء الخميس لرؤية أسرتى وهو ما كان معتادًا كل أسبوعين وطلبت من زوجتى، التي كانت قد عادت إلى القاهرة صباح الأربعاء ٢٦ يناير، وابنتى الصغيرة أن يحضرا إلى الفيوم على أن نقضى مساء الخميس ويوم الجمعة في فيلا الأميرة فوزية على بحيرة قارون وهى مخصصة لمحافظ الفيوم ويديرها حارس وطباخ من المحافظة وكنت أزورها مرة كل شهرين أو ثلاثة.

كان مساء يوم الخميس خانقًا، القنوات في التليفزيون الصغير في الاستراحة كانت تذيع أخبارًا متضاربة، القنوات الرسمية تتحدث عن هدوء واستقرار وشموخ (كما صرح صفوت الشريف وقتها) والقنوات المصرية الخاصة بشكل عام وقناة الجزيرة بشكل خاص تشير إلى أحداث كبرى ستجرى في اليوم التالى (الجمعة ٢٨ يناير).

لم أكن مواطنًا عاديًا، إنما كنت محافظًا مسئولاً عن ٣ مليون مواطن هم كل أبناء الفيوم، لم يكن هناك أى تواصل رسمى مع المحافظين من مجلس الوزراء لنعرف أى ترتيبات يجب اتخاذها من قبلنا في هذا الوضع المتأزم الذى نراه قابلاً للتفاقم فيما بعد، لم أنم الليل يومها، ويوم الجمعة وبعد صلاة الفجر قررت أن أعود إلى مكتبى في المحافظة وطلبت من زوجتى وابنتى الاستعداد لنغادر الاستراحة على أن أذهب أنا إلى مكتبى وتعود زوجتى وابنتى إلى القاهرة.

كنت في مكتبى حوالى الساعة السابعة صباح يوم الجمعة ٢٨ يناير، لم أجد هناك سوى عمال النظافة وموظف المأمورية الليلية في مكتبى ومسئول غرفة العمليات الذى يتلقى إخطارات الطوارئ عن أى أحداث تقع في جميع أنحاء المحافظة.

تابعت الموقف تليفونيًا مع بعض المسئولين في المحافظة حتى العاشرة وعندها أخطرتنى رئاسة الجمهورية أن الرئيس حسنى مبارك سيتصل بى بعد قليل. وصلنى صوت الرئيس حسنى مبارك وسألنى عن الأحوال في الفيوم وأخطرت سيادته أن الأمور هادئة إلا أن المناخ العام المشاع في مصر كلها يشير إلى شيء آخر، قال لى بالحرف الواحد: خلى بالك من الناس يا دكتور جلال، وقال إنه سيواصل الاتصال بى بعد ذلك للاطمئنان.

شعرت بمسئولية كبيرة بعد اتصال رئيس الجمهورية، وشرعت أطمئن من مدير الأمن ومن مسئول الأمن الوطنى (وقتها أمن الدولة) عن مدى استقرار الأمور، استعدادًا لأى اتصال آخر من السيد الرئيس، ولأننا كنا يوم الجمعة، فقد كانت عادتى أن أذهب إلى مساجد مختلفة للصلاة كل جمعة دون ترتيب مسبق، حيث يجدنى المصلون بينهم دون إخطار، وفي هذا اليوم كان القرار أن تكون الصلاة في أقرب مسجد وعلى بعد ١٠٠ متر فقط من مبنى المحافظة، وقد لاحظت أن الجو العام في المسجد غير طبيعى والناس كلها تتصرف وكأن شيئًا ما واقع لا محالة، ولم يرحب بى خطيب المسجد في آخر كلمته كما كان كل شيوخ المساجد يفعلون من قبل ولاحظت جفاء لا تخطئه العين، وعدت مهمومًا إلى مكتبى بعد الصلاة مباشرة.

الفيوم من المحافظات التى كان للإخوان تواجد مؤثر فيها، وكان نصف نوابها في مجلس الشعب من الإخوان، وقد كان جزء كبير من شباب الفيوم وخاصة في الجامعة ذا توجهات دينية وإخوانية واضحة، وعندما كنت رئيسًا لجامعة الفيوم كثيرًا ما خرجت مظاهرات لهؤلاء الشباب استجابة لتنظيمات جماعة الإخوان وبخاصة في أعقاب أمور تخص حركة حماس الإخوانية في قطاع غزة مثلما حدث عند مقتل الشيخ أحمد ياسين أو عند حدوث غيرها من أحداث الاغتيال التى نفذتها إسرائيل.

بعد صلاة الجمعة بدأت المظاهرات في التجمع في القاهرة، بدأت من أماكن متفرقة، أولاً ثم في ميدان التحرير ومع عصر ذلك اليوم، امتلأ الميدان عن آخره.

وكما أدرك الكثيرون فيما بعد أن البداية كانت مظاهرات للشباب بدعوات من شخصيات مثل البرادعى وباقى قيادات الجبهة الوطنية للتغيير وقادة حركة ٦ أبريل وكذلك ممن ثبت أنهم تدربوا في صربيا من النشطاء وغيرهم إلا أن شباب الإخوان قد ركبوا هذه المظاهرات بعد عصر ذلك اليوم.

مع تزايد أعداد المتظاهرين في القاهرة، كان هناك تزايد مشابه في أعداد المتظاهرين في الفيوم وخاصة في ميدان قارون وكانت نسبة شباب الإخوان هى الغالبة من البداية نظرًا للطبيعة المميزة لمحافظة الفيوم من حيث التوجه الدينى/ الإخوانى لطبقة عريضة من شبابها في ذلك الوقت.

كان نزول شباب الإخوان لافتًا للانتباه مع أن قيادات الإخوان أنفسهم كانوا قد أعلنوا عدم مشاركتهم، إلا أنهم قالوا أنهم تركوا للشباب القرار من حيث المشاركة من عدمه.

مع نهاية يوم ٢٨ يناير كانت المظاهرات في الفيوم قد انتهت ولكنها لم تنته في القاهرة وخاصة في ميدان التحرير، حدثت الصدامات المعروفة أعلى كوبرى قصر النيل ـ حينما قامت الشرطة بتفريق المظاهرات بخراطيم المياة أولاً ـ ثم تطورت بعد ذلك وسقط بعض الضحايا وعرضت القنوات التليفزيونية وخاصة الجزيرة تحدى المتظاهرين لسيارات الشرطة ووقوفهم أمامها وعرضت كذلك عمليات الكر والفر في مداخل الميدان والشوارع الرئيسة المؤدية إليه.

كان يوم ٢٨ يناير يومًا فارقًا في التاريخ المصرى، مع نهاية الأحداث كان الكل ينتظر ماذا ستكون الخطوة التالية، من طرف السلطة، وقد كان أول

رد فعل لما حدث هو إعلان الحكومة استقالتها صباح يوم السبت ٢٩ يناير بعدما قال الرئيس في بيانه الذى أذاعه مساء يوم ٢٨ يناير عن إجراءات عديدة بينها أنه سيطلب من الحكومة أن تتقدم بالاستقالة، وتم بعد ذلك تكليف الفريق أحمد شفيق بتشكيل الحكومة الجديدة وتم تعيين السيد عمر سليمان نائبًا لرئيس الجمهورية.

ومن ضمن ما تقرر أيضًا إعادة تشكيل الأمانة العامة للحزب الوطنى وتعيين د/ حسام بدراوى أمينًا عامًا للحزب وأمينًا للجنة السياسات التى كان مسئولاً عنها السيد/ جمال مبارك مما يشير إلى توجه مؤداه إبعاد جمال مبارك عن لعب أى دور سياسى في المستقبل مزيلاً بذلك التخوف الذى كان قائمًا بشأن الدفع به خلفًا للرئيس فيما عرف بقضية التوريث.

اتصل بى الدكتور زكريا عزمى مساء السبت ٢٩ يناير حوالى التاسعة مساءً وتساءل عن وضع جهاز الشرطة في الفيوم بعد أحداث الجمعة وسأل هل عندنا قوات أمن مركزى يمكنها السيطرة على الأمور، أم أنه من المفضل إرسال عناصر من القوات المسلحة؟ وكانت إجابتى المباشرة أننا نحتاج عناصر تأمين من القوات المسلحة حيث لا توجد قوات أمن مركزى في الفيوم واتصل بعدها مباشرة اللواء حسن الروينى قائد المنطقة العسكرية المركزية وأخطرنى أن قوات من الصاعقة (الفرقة ٧٧٧) قد تحركت بالفعل من معسكراتها في طريقها إلى الفيوم وبالمتابعة من قبل المستشار العسكرى للمحافظة عرفت أنها سوف تصل فجر الأحد ٣٠ يناير؛ وهو ما حدث بالفعل.

تم عقد اجتماع برئاستى فجر الأحد ٣٠ يناير ضم مدير أمن الفيوم وقائد قوة تأمين الفيوم من قوات الصاعقة (الفرقة ٧٧٧) وتم الاتفاق على أماكن انتشار هذه القوات ومقر قيادتها ومواقع معداتها وانتهينا من ذلك الساعة السابعة صباحًا، وتمكنت بعدها من النوم لأول مرة من مساء

الخميس ٢٧ يناير وكان ذلك في مقر استراحة المحافظ وبتواجد قوات حراسة حول المبنى وانتشار البعض من أفرادها داخل المبنى وصولاً إلى أبواب غرفة النوم التى آويت إليها بعد أكثر من ٤٨ ساعة من العمل المتواصل في ظروف غاية في الغرابة.

استمرت مشاورات تشكيل الحكومة برئاسة الفريق أحمد شفيق حتى مساء الإثنين ٣١ يناير، وحلفت الحكومة اليمين صباح الثلاثاء الأول من فبراير، وفي مساء نفس اليوم وجّه الرئيس خطابًا عبر وسائل الإعلام إلى الجماهير وكان خطابًا مؤثرًا جدًا وأوضح فيه أنه لم يكن ينتوى الترشيح في الفترة القادمة، وهدأت الجماهير في الميادين بعد البيان وبدأت في الانسحاب من الميادين بشكل ملحوظ وكان الانطباع العام وقتها أن الأمور تشير إلى هدوء أكثر، وأن هناك خطوات في الطريق لإصلاح سياسى كبير.

لقد كان للإخوان المسلمين رأى آخر، حيث تم تدبير ما أطلق عليه فيما بعد موقعة الجمل، حيث تحول خروج بعض مؤيدى الرئيس مبارك في مظاهرات على الجمال والخيول من نزلة السمان إلى شارع جامعة الدول العربية وصولاً إلى التحرير إلى تشابك كبير بين شباب الميدان والإخوان من ناحية وآخرين ممن رأوا أن خطاب الرئيس في مساء اليوم السابق كان كافيًا لتهدأ الأمور، وتم تضخيم موضوع دخول الجمال والخيول إلى التحرير وتصويره على أنه يمثل ثورة مضادة ومحاولة لتصفية من هم في الميدان واشتعلت الأمور مرة أخرى بتدبير إخوانى صريح.

كان رئيس الوزراء الجديد في يومه الأول في الوزارة حريص على تهدئة الأمور وبذل في ذلك مجهودًا كبيرًا، وقام بزيارة استوديوهات البرامج الحوارية المصرية كلها مساء يومى ٢ و ٣ مرتديًا نفس الزى في كل حواراته

وكان عبارة عن بلوفر أزرق اللون حيث كان ينتقل من استوديو إلى آخر، إلا أن محركى الأحداث اتخذوا ذلك مجالاً للسخرية وتصيدوا الهفوات في أقواله، بل إن البعض حمله مسئولية موقعة الجمل التى حدثت يوم ٢ فبراير.

اعتبارًا من الخميس ٣ فبراير وهو اليوم التالى لموقعة الجمل استمرت المظاهرات وارتفعت المطالب وكانت مظاهرات الجمعة الموافق ٤ فبراير هى الأعنف منذ ٢٥ يناير وبدأ يتردد هتاف "الشعب يريد إسقاط النظام" لأول مرة وظهرت قوائم لمسئولين على لافتات كبيرة في ميدان التحرير يرى المتظاهرون الإطاحة بهم ومحاكمتهم بل وإعدامهم، وأتذكر أننى اتصلت بالدكتور على جمعة وكان مازال مفتيًا للجمهورية مستفسرًا حول جواز الإفتاء بعدم وجوب صلاة الجمعة في هذا اليوم طالما من المعروف أنه مع نهايتها ستبدأ أحداث لا يعرف إلا الله وحده ما ممكن أن تنتهى إليه من فوضى.

تحولت باقى الأيام من السبت ٥ فبراير وحتى الخميس ١٠ فبراير إلى كوابيس لأى مسئول مصرى في هذا الوقت، المحافظون تحديدًا تحملوا عبئًا كبيرًا، المظاهرات مستمرة بشكل يومى، الهجوم على جميع مؤسسات الدولة هو الأساس في كل الشعارات المرفوعة، " الجيش والشعب إيد واحدة" كان شعارًا يستخدم لتحييد الجيش حتى إذا ما وصل المتظاهرون إلى أماكنهم كان الهجوم على الجميع بما فيها الجيش.

المظاهرات في الفيوم كانت نشاطًا يوميًا، الشباب من الإخوان كان البعض منهم يذهب إلى القاهرة صباحًا ويعود مساءً، والبعض يبقى ليقود مظاهرات الفيوم ومعظمها في ميدان قارون، تنظيم محكم كان موجودًا، سيارات تتحرك يوميًا بخطوط سير لتجميع الشباب للانطلاق إلى القاهرة وكانت الوقفات الاحتجاجية أيضًا تقليدًا متبعًا. والمكان المفضل للوقفات

الاحتجاجية كان أمام مبنى المحافظة حيث المحافظ يتابع ويراقب، أصبحت عندى قدرة على توقع قرب وصول أى مظاهرة إلى مبنى المحافظة من درجات الهتاف التى تبدأ بالهمهمات عندما تكون المظاهرة على بعد مئات الأمتار ثم تبدأ الأصوات تعلو وتعلو حتى تصل إلى أسوار المبنى.

حدثت تجاوزات من المتظاهرين في كثير من المحافظات، لم تحدث تجاوزات فجة في الفيوم، عرفت أنهم في محافظات أخرى قد أحرقوا مبانى المحافظة أو استراحة المحافظ كما حدث في بورسعيد والسويس والإسكندرية، في بعض الحالات جرى اقتحام هذه الاستراحات وإخراج محتويات المحافظ الشخصية إلى الأرصفة المقابلة وأجروا عليها مزادات للبيع على سبيل السخرية والاستهزاء.

من ضمن الأحداث المهمة فيما يخصنى ويخص الفيوم ما حدث في اقتحام سجن (دمو) شديد الحراسة والواقع في منطقة صحراوية شرق مدينة الفيوم ويبعد عنها حوالى ٢٥ كيلومترا، كان ذلك يوم السبت ٢٩ يناير، حيث تلقيت مكالمة من رقم لا أعرفه لمن قال لى أنه قائد السجن وأبلغنى أنه لا داعى لأى قلق من اقتحام السجن حيث إنه محصن تمامًا وعلى الأسوار أبراج للمراقبة بها قناصون من الشرطة وأنه عنده تعليمات بالتعامل الحاسم مع أى محاولات لاقتحام السجن، كانت مكالماته تأتينى وسط مكالمات أخرى عديدة لا يفصل بين الواحدة والأخرى عدة دقائق، والأمور مضطربة وعدد القضايا المطلوب التعامل معها بشكل فورى كبير جدًا وكنت مع انتهاء كل مكالمة من قائد السجن أجد مكالمة أخرى تشغلنى عما قاله وعن تطميناته المتعددة عن موضوع لم يكن يتصدر اهتمامى في هذا الوقت، حيث السجون كلها من مسئولية وزارة الداخلية ولا دخل للمحافظ بها.

في اتصالات متوالية أخرى أخبرنى اللواء مدير السجن أن هناك عربات دفع رباعى عديدة تحيط بأسوار السجن وعليها مسلحون بأسلحة آلية وأن هناك إطلاق نار كثيف ولكن الأمر تحت السيطرة ولا داعى أن أقلق، كانت آخر مكالمات مدير السجن عصر ذلك اليوم.

في مساء نفس اليوم ٢٩ يناير اتصل بى وكيل وزارة التربية والتعليم ليخطرنى أن مئات المسلحين قد اقتحموا مركز تدريب المدرسين الواقع ما بين السجن ومدينة الفيوم وأنهم نقلوا بعض الأجهزة على سياراتهم وانطلقوا في اتجاه المدينة وأن هناك إطلاق نار كثيف في الهواء من أسلحة آلية من قبل هؤلاء المسلحين وقدر عددهم بحوالى ١٠٠٠ مسلح.

تذكرت اللواء مدير السجن ومكالماته المتعددة ولكن رقمه كان قد تاه بين الأرقام الأخرى التى اتصلت بى في هذا اليوم، أجريت أكثر من مكالمة حتى توصلت إليه، وكان أول سؤال له عن اسمه؟ حيث لم يذكره من قبل أما السؤال الثانى فكان عما حدث؟ وأين قوات الحراسة التى طمأننى أنها موجودة وستتولى أمر هؤلاء المسلحين؟ أما السؤال الثالث فهو عن أحوال أفراد الحراسة وأحواله هو شخصيًا وهل أصابه أى مكروه؟

عرفت من اللواء نجيب (وهذا اسمه) أن إطلاق النار من قبل المسلحين كان كثيفًا وأن عددهم كان كبيرًا جدًا وأنهم اقتحموا السجن وأخرجوا السجناء ومعظمهم من عتاة المجرمين؛ ولذلك كان قد جرى إعداد هذا السجن ليكون شديد الحراسة وأنه قد جرى إمداد المسجونين بالأسلحة وأنهم انطلقوا منذ قليل في اتجاه المدينة وأنه هو شخصيًا مصاب وفي طريقه للمستشفى في القاهرة للعلاج وأنه الآن في منتصف الطريق بين الفيوم والقاهرة.

وصل هؤلاء المسلحون إلى مدينة الفيوم بعد ذلك وطافوا في شوارعها يطلقون النار في الهواء وأصابوا المواطنين بالرعب، وكان من

الممكن أن تحدث مجازر كبيرة ولا أعرف حتى الآن كيف أن ذلك لم يحدث بالفعل.

في مساء هذا اليوم ٢٩ يناير أذاعت قناة الجزيرة أن اللواء البطران مدير سجن الفيوم قد قتل في أحداث اقتحام سجن دمو بالفيوم، ولأننى أعرف أن مدير السجن لم يكن اللواء البطران، وأن مدير السجن الفعلى مازال حيًا يرزق بدليل مكالمتى معه منذ ساعة تقريبًا ولأن الخبر جرى تناقله على كل القنوات المصرية الخاصة نقلاً عن قناة الجزيرة فقد اتصلت بأحد القنوات وأظنها كانت قناة الحياة ونفيت أن يكون اللواء البطران قد قتل في الفيوم أو أنه يتولى أصلاً منصب مدير سجن الفيوم، وقد فوجئت بعد ذلك بهجوم عنيف على قناة الجزيرة وقنوات أخرى على إنكارى مقتل البطران في الفيوم أو أنه كان مديرًا للسجن.

بعد ساعات قليلة لم تتعد ٦ ساعات من اقتحام سجن الفيوم وإخراج مئات المسجونين شديدى الخطورة تحدثت قناة الجزيرة مع بعض المسجونين الذين تم إخراجهم وهم في طريقهم إلى سيناء ثم بعد وصولهم إلى غزة وأظنهم كانوا من مسجونى حركة حماس في مصر وأحدهم كان اسمه سامى .... وهو الذى كانت الجزيرة تتابع انتقاله السريع من الفيوم إلى القاهرة إلى القناة إلى سيناء عبر الأنفاق إلى قطاع غزة والتى وصلها في وقت قياسى لا يشير إلى أنه كان سجينًا تائها في الصحراء وإنما إلى وجود ترتيب محكم للاقتحام وإخراج مساجين بعينهم ونقلهم سريعًا خارج البلاد. أما باقى المساجين الذين خرجوا في هذا الاقتحام فكانوا من المجرمين شديدى الخطورة الذين أشاعوا الذعر والفوضى في الفيوم.

توقعت في صباح اليوم التالى أن يكون السجن المقتحم مفتوحًا ولا بد أن هناك قتلى قد وقعوا في الهجوم و تساءلت عن باقى المساجين الذين لم يهربوا، ولم أنتظر كثيرًا حيث أرسلت إلى هناك مسئولين من المحافظة

حيث كانت الشرطة قد انهارت تماماً وأرسلت معهم مجموعة من سيارات الإسعاف، وجرى حصر ٤ أو٥ من القتلى ومعاينتهم من قبل السلطات المختصة ونقلهم في عربات الإسعاف إلى مشرحة المستشفى العام لحين حضور أى من ذويهم، وأتذكر أيضًا أن السجن الذى كان يضم أكثر ألف مسجون قبل اقتحامه لم يكن فيه عند وصول مسئولينا إليه سوى عشرات المساجين بعضهم ممن أقعدتهم الإصابة عن الهرب والبعض الآخر ممن قاربت فترات سجنهم على الانتهاء وفضلوا البقاء لاستكمالها.

المهم أن إشاعة مقتل اللواء البطران في الفيوم بشكل يوحى أن من قتله عناصر من النظام ثبت عدم صحته على الإطلاق، حيث إن الحقيقة التى تكشفت بعد ذلك تشير إلى أن البطران لم يكن فعلاً مديراً لسجن الفيوم ولم يقتل في الفيوم، وإنما حقيقة الأمر أنه كان يشغل موقع رئيس مباحث السجون على مستوى الجمهورية وأنه زار سجن الفيوم بهذه الصفة مساء اليوم السابق لليوم الذى تم فيه الاقتحام وذلك ضمن مسئوليات وظيفته وبعدما اطمئن على تمام استعدادات السجن لمواجهة أي اقتحامات متوقعة، قام بمغادرة الفيوم متأخراً ووصل إلى منزله بعد منتصف الليل ولم يكن يريد إزعاج أسرته وقام بتغيير ملابسه وغادر مرة أخرى فجراً متوجهًا في مهمة جديدة إلى سجن القطة في القليوبية وهناك قتل في تبادل لإطلاق النار بين قوات الشرطة وبعض المسجونين الذين كانوا في حالة هياج من الأحداث التى كانت تجرى في السجون وحولها في هذه الأوقات.

ومن الأمور الغريبة التى حدثت بعد ذلك أنه قد تم تقديم طلبات ممن أطلقوا على أنفسهم شباب الثورة لإطلاق أسماء القتلى من المسجونين على الشوارع والميادين في الفيوم تخليداً لذكراهم وهم من عتاة المجرمين وقتلوا في أحداث تم فيها تبادل إطلاق النار أثناء محاولاتهم الهرب من السجن.

من التصرفات التى تمت في الفترة ما بين ٢٥ يناير حتى ١١ فبراير وما بعدها، وكان الإخوان القوة المحركة لها، أعمال الحرق والتخريب للمنشئات العامة ومنها أقسام الشرطة ومجمع المحاكم ومقرات أمن الدولة وإدارات المرور الرئيسة، ومنها أيضًا وهو ما حدث بعد ١١ فبراير تحديدًا حيث بدأ بعض قيادات الإخوان في التواجد في المصالح الحكومية وعلى رأسها مجالس المدن وجلسوا على مكاتب المسئولين الرسميين أو على مكاتب مجاورة وطلبوا الاطلاع على كل المستندات التى يتم التعامل معها وكأنهم سلطة موازية لسلطة الدولة، وقد حدث وأتت زعامات منهم إلى مبنى المحافظة محاولين تكرار هذه التجربة على مستوى المحافظة وبالفعل اقتحموا مبنى المحافظة ودمروا واجهته الزجاجية وأشاعوا فيه الفوضى، ورفضت تمامًا وجودهم أو مجرد التفاهم معهم وساعدتنى قوة تأمين المحافظة من رجال القوات المسلحة على إخراجهم، بل وعدم عودتهم.

أتذكر أيضًا أنهم حاصروا مبنى مديرية الإسكان في وسط الفيوم وصبوا حوله عشرات اللترات من البنزين وهددوا بحرقه بمن فيه إذا لم تتم الاستجابة لطلب غريب وهو استرجاع مصاريف سبق أن دفعت لتشطيب شقق الإسكان الاجتماعى بمعرفة مديرية الإسكان بمعدل ٢٠٠٠ جنيه لكل شقة بدلاً من ٦٠٠٠ جنيه كان يطلبها المقاولون منهم ونجحنا في تخفيضها إلى ٢٠٠٠ جنيه فقط وقد كانت مديرية الإسكان بالفعل قد أنفقت هذه المصاريف على تشطيب هذه الوحدات .

ولأن حياة العاملين في الإسكان كانت في خطر فقد طلبنى مدير المديرية تليفونيًا وهم على وشك إشعال النار في المبنى بمن فيه من مهندسين ولم يتوقفوا إلا بعد وصول خطاب معتمد منى بتوقيع حي ومختوم بخاتم الجمهورية إلى مدير الإسكان أفيد فيه بموافقتى على استرجاعهم لهذه المصروفات. وتحملت الصناديق الخاصة في المحافظة

يومها حوالى ٥ مليون جنيه تمثل القيمة المطلوبة لعدد ٢٥٠٠ شقة وبقى عجز قدره ١٠٠ ألف جنيه دفعتهم من مالى الخاص لإنقاذ أرواح مهندسى الإسكان وقتها.

البلاغات الكيدية كانت أحد سمات المرحلة من أول فبراير وما بعدها، ومثلما كانت هناك بلاغات تخص كبار المسئولين في الدولة بمن فيهم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء وغيرهم كانت هناك أيضًا بلاغات متعددة في حق المحافظين بلا استثناء وأعرف كثيرا منهم تم استدعاؤهم بمعرفة رؤساء النيابات في محافظاتهم وسؤالهم في وجود محاميهم، ويعود بعدها المحافظ المشكو في حقه لمزاولة عمله وقد اهتزت صورته أمام أهل المحافظة وأمام مرؤسيه، إلا أنه مطالب بالاستمرار في العمل والتأكد من توفر سبل الحياة للمواطنين دون دعم من القاهرة ودون إمكانيات وكان من وظائفهم أيضًا توفر أماكن التظاهر ضدهم من هذه الجماهير الغاضبة.

أتذكر أيضًا وقتها، أن كل النقابات الفرعية للمحامين في المحافظات تكونت فيها لجان يطلق عليها لجان الحريات انخرط فيها المحامون ذوو الاتجاهات الإخوانية، وكالوا لكل المسئولين الاتهامات وقد رأيت شكاوى مقدمة ضدى شخصيًا لدى المحامى العام لنيابات الفيوم مكتوبة وكأن من كتبها قام بذلك وهو يهبط سلالم النيابة أو وهو واقف على قارعة الطريق، وتحتوى على اتهامات مرسلة وبخط رديء وفي أمور مشوشة والاتهامات مضخمة وملفقة وقد حفظت كلها دون أي تحقيق.

توالت الأحداث بعد المظاهرات العارمة يوم الجمعة ٤ فبراير والتى تصاعدت فيها المطالب بشكل ملحوظ وأصبح الهتاف الرئيسى فيها هو "الشعب يريد إسقاط النظام"، وألقى الرئيس حسنى مبارك بيانًا آخر مساء العاشر من فبراير مؤكدًا فيه على ما سبق وأعلنه في بيانه السابق

بتاريخ ١ فبراير إلا أن الأمور كانت قد خرجت عن السيطرة ولم يكن ما يعلنه الرئيس يلبى ما وصل إليه المتظاهرون وعلى رأسهم الإخوان من طموحات وأخصها إسقاط النظام.

طوال يوم الجمعة ١١ فبراير كانت الجماهير تنتظر قرارًا مهما سيجرى إعلانه مساء اليوم نفسه، في المساء ظهر اللواء عمر سليمان معلنًا قرار تخلى الرئيس حسنى مبارك عن السلطة وتكليف القوات المسلحة بإدارة شئون البلاد.

مساء ذلك اليوم انطلقت الجماهير في الفيوم كما في مصر كلها تحتفل في الشوارع والميادين بانتصارها وإجبار الرئيس مبارك على التخلى عن السلطة، تجمعت الجماهير في الفيوم في ميدان قارون كالعادة وكانت هناك تجمعات أخرى واحد منها كان أمام مبنى المحافظة وأنا داخله، قامت الجماهير بتحطيم صور الرئيس المثبته على المبانى الحكومية المجاورة لمبنى المحافظة وجرت احتفالات في الشوارع ومحاولات لاقتحام مبنى المحافظة ولكنها لم تتكلل بالنجاح لوجود قوات من رجال القوات المسلحة. شعرت في هذا الوقت بالخطر الحقيقى على حياتى وحياة من كانوا في المحافظة من المسئولين، لم أغادر مبنى المحافظة في تلك الليلة إلا مع فجر اليوم التالى، حيث كان هناك تهديد حقيقي من تهور محتمل من آلاف المحيطين بمبنى المحافظة من شباب الإخوان وغيرهم.

قبل مغادرة مكتبى في تلك الليلة، وبسبب ما حدث أمام مبنى المحافظة من تحطيم صور الرئيس مبارك، قمت بإنزال صور رئيس الجمهورية المثبتة على جدران المحافظة من الداخل بما فيها مكتبى حيث لم يكن معروفًا وقتها ما هو المتوقع حدوثه غدًا من اقتحام محتمل لمبنى المحافظة قد تكون صور الرئيس المتناثرة في طرقاته وفي مكتبى سببًا في غضب أشد من الجماهير.

إزالة صور الرئيس لم يكن أمرًا سهلاً ، كان منذ قليل رئيسًا للجمهورية وكان كذلك منذ ثلاثين عامًا، وجدته رئيسًا عندما عدت للاستقرار في مصر عام ١٩٩٠ ولمدة ٢٠ عامًا بعدها شغلت فيها مواقع رسمية عديدة كانت خلالها صورته مثبتة في كل المكاتب التى شغلتها، القرارات التى توليت بموجبها هذه المناصب كان قد أصدرها الرئيس مبارك شخصيًا أو رئيس مجلس وزرائه، وآخرها قرار تعيينى محافظًا للفيوم، وقد وقفت أمامه في مناسبات متعددة شارحًا لمشروعات كبرى جرى افتتاحها في زياراته أكثر من مرة للفيوم أثناء عملى كمحافظ وكانت هذه الزيارات قد تكررت بالرغم من أنه كان قد توقف عن زيارة الفيوم قبلها لسنوات عديدة، وعاد لزيارتها عندما شهد حراكًا ايجابيًا في اتجاه خطط تنمية حقيقية كان يجرى تنفيذها في الفيوم بعد وقت طويل من الإهمال.

لم يكن الأمر يقتصر على زيارات الرئيس فقط، زارنى في الفيوم كل أفراد أسرة الرئيس، السيدة سوزان مبارك أكثر من ثلاث مرات، ونجلاه علاء وجمال كانت لهما زيارات أيضًا في مناسبات مختلفة.

لكل هذه الأسباب كانت عملية إنزال صور الرئيس من الأمور غير السهلة في ذلك الوقت وقد استقر الرأى على وضع آيات قرآنية مناسبة مكانها ونفس الشيء تكرر عند عودتى لاستراحة المحافظ، حيث إن بها مكتبا رسميا للمحافظ يمارس منه العمل أحيانًا وجرى إنزال صور الرئيس منها أيضًا.

ذهبت إلى المحافظة صباح الجمعة ١١ فبراير في ظل رئيس للجمهورية هو من أقسمت أمامه اليمين الدستورية محافظًا وغادرت مبنى المحافظة قرب فجر يوم السبت ١٢ فبراير وقد خرج هذا الرئيس من السلطة وأصبح المجلس الأعلى للقوات المسلحة هو من يتولى مقاليد الأمور. في طريق عودتى وكانت الشوارع قد هدأت وعاد المحتفلون إلى بيوتهم بعد

النجاح في إجبار الرئيس على التنازل عن السلطة. كانت اللجان الشعبية منتشرة في الشوارع، وكانت قد بدأت كظاهرة مع تفكك الشرطة بعد ٢٨ يناير واستمرت حتى هذا الوقت وبعده، ولأول مرة يتجرأ مجموعة من الصبية على إيقاف سيارة المحافظ ضمن سيارات قليلة أخرى كانت تسير فجرًا في هذا اليوم للتحقق من شخصية مستقليها لتطبيق تعليمات صدرت لهم من قياداتهم الإخوانية التى ظنت أن الأمور قد دانت لهم ولن ينازعهم أحد في السلطة بعد اليوم.

بعد ساعات نوم قليلة ومتقطعة عدت إلى مكتبى لأبدأ يومًا مختلفًا تمامًا عما سبقه، المشهد العام تغير تمامًا، قنوات التليفزيون تحولت في اتجاه آخر وكذلك كانت الصحف، العناوين الرئيسية تتحدث عن سقوط الرئيس وكيف أن مصر ولدت من جديد وتحدث مُعدّو هذه البرامج عن المعانى الجديدة لما حدث وأن سنوات القهر والظلم قد ولت وأظهروا جميعًا أنهم كانوا ممن عارضوا النظام وتصرفاته مع أنهم كانوا منذ أيام فقط يتحدثون عن حسناته وأفضاله وكنت أقول سبحان مغير الأحوال وكيف يتعايش هؤلاء مع أنفسهم بعد اليوم.

الفترة من ١٢ فبراير وحتى ١٤ أبريل كانت فترة مليئة بالأحداث، مظاهرات كل يوم، مطالب كل يوم، مفاجآت كل يوم، لم يتحدث معنا كمحافظين أى مسئول في القاهرة لم ندع لأية اجتماعات تنسيقية مع أية جهة مسئولة في الدولة، جميع المحافظين قاموا بتسيير أمورهم بحسب الظروف في كل محافظة، كان الهاجس الأكبر هو التأكد من توافر متطلبات المعيشة للمواطنين الذين كانوا في حالة استنفار دائم يتمثل في الوقفات الاحتجاجية والمظاهرات والمطالب العديدة والغريبة في نفس الوقت. الكل يطلب فرصًا للعمل وفورًا أو يطلب مساعدات مالية عاجلة أو يريد العلاج وبعضهم يطلب تغيير اسم قريته أو تحويلها من عزبة إلى قرية

أو يطلب نصيبه من مبلغ السبعين مليار جنيه التى قالت صحيفة الجارديان وقتها وتبعتها وسائل إعلام محلية أنها تمثل ثروة مبارك التى هربها إلى خارج مصر.

كانت هذه التصرفات انعكاس لتصرفات مماثلة على مستوى البلد ككل، مئات البلاغات ضد مبارك ووزرائه وأركان حكمه وقرارات متوالية بالقبض على بعض منهم على ذمة التحقيقات، قرارات بالمنع من السفر وتحويل إلى الكسب غير المشروع، كل المسئولين كانوا معرضين لمواقف من هذا النوع، كانت هناك دعوات لملاحقة مبارك في شرم الشيخ ودعوات لتسيير قوافل للسيارات تنقل الثوار ليقفوا أمام المستشفي الذى يعالج فيه هناك، مظاهرات في القاهرة فيما أطلق عليه مليونيات، كل أسبوع مليونية بشكل مختلف ومطالب متجددة بعزل هذا المسئول والقبض على هذا المسئول، ثاروا أيضًا ضد أحمد شفيق قبل أن تتاح له الظروف ليمارس سلطاته، كان الإعلام في حالة سيولة تامة، وغالبًا كان قد تم اختراقه، الجميع أصبحوا من الثوار، كل المسئولين أصبحوا من اللصوص وأعداء الشعب.

كنت أتحدث مع غيرى من المحافظين بشكل دورى في هذا الوقت، الدكتور سمير سيف اليزل محافظ بنى سويف المجاورة للفيوم، المستشار عدلى حسين محافظ القليوبية والمرحوم الدكتور فتحى سعد محافظ السادس من أكتوبر، كان الجميع يشكون من انقطاع التواصل مع الحكومة في القاهرة سواء في الوقت الذى شغل فيه شفيق رئاسة الوزراء أو عندما تولى عصام شرف المسئولية في ٣ مارس ٢٠١١.

كنت أعرف أن الأمور لا بد سائرة في اتجاه تغيير المحافظين، كنا ما زلنا الفئة الوحيدة من المسئولين على هذا المستوى الذين ظلوا في مواقعهم رغم التغييرات التى طالت الجميع، تصرفت على هذا الأساس،

كنت أستغل أى فترات تتاح لى لتجميع متعلقاتى سواء الموجودة في مكتب المحافظ أو متعلقاتى الشخصية في الاستراحة، بدأت بعض المليونيات الأسبوعية مع بداية شهر مارس تتحدث عن الإطاحة بجميع المحافظين، عدم التنفيذ لهذه المطالب كان مرتبطًا بالانتهاء من عملية الاستفتاء على تعديل بعض مواد الدستور في ١١ مارس والتى أطلق عليها غزوة الصناديق وفيها حصل الإخوان على ما يريدون من تعديلات.

بينما كنت أواجه الأمواج العاتية بشكل يومى في مباشرة مهام وظيفتى في ظل أوضاع متغيرة ومتقلبة واحتجاجات واعتصامات ومظاهرات، كانت أسرتى في القاهرة تدبر أمورها دون أن تزعجنى بمشاكلها اليومية في مواجهة الأحداث المتعاقبة، ابنتى الكبرى كانت في كندا وعلى وشك الحصول على الدكتوراه ولكنها كانت كأنها معنا وتريد الاستفسار عن كل شيء. ابنى ضابط الشرطة كان مقر عمله في الأقصر ونصحنى الكثيرون أن أطلب نقله إلى القاهرة لخطورة وجوده هناك في ظل أن والده من رجال النظام ورفضت ذلك ورفض هو أيضًا.

فقط ابنى المهندس الصغير وابنتى طالبة الهندسة كانا مع زوجتى في هذا الوقت. اشترك ابنى مع الجيران في ورديات حراسة الشارع والعمارة التى نسكن فيها، أرسلت أحد أفراد الأمن من حراستى الخاصة في الفيوم للمبيت أمام المنزل في ظل الظروف المنفلتة وقتها وانتشار أعمال البلطجة والسرقة، لم أغادر الفيوم منذ اندلاع الأحداث في أول يناير وحتى منتصف أبريل. أسرتى كان عليها أن تدير شئونها، حضرت زوجتى وابنتى للاطمئنان على أحوالى في الفيوم، شاهدتا الظروف الصعبة التى أمر بها، أكثر من مرة شاهدتا قوة الحراسة وهى تلقى القبض على عناصر تتسلل إلى داخل حديقة الاستراحة التى أقيم فيها، غالبًا لتنفيذ أعمال تخريبية، أتذكر ابنتى وهى تصرخ طالبة من الحراسة التعامل برفق مع من تم

القبض عليهم مع أنها تعرف أن هدفهم كان إلحاق الضرر بنا إذا نجحوا في اختراق الحراسة حول المكان.

منذ أول فبراير وحتى منتصف أبريل كنت أبيت في مكتبى في معظم الأحيان، غرفة صغيرة ملحقة بمكتب المحافظ بها سرير متواضع كانت هى المكان الذى أنتهى إليه مساء كل يوم بعدما يكون قد أصابنى إرهاق من عمل متواصل منذ الصباح الباكر وحتى منتصف الليل، هذه الغرفة والمجاورة لمكتبى كانت واجهتها من الزجاج بالكامل المطل على الشارع الرئيسى أمام المحافظة، النوم لا بد أن ينتهى مع الفجر حيث يبدأ النور في التسلل إلى الغرفة معلنًا ضرورة الاستيقاظ لمعايشة يوم جديد، الله وحده أعلم كيف سينتهى.

صباح يوم ٢٠١١/٤/١٤ تلقيت اتصالاً تليفونيًا من اللواء محمود أبوطالب مدير مكتب رئيس مجلس الوزراء يخطرنى فيها أن حركة المحافظين سيتم الإعلان عنها ظهر نفس اليوم وأن مهمتى كمحافظ قد انتهت كما انتهت مهمة أكثر من ٨٠٪ من المحافظين حيث لم يتبق بعدها إلا بعض محافظى المحافظات الحدودية من ضباط القوات المسلحة.

غادرت مكتبى بعدها مباشرة متوجهًا إلى القاهرة، لم يستغرق الاستعداد للمغادرة إلا دقائق معدودة، كنت قد أعددت العدة لكل شيء، جميع متعلقاتى في مقر السكن كانت قد وضعت في شنط وصناديق مجهزة، متعلقاتى الشخصية في مبنى المحافظة كذلك، لم أخطر أحدا أننى لن أعود مرة آخرى، سيعرفون من وسائل الإعلام، لم يكن يعرف أيضًا لا السائق ولا الحارس الخاص بهذه الأمر، أخبرتهم عند وصولى إلى باب منزلى في القاهرة، شكرتهم وطلبت منهم ألا ينتظروا لأن مهمتى انتهت.

في طريقى إلى القاهرة مر بى شريط طويل من الأحداث والذكريات التى ارتبط بها عملي كمحافظ للفيوم وقبلها رئيسًا لجامعة الفيوم، كنت

فخورًا بما أنجزت ولكنى كنت حزينًا أن انتهت هذه التجربة بهذا الشكل العجيب وللمفارقة بدأت عمل محافظ يوم ١٤ أبريل ٢٠٠٨ وانتهت مهمتى ١٤ أبريل ٢٠١١ ثلاث سنوات بالتمام والكمال.

الفصل العاشر

عصام شرف

رئيس وزراء الميدان

عصام شرف
رئيس وزراء الميدان

كانت الظروف صعبة في أعقاب أحداث جمعة الغضب في ٢٨ يناير ٢٠١١ التي أشعلها الإخوان بنزولهم المكثف في ذلك اليوم وسيطرتهم على ميدان التحرير وكل من فيه من الشباب الثائر في هذا الوقت. وفي بيان ألقاه الرئيس حسنى مبارك اليوم نفسه أشار إلى أنه قد طلب أن تتقدم الحكومة باستقالتها، وقد قدمت حكومة الدكتور أحمد نظيف استقالتها يوم ٢٩ يناير ٢٠١١ وكلف الرئيس حسني مبارك الفريق أحمد شفيق بتشكيل الحكومة الجديدة.

استمرت حكومة الفريق/ أحمد شفيق من ٣١ يناير إلي ٢ مارس واستقالت صباح يوم ٣ مارس ٢٠١١ في أعقاب المقابلة العاصفة التي تمت مساء اليوم السابق علي قناة ON TV وكان الفريق شفيق في مواجهة مع يسرى فودة وريم ماجد وعلاء الأسواني ونجيب ساويرس فيما يشبه الفخ الذى تم نصبه للإيقاع به.

المعروف أن الفريق شفيق له حضور كبير وقدرة فائقة علي الحوار والإقناع وعلى التعامل مع المواقف الصعبة، وكان يتردد دائمًا أثناء شغله لمنصب وزير الطيران قبل ثورة يناير عن وجود اتجاه لتكليفه بتشكيل الحكومة من قبل الرئيس حسني مبارك وهو ما لم يحدث حتى قامت الثورة، وتم تكليفه بعدها، واستهل مهمته بزيارة مدينة الإنتاج الإعلامي

والظهور في جميع البرامج الحوارية على مدار يومين أو أكثر موجهًا رسالة تهدئة للجميع؛ ولذلك كان من المستغرب أن يتمكن فريق في برنامج على ON TV من تشتيت تركيزه والتشويش على الأفكار التي أراد أن ينقلها إلى جموع المشاهدين رغم كل الصفات القيادية التي يتمتع بها.

كنت أشاهد المقابلة التليفزيونية بعد يوم عصيب من الأيام التي أعقبت تخلي الرئيس مبارك عن السلطة وتولي القوات المسلحة مقاليد الأمور واستمرار المظاهرات والوقفات الاحتجاجية، وكان الوقت يقترب من منتصف الليل وكنت عائدًا للتو لتناول وجبتي الوحيدة بعد يوم عمل طويل وأيقنت في نهاية المقابلة أن الفريق شفيق لن يستمر في مهمته.

بالطبع ليس البرنامج التليفزيوني وحده هو السبب، والمؤكد أنه كانت هناك ضغوط سابقة من الإخوان وممثلي الشباب في ميدان التحرير لإخراج الفريق شفيق من رئاسة الحكومة، من منطلق أنه أحد رجال مبارك وعمل معه وزيرًا لمدة عشر سنوات ومن قبلها كان قائدًا للقوات الجوية وكان يحظى بموقع خاص لدى الرئيس مبارك والذى سبق وكان قائدًا لسلاح الطيران نفسه خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ وما قبلها، ويبدو أن أمر خروجه من رئاسة الوزراء كان قد جرى الاتفاق عليه قبل ذلك ولم تكن المقابلة سوى الشيء الذي ظهرعلى العلن في هذا السياق .

كان تقديرى بعد اللقاء التليفزيونى أنه لن تمر ٤٨ ساعة دون إبعاد الفريق شفيق عن رئاسة الحكومة، وقد ذهبت للنوم حوالى الثانية صباحًا.

اتصل بي ابني المهندس مصطفى من القاهرة في حوالي العاشرة صباحًا ليخبرني أنه سمع للتو عن استقالة حكومة الفريق شفيق وطلب أن أفتح التليفزيون لأتأكد بنفسي، وقد كان، وهذا لم يكن يمثل المفاجأة بالنسبة لي، فقد توقعتها منذ ساعات، المفاجأة كانت أن رئيس الوزراء المكلف هو الدكتور عصام شرف.

أما لماذا تكليف عصام شرف رئيسًا للوزراء يمثل مفاجأة؟ فأولاً الظرف العام المعقد والمنفلت في هذا التوقيت كان يتطلب شخصية من نوع آخر، على الأقل بخبرات تضارع أو تفوق خبرات الفريق/ شفيق من حيث الخبرة والحنكة والقوة ورباطة الجأش وكلها أمور كانت مطلوبة في هذا التوقيت. عصام شرف أكاديمي متميز في مجاله وباحث متخصص في مجال صيانة الطرق وتطبيقاتها وكانت له تجربة في شغل منصب وزير النقل في حكومة الدكتور أحمد نظيف الأوليى التي تشكلت في ٢٠٠٤/٧/١٧ وخرج من الوزارة في أول تعديل وزارى بعد ذلك في ٢٠٠٥/١٢/٣١. لهذه الأسباب كان اختيار الدكتورعصام شرف مفاجأة بالفعل.

أعرف الدكتور عصام شرف منذ أوائل التسعينيات وهو من خريجي هندسة القاهرة عام ١٩٧٧ وحاصل على الدكتوراة من جامعة "بوردو" المشهورة في أمريكا في برامج صيانة الطرق وعمل بعد عودته مدرسًا في هندسة القاهرة ثم أستاذًا مساعدًا وأستاذًا في عام ١٩٩٤ وأشرف على العشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه في هذا المجال وحاصل على جائزة الدولة التشجيعية في الهندسة.

توطدت معرفتي أكثر بالدكتور عصام شرف عند حضورنا سويًا أحد المؤتمرات العلمية العالمية في سيدني في أستراليا عام ١٩٩٥، وكانت لنا نقاشات عن مشروعاتنا لتطوير منظومة قطاع النقل في مصر، كما أنه كان المشرف على رسالة الماجستير الخاصة بابنتي التي كانت معيدة في هندسة القاهرة من ١٩٩٩ وهي الآن أستاذة مساعدة وحصلت بعد ذلك على الدكتوراة في الهندسة من جامعة " كارلتون" في أوتاوا عاصمة كندا، كما اشترك الدكتور عصام شرف معي في أعمال استشارية حصلت عليها في أعمال تطوير شبكات الطرق في منتجعات سياحية في البحر الأحمر، وهو مثال للإخلاص والانضباط والمهنية في العمل.

أثناء تولي الدكتور الدميرى وزارة النقل في عام ١٩٩٩ وحتى خروجه في فبراير عام ٢٠٠٢ عقب حادث قطار العياط شغل الدكتور عصام شرف منصب مساعد الوزير للطرق وبدأ منذ هذا الوقت يأخذ منعطفًا جديدًا يتجنب فيه الانخراط المجتمعي المعتاد، ومع خروج الوزير الدميرى وتعيين المهندس حمدي الشايب كانت له أيضًا بعض الالتزامات مع الوزير الجديد ولكنها لم تأخذ أية صبغة رسمية.

ذهب الدكتورعصام شرف إلى ميدان التحرير في الأيام التالية لجمعة الغضب ضمن مجموعة من أساتذه هندسة القاهرة ذوى الميول الإخوانية ولقطته عدة كاميرات تليفزيونية في هذا الوقت وكان ظهوره كوزير سابق مع مبارك نفسه يعطي انطباعا خاصا مؤداه أن رجال مبارك أنفسهم قد خرجوا عليه.

تم تداول روايات عن أسباب نزول الدكتور شرف إلى ميدان التحرير إحداها أن ابنه المولود في أمريكا كان قد ذهب إلى هناك عدة مرات ومعه جواز السفر الأمريكي وأنه نزل خوفًا عليه وبحثًا عنه، وتم أيضًا تداول أنه نزل بسبب تعاطفه مع الإخوان كون المرشد العام الدكتورمحمد بديع كان من زملاء أو أحد طلاب والده المرحوم الدكتور عبد العزيز شرف الأستاذ السابق في كلية الطب البيطرى جامعة القاهرة.

إعلان اسم الدكتور عصام شرف كمرشح لرئاسة الحكومة متزامنًا مع إعفاء الفريق شفيق أو قبول استقالة حكومته يؤكد أن أمر إنهاء مهمة الفريق شفيق كان قد تم اتخاذه حتى قبل المقابلة التليفزيونية التي جرت قبل استقالة الحكومة بساعات قليلة وأن البديل أيضًا كان قد تم الاستقرار عليه.

في أعقاب إعلان اسم الدكتور عصام شرف مرشحًا لرئاسة الحكومة تزاحمت في رأسي الأسئلة، هل هو الشخص المناسب لهذا الظرف

التاريخي؟ هل كان مجرد ظهوره في ميدان التحرير مؤهلا لرئاسة الحكومة؟ هل هو أمر معد من قبل وجرى إخراجه بهذا الشكل؟

في يوم الجمعة التالي الموافق ٤ مارس ٢٠١١ وحتى قبل الانتهاء من تشكيل الحكومة ذهب عصام شرف المرشح لرئاسة الحكومة إلى ميدان التحرير وكان قد جرى كلام عن أنه يتعين عليه أن يؤدى اليمين الدستورية في الميدان أمام الثوار كونه رئيس وزراء الميدان في حين أن الأمر محسوم بأن حلف اليمين يكون أمام رئيس الجمهورية وهو في هذا الوقت المشير طنطاوى القائد الأعلى للقوات المسلحة والمكلف بإدارة شئون البلاد، وحمل الثوار الدكتور شرف على الأكتاف وناولوه الميكروفون ليقول كلمة إلى الثوار ولم تكن كلمته مسموعة أو مترابطة أو تعطي معنى معينًا وتزامنا معها تدخل مستمر من البلتاجي وتناوله الميكرفون وإلقائه بعض الكلمات والشعارات التهيجية في جو صاخب تمامًا.

جرت مشاورات تشكيل الحكومة وكان أولها مقابلة وإعلان الدكتور يحيى الجمل والدكتور على السلمي وتكليفهما نائبين لرئيس مجلس الوزراء، وشارك يحيى الجمل في كل لقاءات عصام شرف مع الوزراء المرشحين وواضح أنه كانت له كلمة مسموعة في هذا الشأن، ونلاحظ عودة كل من الدكتورعمروعزت سلامة والدكتور أحمد جمال الدين موسي إلى الحكومة وكانا مع عصام شرف من ضحايا التعديل الوزارى الأول في حكومة الدكتور نظيف والذى تم في ٢٠٠٥/١٢/٣١ وشعر الثلاثة وقتها بأنهم ظلموا من الدكتور نظيف، وكانت عودتهم بمثابة رد اعتبار بعد سقوط النظام، وكان أيضًا بمثابة صك بالبراءة من الانتماء إلى نظام مبارك كله حيث كانت النغمة وقتها هي إقصاء رجال مبارك من المشهد العام وأطلق عليهم لقب الفلول.

لم يمض وقت طويل حتى أدرك الناس الطبيعة الحالمة لرئيس الوزراء الجديد وطيبته وتساهله الذى لم يكن يتناسب مع الأوضاع الهادرة في الشوارع في هذا الوقت وجرت أحداث جميعها تشير إلى صعوبة الأوضاع من ناحية وعدم مناسبة الاختيار لهذه الأوضاع الصعبة.

كانت قضية اختيار اللواء/ عماد ميخائيل محافظًا مسيحيًا لمحافظة قنا، وما تلى ذلك من مظاهرات هناك رافضة لمبدأ أن تكون قنا دائمًا مكان تسكين المحافظين المسيحيين، حيث كان المحافظ السابق هو صديقى اللواء مجدى أيوب، وقد تزعم هذه المظاهرات السلفيون هناك وجرى التعاطي مع الأمر بشكل سيئ وكان موفدى رئيس الوزراء إلى هناك لتهدئة الأمور هم قادة سلفيون وإخوان وبالتالي كان قرار اختيار المحافظ خطأ، وتصرُّف السلفيين هناك خطأ والتعامل مع القضية بعد وقوعها خطأ والعودة في القرار بعد اتخاذه تحت ضغط المظاهرات وقطع الطرق والسكك الحديدية خطأ أيضًا وقد كانت هذه الواقعة مقدمة لموجة جديدة من الاعتصامات وقطع الطرق لتنفيذ طلبات غير منطقية في أنحاء البلاد.

كانت هناك أيضًا ظاهرة تدليل الثوار من صغار السن وتخصيص غرف لممثلين لهم في مقر مجلس الوزراء وعرض كثير من الأمور عليهم وأخذ موافقتهم قبل إقرارها، وتدلل هؤلاء الصغار في إعطاء الموافقة عليها بحجة الرجوع إلى الميدان قبل إبداء الرأى مما أظهر الحكومة في أحيان كثيرة في موقف العاجز في اتخاذ القرارات المهمة في توقيتات مناسبة.

كانت اجتماعات مجلس الوزراء تمتد لساعات من الصباح إلى المساء ومعظم القرارات في طبيعتها استرضاء للثوار في الميادين والمطالبات الفئوية العديدة وبالتالي جرى تعيين مئات الآلاف من المؤقتين وجرى استنزاف الاحتياطي النقدي في تدبير التمويل لمطالب عديدة جرى

الرضوخ لها دون معنى ولمواجهة تزايد الفجوة بين ما يتم تصديره وقد تعثر التصدير بل قد يكون توقف تمامًا، مع ضعف آليات السيطرة على الواردات بشكل عام وصعوبة عدم تلبية المتطلبات الأساسية من المواد الغذائية والسولار والبنزين والغاز.

مع تزايد الليونة في التعامل مع الميادين والاستجابة لضغوط الاضطرابات والاحتجاجات وقطع الطرق والسكك الحديدية وتولد القناعة لدى كل الفئات أن الاحتجاجات هي السبيل لتلبية المطالب، خرجت الأمور تمامًا عن السيطرة المتوقعة من رئيس وزراء الميدان.

لقد عانيت وأنا محافظ الفيوم كما عانى معظم المحافظين بعد ١١ فبراير ٢٠١١ من غياب التواصل مع مجلس الوزراء فيما عدا تقارير يومية كنا نرفعها إلى وزير التنمية المحلية بموقف المواد التموينية، وأخذ كل منا يدبر أموره بحسب رؤيته للأوضاع في نطاق محافظته، وفيما عدا دعم القوات المسلحة في صورة قوات خاصة من الصاعقة للتأمين وامتصاص غضب الجماهير وحماية المظاهرات ومنع تحولها إلى أعمال تخريبية، لم نكن نشعر أننا جزء من النظام ولم نسمع كلمة تشجيع واحدة مع أننا من واجهنا، كل في محافظته، كل مظاهر الانفلات التي نتجت عن قرارات غير مدروسة من قبل مجلس الوزراء في القاهرة واستمر هذا الوضع حتى ١٤ أبريل ٢٠١١ حيث جرى تغير أكثر من ٢٠ محافظا من أصل ٢٨ محافظًا بعد أقل من ثلاثة شهور من قيام الثورة.

كان أحد القرارات غير المدروسة يتعلق بأن هناك فرص عمل كثيرة وأن على كل من يرغب في العمل أن يستوفي استمارة تم توزيعها في مكاتب البريد وثمنها على ما أعتقد عشرون جنيهًا، قد اشترى هذه الاستمارة عشرات الآلاف من الشباب في كل محافظة ودفعوا مقابل لذلك وسلموها

لمكاتب البريد، وبدأوا في السؤال في كل محافظة عن النتيجة حيث لا ترد عليهم وزارات القاهرة، وقد حدث واكتشف أبناء الفيوم كما اكتشف غيرهم في المحافظات الأخرى أن الآلاف من هذه الاستمارات ملقاه خلف مكاتب البريد التي قدموا فيه هذه الطلبات، حيث لم تكن هناك وظائف ولكن كانت هناك محاولة رديئة لامتصاص غضب الجماهير ولكن هذا الغضب تحول إلى سخط تجاه المحافظين دون مبرر.

كانت أحاديث الدكتور عصام شرف في التليفزيون في تلك الفترة العصيبة أحاديث حالمة ومهادنة وتنطوي على استجابة تلقائية لجميع الطلبات، وأتذكر أنني في أول لقاء لخدمة المواطنين بعد الثورة وكان في منتصف مارس ٢٠١١ أن كانت كل الطلبات صعبة التنفيذ وتنطوى على مخالفة للقانون وطلبات بالإعفاء من التزمات في عقود الإسكان الاجتماعي وفي أحد الطلبات وعندما أوضحت عدم قانونية الاستجابة إلى الطلب وعدم وجود مصدر مالي لتلبيته هاج صاحبه وحدد لي المصدر المالي وهو السبعين مليار التي انتشر أن الرئيس مبارك أخرجها من البلاد، وعندما أجبت بالرفض مرة أخرى، أخبرني أنه سيشكوني لعصام وهو يقصد رئيس الوزراء الدكتورعصام شرف، وعندما وافقته على القيام بالشكوى إذا أراد طلب مني تزويده بتليفون عصام (هكذا قال) ليشكوني إليه.

بالطبع تزامن مع هذا الاضطراب، اضطرابات أخرى مرتبطة بعداء خاص للمؤسسة العسكرية من قبل قيادات الإخوان و٦ أبريل والاشتراكيين الثوريين واختلاق المشاكل معها ومع الداخلية وخلق مناسبات للعدوان على الكنائس والمقرات الداخلية ومبنى الإذاعة والتليفزيون في ماسبيرو ومقر وزارات الداخلية في شارع محمد محمود وغيرها من المنشآت الحيوية في الدولة.

وبدأت مطالبات الميدان نفسه في تغيير من أطلق عليه الإخوان رئيس حكومة الميدان، وحقيقة الأمر أن هذا كان اختيارهم، وليس أحدًا غيرهم، والتسمية الحقيقية بالفعل هي رئيس وزراء الميدان بسيناريو إخراج من الإخوان.

الفصل الحادى عشر

مع الجنزورى

حكومة الإنقاذ الوطنى ٢٠١١-٢٠١٢

مع الجنزورى
حكومة الإنقاذ الوطنى ٢٠١١-٢٠١٢

جاء تكليف الدكتور كمال الجنزورى بتشكيل الحكومة في ظل مناخ عام صاخب وانفلات ومظاهرات واضطرابات متزايدة، كان شارع محمد محمود يعج بالمتظاهرين وشباب الثورة من حركة ٦ إبريل والاشتراكيين الثوريين وشباب الإخوان، وكان الهجوم على مقر وزارة الداخلية مستمرا بشكل يومى، وتحول ميدان التحرير إلى ما يشبه معسكرا مملوءا بأشكال غريبة من البشر لا تعرف من أين أتوا، ومن خلفهم، وانتشرت فيه الخيام من كل شكل ولون يبيت فيها شباب وشابات لهم ملامح غريبة وشعر منكوش وتشعر أنهم مكلفون بمهمة ما ويتفانون في تنفيذها.

مع نهاية نوفمبر ٢٠١١ بات واضحًا أن تغييرًا يجب أن يحدث وانقلب الميدان على عصام شرف وهو من جاء به الميدان والإخوان، وظهرت شعارات واضحة تنادى بتغييره وهناك من طلب أيضًا برحيل المشير طنطاوى والمجلس العسكرى إلا أن ذلك كان يعنى انهيار كل شيء وضياع البلد ودخولها إلى نفق إلا يعلم الله كيف كانت ستخرج منه.

انتشرت في ذلك الوقت إشاعات عديدة حول من سيتم تكليفه بتشكيل الحكومة ووردت أسماء السيد عمرو موسي ود.محمد البرادعي ود. حازم الببلاوي ضمن هذه الترشيحات وقد عرفت من السيد أسامة هيكل وقتها، وقد كان وزيرًا للإعلام في حكومة عصام شرف، وكان بحكم وظيفته على

صلة مباشرة مع قيادات المجلس الأعلى للقوات المسلحة وبالمشير طنطاوي شخصيًا أن هذه لم تكن شائعات ولكن كانت هذه فعلاً بدائل جرى طرحها، إلا أنه في النهاية تم الاستقرار على اختيار الدكتور كمال الجنزوري.

تم الاتصال بالدكتور كمال الجنزوري مساء يوم الجمعة ٢٥ نوفمبر ووافق على تشكيل الحكومة وأجرى مشاوراته لمدة تسعة أيام بدأ من السبت ٢٦ نوفمبر حتى الثلاثاء ٦ ديسمبر وقامت الحكومة التي شكلها بحلف اليمين الدستورية بعد ظهر يوم الأربعاء ٧ ديسمبر ٢٠١٢ بمقر أمانة وزارة الدفاع في شارع الطيران.

كنت أتابع مجهودات الدكتور الجنزوري في تشكيل الحكومة، حيث كانت نشرات الأخبار تذيع بشكل متقطع تصريحاته حول سير عملية تشكيل الحكومة ولم يكن المعروض هو الأسماء المرشحة بقدر ما كان عن استمرار الجهود والتوقيت المتوقع لإعلانه والتحديات التي تنتظره وحكومته الجارى تشكيلها.

في تلك الفترة كان واضحًا من التصريحات أن أمر تشكيل الحكومة والأسماء المرشحة شبه معروف لدى الدكتور الجنزورى وطرح من ضمن من قابلهم سيادته لشغل منصب وزير النقل اسم الدكتور وائل الدجوى عميد كلية الهندسة جامعة القاهرة والذي قيل إنه أوضح للدكتور الجنزورى أن قطاع النقل ليس مجاله وقد شغل الدكتور الدجوى فيما بعد منصب وزير التعليم العالي في حكومة المهندس إبراهيم محلب.

اتصل بى ظهر السبت ٣ ديسمبر أحد المسؤلين في جهاز المخابرات المصرية وكان قد شغل من قبل موقعًا في الفيوم وقت أن كنتُ أنا محافظًا لها واستفسر عن ما إذا قد تم الاتصال بى من مجلس الوزراء بشأن موضوع مهم لم يوضحه وأجبته بالنفي.

في مساء اليوم نفسه حوالى التاسعة مساءً فوجئت على التليفون المحمول الخاص بى ـ وكنت قد تركته في المنزل لساعة أو أكثر ـ بعدة اتصالات تليفونية من أرقام أحفظها جيداً وتخص مجلس الوزراء، وكنت على وشك الاتصال إلا أننى فوجئت باتصال آخر من رقم محتلف وسمعت على الطرف الآخر من يقول: أنا كمال الجنزورى.

لم أكن قد تعاملت مع الدكتور الجنزورى بشكل مباشر من قبل، في فترة توليه الحكومة من عام ١٩٩٦ حتى أكتوبر ١٩٩٩، حيث كنت أشغل وقتها وظيفة عميد كلية الهندسة بجامعة القاهرة بالفيوم، ولم تكن وظيفتي الأكاديمية من المستوى الذي يتعامل مع رئيس الوزراء.

كنت بالطبع أعرفه أثناء شغله لمنصب رئيس الوزراء وله شعبيه كبيرة جداً وكان يقف له الناس دائمًا احترامًا عندما يدخل أي لقاءات كان يحضرها الرئيس مبارك وذلك قبل دخول الرئيس بلحظات، وكان شديد الاحترام ومشهور عنه الحزم، والدقة، والإلمام بالتفاصيل وله ملكة السيطرة على الأمور بشكل تام ويستطيع أن يحفظ ويسترجع مئات الأرقام التى تخص الميزانية والإنفاق العام والدخل القومى وعدد السكان ومشروعات الإسكان ومساحات الأراضي ومقننات المياه وكل ما يخطر لأي شخص من التفاصيل التي تخص مصر كلها.

كانت مكالمة الدكتور الجنزوري قصيرة وواضحة بدأها بسؤال محدد: تحب تشترك معانا في كتيبة مقاتلين لإنقاذ الوطن؟ كان لا يمكن لأي شخص أن يجيب بغير الموافقة وقد أجبته فوراً بموافقتى وطلب منى مقابلته ظهر اليوم التالى الأحد ٤ ديسمبر في مقر وزارة التخطيط، حيث كان قد اتخذ مكتبه القديم عند شغله وظيفة نائب رئيس الوزراء ووزير التخطيط مقراً لإجراء مقابلاته لتشكيل الحكومة.

ذهبت في الموعد، لم يستغرق اللقاء أكثر من خمس دقائق، هو كرر على السؤال وأنا أجبت نفس الإجابة، وشرح لى دقة الوضع العام، وأنا قبلت

التحدى. لم تكن هذه اللقاءات رسمية بقدر ما كانت استكشافية، بغرض وضع تصور متكامل للتشكيل المقترح وعرضه على المشير طنطاوى بشكل مبدئى قبل الإعلان الرسمى.

وقد استدعيت إلى لقاء آخر مساء الثلاثاء ٦ ديسمبر الساعة الثامنة مساءً لمقابلة الدكتور الجنزورى مرة أخرى، وكانت هذه المرة مقابلة رسمية تم تصويرها تليفزيونيًا والإعلان عنها في وسائل الإعلام، وفي هذه المره وقبل اللقاء دخلت إلى مكتب مجاور وكانت تجلس فيه السفيرة فايزة أبوالنجا وكانت تشغل منصب وزيرة التعاون الدولى منذ حوالى تسع سنوات في حكومات عاطف عبيد وأحمد نظيف وأحمد شفيق وعصام شرف وكان واضحًا أنها سوف تستمر في الحكومة الجديدة الجارى تشكيلها، بل من الواضح أيضًا أنها سيكون له شأن في هذه الحكومة وكانت ترحب بكل السادة الذين دخلوا مكتبها انتظارًا لمقابلة رئيس الوزراء المكلف وقدمت لنا الشاى وسندوتشات الفول والطعمية.

السفيرة فايزة أبو النجا شخصية تجبرك على احترامها، وقد زارتنى في الفيوم وقت أن كنت محافظًا لها وهى وزيرة للتعاون الدولى وكان بصحبتها في الزيارة الوزير أحمد المغربى وزير الإسكان في ذلك الوقت والوزير عبد السلام المحجوب وزير التنمية المحلية ومجموعة من السادة السفراء أتذكر منهم سفير سويسرا والتى كانت تمول مشروعا للصرف الصحى تم افتتاحه أثناء الزيارة وكانت الزيارة في شهر رمضان عام ٢٠٠٩، ومن منطلق تعاملاتى السابقة معها كانت هناك أرضية مناسبة للتعامل معها في الوزارة التى كان يجرى تشكيلها عند مقابلتى لها مرة أخرى في هذا اليوم.

عند إعادة مقابلة الدكتور كمال الجنزورى عرفت أنه كان قد استقر الرأى على تكليفي بحقيبة وزير النقل وقابلت أيضًا في هذه المقابلة اللواء

أحمد أنيس الذى تولى وزارة الإعلام كما قابلت الدكتور سعد نصار وهو محافظ سابق للفيوم وأستاذ الاقتصاد الزراعى المرموق والحاصل على جائزة النيل في العلوم الزراعية والذى كان من المفترض أن يكلف بحقيبة وزارة الزراعة، ويبدو أنه كانت هناك بعض الاعتبارات التى حالت دون ذلك، وفي رأي أن وجوده كان سيمثل إضافة حقيقية للحكومة في الظروف الصعبة في ذلك الوقت.

كانت مقولة العمل مع النظام السابق كافية في هذا الوقت لاستبعاد أى شخص من تولى مناصب قيادية في الوضع الجديد وهو أمر، بالرغم من أنه غير منطقى، إلا أنه حرم كثيرين من تولى مناصب في هذا الوقت.

عند المقابلة الثانية مع الدكتور الجنزورى مساء الثلاثاء ٦ ديسمبر قال لى إنه سيرشحنى للوزارة رغم أنه يعرف أننى كنت محافظاً قبل وأثناء الثورة وقد كان دخولى الوزارة في حينه يمثل أول عودة لمسئول كان موجوداً في منصب الوزير أو المحافظ وخرج من منصبة عقب يناير ٢٠١١ وبسببها. كان ردى وقتها أن من عمل مسئولاً وقت الرئيس مبارك كان مسئولاً في الدولة المصرية، وما لم يكن عليه هو شخصيًا ما يؤخذ عليه من أى تصرفات تمس النزاهة والشرف فإن القول بحرمانه من فرص جديدة بهذا السبب يصبح غير منطقي.

بعد مقابلة الدكتور الجنزورى، تم تحديد موعد حلف اليمين الدستورية ليكون بعد ظهر اليوم التالى، الأربعاء السابع من ديسمبر ٢٠١١، وكان الحديث الدائر في هذا الوقت يدور حول من سيشغل منصب وزير الداخلية كون الهدف الأساسي من التغيير الوزارى كان السيطرة على الأمور المنفلتة في ميدان التحرير ومحمد محمود والعباسية وماسبيرو والخليفة المأمون أمام مقر وزارة الدفاع وكذلك الاعتصامات والوقفات الاحتجاجية وقطع الطرق والسكك الحديدية وغيرها من الأمور التى يتذكرها كل من عاصر هذه الأيام.

لم نكن نعرف نحن أعضاء الحكومة المكلفة شخص وزير الداخلية حتى دخل علينا في صالون الانتظار في أمانة وزارة الدفاع اللواء محمد إبراهيم يوسف وعرفنا أنه المكلف الجديد لهذا المنصب المرعب في ذلك الوقت، كنت أعرف اللواء محمد إبراهيم من مقابلات عابرة في نادى الصيد الذى كان يداوم على المشى فيه بعدما خرج من الداخلية بعد شغل آخر منصب له وهو مساعد أول وزير الداخلية وقبلها شغل موقع مدير أمن الجيزة وله تاريخ حافل في وظائف قيادة سابقة في القاهرة والجيزة وأسيوط.

صلينا العصر جماعة قبل حلف اليمين وكان الإمام هو فضيلة الدكتور عبد الفضيل القوصى المكلف وزيرًا للأوقاف وتعاهدنا بعدها، مع وضع كل الأيدى فوق بعضها البعض، أن نفعل المستحيل لإنقاذ هذا البلد من الوضع الذى وصلت إليه الأمور وقتها.

بعد أداء اليمين أمام المشير طنطاوى اجتمع معنا سيادته وشرح لنا أبعاد الموقف وخطورتة الشديدة وخرجنا مع رئيس الوزراء نأخذ صورة تذكارية أمام مقر الأمانة العامة لوزارة الدفاع في شارع الطيران بعدما كان المتبع في الظروف العادية أن تكون الصورة في رئاسة الجمهورية وبحضور رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء ولكنها كانت هذه هى الظروف وقتها.

عقب حلف اليمين الدستورية توجهت إلى مقر وزير النقل في شارع النصر وبدأت مهام وظيفتى في ظروف هى الأصعب في تاريخ مصر المعاصر كله، وكنا كلنا نعرف أننا لا نمتلك رفاهية الاحتفاء بالمنصب، ولم يكن أحدنا متطلعا إلى أى ميزة قد يعطيها له المنصب الجديد، وأتذكر أن المهندس عبد الله غراب وزير البترول الذى استمر في حكومة الجنزورى بعدما شغل نفس المنصب مع عصام شرف كانت له مقولة شهيرة قالتها له زوجته وصفًا لحالتنا كوننا دخلنا الوزارة والظروف لا تسمح بأى احتفال

من أى نوع: "إننا مثل الذين تزوجوا في قسم الشرطة" إنه زواج نعم لكن في ظروف غير طبيعية وتدعو إلى الريبة والحذر.

كانت الحكومة تجتمع في معظم الأحيان في مقر وزارة الاستثمار بعيدًا عن مقر مجلس الوزراء في شارع القصر العينى وخاصة في الأشهر الأولى من عمرها، وكانت تظهر أمام المقر المؤقت تجمعات في وقفات احتجاجية لهم مطالب فئوية.

كان الدكتور الجنزورى في اجتماعات لمجلس الوزراء والتى كانت تعقد أسبوعيًا في مقر وزارة الاستثمار في ظل حالة عدم الاستقرار التى بدأنا العمل في ظلها، مثالا لرباطة الجأش والتركيز والحنكة والقدرة على بلورة المواقف ومناقشتها بشكل موضوعى والاستماع إلى وجهات النظر المختلفة، كل هذا في ظل إدارة صارمة منجزة لا تسمح باللغو والمزايدة وتنتهى المناقشات برأى يلخصه ويطرحه للتصويت ويتم إقراره، والاجتماعات لا تزيد عن ساعة إلى ساعة ونصف.

استمرت السفيرة فايزة أبو النجا في الحكومة الجديدة وتولت إلى جانب وزارة التعاون الدولى التى كانت تتولاها قبل الثورة وزارة التخطيط كذلك، وكانت تتولى في أحيان كثيرة مسئولية المتحدث باسم مجلس الوزراء وتنسق في ذلك مع باقى الوزراء ذوى العلاقة بالموضوعات التى تم اتخاذ قرارات بشأنها في جلسات مجلس الوزراء ومصاحبتهم في المؤتمرات الصحفية التى تلى هذه الاجتماعات.

السفيرة فايزة أبو النجا شخصية وطنية حتى النخاع ومن أعمدة الدبلوماسية المصرية وكانت سفيرة مصر في اليابان وإليها يرجع الفضل في قرض مشروع المتحف المصرى الكبير منذ أكثر من عشر سنوات وقروض أخرى لوزارة النقل منها قرض الخط الرابع للمترو الذى تم توقيعه في القاهرة في مارس ٢٠١٢ بحضور رئيس مجلس الوزراء والسيدة

اوجادا رئيسة هيئة المعونة اليابانية (JICA) في آخر مهامها كرئيسة قبل تقاعدها في اليوم التالى.

وبسبب ضغط العمل والأحداث المتشابكة والمهام التى كانت تتولاها الحكومة وتتخذ فيها القرارات المطلوبة وكما هو الحال مع باقى الوزراء، كانت "فايزة هانم" ـ كما كنا نحب أن نلقبها ـ تبدو مرهقة تمامًا كما لو كانت لم تنم منذ أيام وعلى وجهها علامات الشحوب والضعف الجسدى ولكنها قوية في وطنيتها وعزيمتها ومتحفزة دائمًا في الوقوف في وجه كل من كان يحاول استغلال الظرف العام المضطرب في هذا الوقت للمساس بأمن البلاد.

كانت فايزة هانم قوية وشامخة في قضية التمويل الخارجى للجمعيات الأهلية وحزنت كثيرًا عندما غادر المتهمون الأجانب البلاد ليلاً في مشهد يظهر مدى سطوة التدخل الأجنبى (الأمريكى على وجه التحديد) وقدرته على استغلال الظرف العام للتدخل السافر والنجاح في إخراج هؤلاء المتهمين خارج البلاد، ومن فرط إيمانها بالقضية فقد ذهبت شاهدة في المحكمة في هذه القضية حتى بعد خروجها وخروجنا من الوزارة ولكن الحضور من المتهمين كانوا المصريين فقط أما الأجانب فقد خرجوا بالشكل الذى شاهده الجميع على شاشات التليفزيون مساء يوم الأربعاء ٢٩ فبراير ٢٠١٢.

قضية إخراج الأجانب المتهمين في هذه القضية كانت حديث الرأى العام وانتقلت إلى مجلس الشعب، وكان هناك هجوم كبير على الحكومة وحضر عنها وزير الطيران المدنى المهندس/ حسين مسعود ولكن حقيقة الأمر أن ترتيبات الخروج تمت خارج نطاق الحكومة تمامًا وبحكم قضائى يعرف ملابساته جيدًا المستشار عبد المعز إبراهيم رئيس محكمة استئناف القاهرة في هذا الوقت.

كانت اجتماعات مجلس الوزراء تبدأ دائمًا بعرض من اللواء محمد إبراهيم يوسف وزير الداخلية عن الوضع الأمنى العام الذى رغم صعوبتة كان يشهد تحسنًا متدرجًا والفضل في ذلك يرجع إلى رئيس الحكومة ووزير الداخلية معًا اللذين أعطيا هذا الموضوع أهمية خاصة وكان الدكتور الجنزورى متابعأ بشكل يومى الوضع الأمنى مع وزير الداخلية.

أتذكر أنه وللطبيعة الصعبة لتلك المرحلة أن الكثير من زملائى الوزراء تعرضوا لأزمات صحية طارئة نتيجة ضغط العمل وظروفه ومتطلبات المرحلة ومناوشات النواب في مجلس الشعب ومؤامراتهم، ممن تعرضوا لأزمات صحية كان الدكتور فتحى فكرى وزير القوى العاملة الذى احتاج أكثر من أسبوعين للعلاج من إرهاق شديد وهزال وضعف عام وأيضًا الدكتور فؤاد النواوى وزير الصحة الذى تعرض لانفجار في الشريان عند اتصاله مباشرة بالقلب وأجرى عملية جراحية استغرقت ١٢ ساعة متواصلة وكان وقتها بين الحياة والموت.

في تلك الفترة أيضًا دخل الدكتور جودة عبد الخالق وزير التضامن الاجتماعى والدكتور محمود عيسى وزير التجارة والصناعة إلى مستشفى الجلاء التابع للقوات المسلحة وبقيا فيه ما يقرب من ٢٠ يوما للعلاج من أمراض مرتبطة بأمراض القلب نتيجة الضغط العصبى الرهيب وأتذكر أننى قد زرتهما في المستشفى وكانا هناك في وقت متزامن وبالرغم من خروج الدكتور محمود عيسى من المستشفى بعد ذلك إلا أنه توفي بعد خروجنا من الوزارة بشهور قليلة من جراء الأزمة القلبية التى سبق وتعرض لها.

كانت زيارتى لكل من الدكتور جودة عبد الخالق والدكتور محمود عيسى (رحمه الله) في يوم الجمعة الموافق الأول من يونيه ٢٠١٢ وذلك في أعقاب مشاركتى في افتتاح المسجد الجديد داخل حرم محطة السكك الحديدية

في رمسيس وشارك في الافتتاح كل من الدكتور على جمعة مفتى الجمهورية وبحضور الدكتور عبد الفضيل القوصى وزير الأوقاف ومحافظ القاهرة وقتها الدكتور/ عبد القوى خليفة وكانت هناك دعوات يومها للتظاهر وذلك من قبل الإخوان والسلفيين وقيادات شبابية أخرى لأسباب لا أتذكرها. ما أتذكره أن نقطة التجمع المعلن عنها في هذه المظاهرات كانت مسجد الفتح في ميدان رمسيس على بعد خطوات من المسجد الذى تجمعنا فيه لافتتاحه وتم الترتيب لنقل شعائر الصلاة من المسجد في الإذاعة والتليفزيون.

كانت تقديرات الأمن وقتها وكذلك المسئولين عن مراسم الاحتفال من وزارتي النقل ومجلس الوزراء أن الأمور سوف تخرج عن السيطرة عقب صلاة الجمعة مباشرة وأن تجمع يضم الوزراء والمحافظين والمفتى قد يكون هدفًا لأي هتافات في هذا الإطار وكان الاتفاق وقتها في ضوء عدم إمكانية إلغاء الاحتفال لارتباطه بترتيبات نقل الصلاة في الإذاعة والتليفزيون أن على الجميع من المسئولين مغادرة المسجد فور انتهاء الصلاة ولا داعى للتوقف للسلام أو الحديث بعدها، وأن يكون التحرك فرديا وفي اتجاهات مختلفة وهو ما تم بالفعل حيث تبادلت الحديث تليفونيًا بعدها من كل الحضور من المسئولين للتأكد من خروج كل منهم من الميدان ووصوله سالمًا إلى مقصده النهائى.

لن أستطيع أن أتحدث عن باقى الوزراء من الحكومة وهناك فصل في الكتاب عن هشام قنديل بصفتة رئيس حكومة الإخوان فيما بعد ولكنى سأتطرق إلى قضايا عاصرتها وبعضها كنت طرفا فيها وكانت حديث الساعة وقتها وتتقاطع هذه القضايا مع الكثيرين أعضاء الحكومة.

جرت مباراة المصرى والأهلى عصر يوم الأربعاء الأول من فبراير ٢٠١٢ وكنت ما زلت في المكتب، وفي الاستراحة الملحقة بالمكتب شاهدت العشر

دقائق الأخيرة من المباراة عن طريق الصدفة وأنا أتناول سندوتشات أحضرها من منزلى لإمكانية الاستمرار في العمل حتى وقت متأخر، كانت النتيجة ٣/١ لصالح المصرى وعند صافرة النهاية شاهدت تزاحم للجماهير دخولاً إلى أرض الملعب وبدا الأمر بالنسبة لى كأنه احتفال بالنصر من قبل مشجعى النادى المصرى وأغلقت التليفزيون وعدت لاستكمال العمل في مكتبى وغادرت في التاسعة مساءً.

قبل الوصول إلى منزلى بدقائق اتصل بى اللواء/ أحمد عبد الله محافظ بورسعيد في ذلك الوقت وهنأته على فوز المصرى، على أنه أخبرنى بما حدث والذى كنت قد اعتقدته احتفالاً بالفوز، وطلب منى أن أرسل له قطارًا إلى بورسعيد لنقل جماهير الأهلى للقاهرة وطلب أن يتوقف القطار قبل الدخول إلى بورسعيد وأنه سيدبر وسيلة انتقال الجماهير من الاستاد إلى هذا المكان.

تم ترتيب اللازم وإرسال القطار واستمررت في متابعة تحركه من القاهرة ثم وصوله إلى مشارف بورسعيد ثم عند تحميله بمشجعى الأهلى ثم عقب تحركه في اتجاه القاهرة التى وصلها فجرًا وكانت أخبار ترتيب رحلة القطار قد انتشرت وذهبت قوات لتأمين وصول القطار وتأمين محطة مصر نفسها.

لم أنم طوال الليل وجاءتنى مكالمة من مكتب رئيس مجلس الوزراء لعقد اجتماع بشأن هذا الموضوع الساعة الثامنة صباحًا في نطاق ما أطلق عليه اللجنة الأمنية لمجلس الوزراء وكنت عضوًا فيها وكانت مثل مجلس وزراء مصغر يجتمع في مثل هذه الظروف، حضر الدكتور الجنزورى الاجتماع وبدا عليه الإرهاق الشديد الناتج عن عدم النوم منذ مساء اليوم السابق.

تم شرح ما حدث ولم تكن الصورة واضحة قبل هذا الوقت وكانت وفاة عدد يفوق السبعين من المشجعين أمر مفجع، وشرحت من جانبى ما قامت

به وزارة النقل والتأمين الذى تم بواسطة القوات المسلحة للقطار على مشارف بورسعيد وخلال الرحلة وعند وصوله إلى محطة مصر وشرح أيضًا وزير الداخلية التقارير الأمنية التى وصلته عن ما حدث وتقارير مدير الأمن ونائبه وباقى الجهات.

كان هذا الاجتماع يسبق اجتماع آخر قرر مجلس الشعب أن يعقده ويدعو له رئيس الوزراء وكأن هذا الحادث قد أنزل إليهم من السماء ويمثل مبررًا واضحًا للهجوم على الحكومة.

في نهاية اجتماع المجلس الأمنى المصغر كان السؤال: ما نوع القرارات التى يجب أن تصدر من مجلس الوزراء قبل الاجتماع المقرر في مجلس الشعب؟ وكان هناك اتفاق أن هناك قرارات يجب اتخاذها على وجه السرعة وإلا واجهتنا اتهامات معدة سلفًا من مجلس الشعب وبعضها موجه إلى الوزير المسئول عن شئون الدفاع (هكذا كانت تتم الإشارة إلى المشير طنطاوى) وليس بصفته رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة.

استقر الرأى على أنه من المناسب إقالة أو طلب استقالة اتحاد الكرة وكان برئاسة المرحوم سمير زاهر في هذا الوقت، ومدير أمن بورسعيد وكذلك محافظ بورسعيد وهو ما تم إعلانه بالفعل في حينه وانتقلت اللجنة بعد الاجتماع الذى استمر حوالى ثلاث ساعات من الثامنة صباحًا إلى الحادية عشرة إلى مجلس الشعب في الجانب المقابل من شارع مجلس الشعب.

كان الجو في المجلس مكهربا والقاعة مكتظة بالنواب، الإخوان والسلفيين، والمستقلين وكلهم في حالة هياج شديد وشرح الدكتور الجنزورى ما حدث وما قررته الحكومة للتو من إجراءات لامتصاص الغضب العام في الشارع والغضب المحتمل في مجلس الشعب من نواب

متنمرين بالحكومة وجاءهم هذا الحادث لتمثيل المبرر المطلوب للإجهاز عليها.

لم تكن هناك رغبة من النواب للاستماع لأي شرح من الحكومة حول ملابسات الحادث وحول ما اتخذته من إجراءات إلا أن الدكتور الجنزورى عرض ما حدث وما اتخذته الحكومة من إجراءات وحاول تهدئة أعضاء مجلس الشعب دون جدوى وقاطعه النواب وأتذكر منهم النواب محمد عبدالمنعم الصاوى ومصطفى النجار وعمرو حمزاوى ونواب الإخوان مثل البلتاجى وعصام العريان، وقال رئيس الحكومة في معرض شرحه لتصدى الحكومة لتداعيات الحادث أنه لم يذهب إلى بيته من اليوم السابق وبات في مكتبه ولم يغير ملابسه منذ هذا الوقت، وكان رد النائب محمد عبدالمنعم الصاوى يتسم بالسخرية متضمنًا أنه ليس من شأنهم أن يغير رئيس الوزراء ملابسه من عدمه، ... ولم يراع لرئيس الحكومة سنًا ولا موقعًا.

كانت هذه الجلسة كاشفة في وقت مبكر (كان عمر الحكومة وقتها حوالى شهرين) عن ما ينتظر الحكومة من مواجهات مع المجلس الذى كان يسيطر عليه الإخوان والسلفيون وغيرهم ممن أطلقوا على أنفسهم قيادات التيار المدنى أو الثورى أو غيرها من المصطلحات.

المهم أنه قد تكشف في التحقيقات التى تمت بعد ذلك والمحاكمات التى أجريت أن حادث استاد بورسعيد كان مدبرًا من قبل جماعات مشبوهه قامت بالتمويل والترتيب وأخرى من صغار السن وأصحاب السوابق قاموا بالتنفيذ وأنه كان هناك سوء تنفيذ في عمليات التأمين بعدما انطلقت شرارة الأحداث والجهة الوحيدة التى لم يكن لها دور في الحادثة هى الحكومة نفسها التى أسرعت واتخذت كل الإجراءات الواجبة لمواجهة تداعيات الحادث بعدها.

كشف الحادث عن توجهات المجلس نحو الحكومة والتى بدأت هادئة في بداية أعمال المجلس والتى أشرفت الحكومة عن المرحلة الأخيرة من انتخاباته وحضرت بداية اجتماعاته وكانت تتطلع إلى تعاون معه للمرور من الأوضاع الصعبة التى كانت تمر بها البلاد.

في أكثر من مرة أظهر المجلس توجهًا عدوانيًا تجاه الحكومة ومنها ما حدث عندما اشتدت أحداث محمد محمود الثانية وأحداث حرق المجمع العلمى، وكان تجمع المتظاهرين يتم أيام الجمعة أمام وزارة الداخلية لاقتحامه وأتذكر أننى لمدة ثلاثة أسابيع متوالية وبعد صلاة الجمعة والتى عادة ما كنت أذهب بعدها إلى مكتبى في الوزارة، كنت أقوم بالاتصال باللواء محمد إبراهيم وزير الداخلية لأشد من أزره حيث كان مبنى الداخلية وهو داخله محاط بعشرات الآلاف من المحتجين مشعلى الحرائق الراغبين في اقتحام الوزارة وأتذكر أن النائب محمد أبوحامد أحضر فوارغ خرطوش إلى المجلس والذى كان في حالة هياج شديد وقال إنه وجدها بجانب من أصيبوا في مواجهات الشرطة وتناسى أن الفوارغ تسقط بجانب من أطلقها وليس بجانب من أطلقت عليه.

شاعت بعد ذلك مقولة أن الدكتور الجنزورى قال لرئيس مجلس الشعب الدكتور/ سعد الكتاتنى أن قرار حل المجلس موجود في الدرج وقد يحل في أى وقت وكانت هذه نقطة بداية جديدة للهجوم على الحكومة وظهور رغبة شديدة لدى المجلس الذى يسيطر عليه الإخوان و توابعهم من السلفيين في سحب الثقة من الحكومة.

أخبرنى وزير الداخلية أن أجهزة الأمن المتداخلة مع النواب الإخوان عرضت عليه تقارير مؤداها أن الإخوان تنفيذًا لمخططهم لإسقاط الحكومة سوف يتحينون الفرصة لتقديم استجواب لإحدى وزارات مجموعة الخدمات وحددوا بوضوح أن هؤلاء هم وزراء التضامن

الاجتماعى (جودة عبد الخالق) أو الزراعة (محمد رضا إسماعيل) أو أنا وزير النقل، والمعروف أن الوزير في الاستجواب يواجه مقدم الاستجواب ومن ينضم إليه من نواب آخرين، ومعروف أنه في أى نظام طبيعى هناك أحزاب مع أو ضد الحكومة وأن الحكومة لها كتلة تدافع عن وزرائها في المجلس ولكن هذا لم يكن هو الوضع، فقد استقطب الإخوان الجميع وأصبحت الحكومة في مواجهة الكل وتخيلت حال مناقشة استجواب يخصنى كيف أقف في مواجهة ٥٠٠ نائب في حالة ثورة عارمة وكل نائب من النواب الخمسمائة يستطيع أن يهاجمك وأنت كوزير تقف بمفردك في مواجهتهم وعليك محاذير كثيرة في لغة الخطاب والرد عليهم.... ومع أن ذلك لم يحدث إلا أنه ظل شاغلى خلال الشهور التالية.

من المفيد أيضًا التطرق إلى الاضطرابات العمالية التى كانت سائدة في هذا الوقت، وبصفتي وزيرا للنقل كانت هناك أربعة تجمعات يجب التعامل معها كونها تتحكم في مرافق حيوية في الدولة وهى عمال الموانى ومنها تتم جميع عمليات الاستيراد والتصدير، وشركات نقل الركاب بين المحافظات وهيئة النقل العام بالقاهرة (مع عدم تبعيتها لوزارة النقل) والسكك الحديدية ومترو الأنفاق، ومن المعروف أن أى توقف في عمل هذه المرافق يظهر تأثيره بوضوح خلال ساعات قليلة ويسبب شللا في عمل هذه المرافق يتأثر به الاقتصاد القومى وحياة المواطنين في أرجاء البلاد.

البداية كانت في الموانى حيث تصدر العاملون في ميناء العين السخنة المشهد باضطرابات متوالية عن العمل وتوقف أعمال الشحن والتفريغ وكانت لهم طلبات تعجيزية من حيث ساعات العمل والمرتبات وغيرها، وتلا ذلك عمال شركات نقل الركاب بين المحافظات وهى تتبع وزارة قطاع الأعمال إلا أن خدماتها تقع في إطار نقل الركاب وهى مسئولية وزارة

النقل، وكانت طلبات العاملين في هذه الشركات هى نقل تبعيتها إلى وزارة النقل مع ما يترتب على ذلك من أثار أخصها المتعلق بالأجور وقد قام عمال الموانى (العين السخنة تحديدًا) بإيقاف العمل تمامًا وكذلك فعل عمال شركات النقل.

كنت أقابل ممثلين لاتحادات العمال في هذه المرافق وكانت الاجتماعات تبدأ مع عصر كل يوم وتستمر حتى ساعات النهار الأولى في اليوم التالى وكان يشاركنى في هذه الاجتماعات الدكتور فتحى فكرى وزير القوى العاملة في هذا الوقت، وقد لاحظت أن من يحضر ممثلاً للعمال ليس هم أصحاب القرار فعلاً، أما أصحاب القرار فكان الإخوان من ناحية وكذلك المحامى خالد على، حيث كان ممثلو العمال بعد كل جولة مفاوضات يستأذنون في الخروج للتشاور ونظل أنا والوزير فتحى فكرى في انتظار عودتهم وكان مسئولو مكتبى المتابعين لهم خارج الاجتماع يستمعون لهم في محادثاتهم مع خالد على يأخذون التعليمات الداعية إلى التشدد أكثر كلما توصلنا إلى نقطة التقاء مناسبة.

وكان كل هم الإخوان في هذا الخصوص هو الضغط لإخراج ضباط القوات البحرية من الموانى المصرية سواء الضباط العاملين في مواقع للقوات البحرية داخل الموانى وهو أمر شائع أو ضباط القوات البحرية المنتدبون للعمل في الموانى ولم يسعفنى الوقت لفهم هذا العداء الشديد للقوات المسلحة المصرية من قبل الإخوان المسلمين.

الأمر نفسه تكرر من عمال هيئة النقل العام بالقاهرة والتابعة إداريًا إلى محافظة القاهرة حسبما ينص قرار إنشائها إلا أن نقابة العاملين (ويسيطر عليها الإخوان المسلمون) كانت مصرة إصرارًا شديدًا على نقل التبعية إلى وزارة النقل، يساعدهم على ذلك رئيس لجنة النقل في مجلس الشعب في هذا التوقيت المهندس/ صبرى عامر وهو الأمر الذى كنت

أعارضه على خلفية فنية وقانونية كونه مرفقا مرتبطا بمرافق أخرى في محافظة القاهرة وأن أسطوله يسير على شوارع القاهرة فضلاً على أن القانون المنشئ للهيئة ينص صراحة على تبعيتها إلى محافظة القاهرة، ومع هذه الاعتبارات دخل عمال الهيئة في أحزاب عام في ١٩ مارس ٢٠١٢ وهو الأمر الذى أصاب القاهرة بالشلل التام.

ومع استمرار الضغط المستمر من أعضاء لجنة النقل بمجلس الشعب وطلبهم دراسة الموضوع من قبل لجنة أقوم بتشكيلها، وعندما وافقت ـ من باب كسب الوقت على تشكيل لجنة ـ أصبحت القضية بعد أيام قليلة هى القفز إلى أسئلة أخرى هى: أين التقرير وما متطلبات التنفيذ والخطوات التالية لنقل التبعية دون الالتفات إلى معقولية نقل التبعية من عدمه؟ وكان هذا هو أسلوبهم في التعاطى مع العمال لاكتساب شعبية بينهم تمهيداً لاستغلال ذلك في أي انتخابات قادمة، ولم يتم نزع فتيل هذه القضية والتى بسببها توقفت أوتوبيسات هيئة النقل العام في جميع أنحاء القاهرة والجيزة من الخروج للعمل واضطررنا لاستعانة بشركات النقل الجماعى الخاصة وأوتوبيسات جهاز النقل بالقوات المسلحة إلا بعد أن قابلت الدكتور سعد الكتاتنى رئيس مجلس الشعب وقتها بتوجيه من الدكتور الجنزورى وأفهمته في هدوء القضية وملابساتها وبعد اقتناعه طلب أن أترك هذا الأمر له ليعالجه على طريقته، وهو ما كان.

من المهم الإشارة هنا إلى أنه عند شغلي لمنصب محافظ القاهرة بعد ثورة ٣٠ يونيو وجدت قادة عمال هيئة النقل العام من الإخوان مازالوا هم المتحكمين في التجمعات العمالية وقادوا إضرابين آخرين في الأول من فبراير ٢٠١٤ والثالث بداية تولى المهندس شريف إسماعيل رئاسة الحكومة إلا أننا واجهناهم بكل شدة وتم تقديم زعمائهم للمحاكمة.

كانت إحدى القضايا الأخرى التى واجهتنى مرتبطة بأعمال التطوير في طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوى، وقد بدأت المشكلة منذ عام ٢٠٠٧ عندما قررت الحكومة طرح مشروع تطوير الطريق بنظام تمويل من القطاع الخاص مقابل عقد انتفاع يتفق عليه، وفاز بالأعمال الاستشارية للمشروع مكتب استشارى أسبانى مع مكتب الدكتور ممدوح حمزة، وحقيقة الأمر أن وجود المكتب الأسبانى كان وجودًا رمزيًا والمشروع بكامله يديره مكتب حمزة ومشاركوه، وأوضح المكتب في دراستة الأولية عام ٢٠٠٧ أن تكلفة المشروع ٧٢٢ مليون جنيه وأنه يمكن أن يغطى تكاليفة من خلال رسوم المرور في عدد قليل من السنين وأقنع الحكومة أنه من الأجدر أن تتولى الحكومة تمويل المشروع بالقيمة التقديرية المشار إليها.

تطور الأمر بعد ذلك حيث وافقت الحكومة على مقترح أن تقوم هى بتمويل المشروع إلا أن الاستشارى بمساعدة لجنة إشرافية تم تشكيلها من هيئة الطرق والكبارى وخارجها قد أوصل تكاليف المشروع إلى أكثر من ٣,٥ مليار جنيه بتغييرات مستمرة واختيار مواد أكثر تكلفة وعدم السيطرة على أوامر التغيير في أعمال المقاولين، وعندما قامت الثورة توقفت الأعمال في المشروع، ووردت الكثير من التقارير الرقابية حول المشروع؛ ما دعا المجلس الأعلى للقوات المسلحة إلى طلب أن تقوم وزارة النقل بتشكيل لجنة من أساتذة الجامعات لكتابة تقرير عن الموضوع وتحديد المسئوليات ما بين هيئة الطرق والاستشارى والشركات المنفذة.

كان هذا التكليف قبل أن أتولى الوزارة وورد التقرير بعد ذلك وفيه إدانة صريحة لعدة أطراف على رأسها استشارى المشروع (حمزة ومشاركوه) مع بعض التجاوزات من قبل المالك وممثليه، وبعد عرض الأمر على الدكتور الجنزورى في وجود كبار المستشارين القانونيين في وزارة النقل ومجلس الوزراء ومنهم المستشار السيد الطحان كبير مستشارى

مجلس الوزراء والمستشار عادل الشوربجى النائب الأول لمحكمة النقض فيما بعد فقد انتهى الرأى إلى أنه يتعين على بصفتى الوزير المختص أن أحيل الأمر بكامله إلى النيابة العامة وهو ما حدث بالفعل فى إبريل ٢٠١٢ واتصل بى النائب العام في هذا الوقت المستشار عبد المجيد محمود وأخبرنى أنه ولأول مرة تصله مستندات قضية "متستفة" بهذا الشكل وأحيل الأمر إلى نيابة الأموال العامة ولا أعرف ما إذا كان قد جرى اتخاذ أى خطوات بشأن هذه المخالفات.

المهم أن نواب الإخوان ورئيس لجنة النقل في مجلس الشعب ورئيس لجنة النقل في مجلس الشورى كانت عندهم رغبة محمومة في الحصول على هذا التقرير- وقبل أن أحيله إلى النائب العام - لاستخدامه ضد الحكومة في المجلس كونه يمثل إهدارًا للمال العام بشكل صارخ يمكن أن يحرج الحكومة على الرغم من أن الحكومة هى التى شكلت اللجان المكونة من كبار المتخصصين من أساتذة الجامعات وعلى الرغم من أن كل هذه المخالفات قد تمت قبل يناير ٢٠١١ وقد وصلتنى عدة خطابات من رئيس مجلس الشعب الدكتور الكتاتنى ورئيس مجلس الشورى الدكتور أحمد فهمى وتتضمن تهديدًا واضحًا بضرورة تسليم أصل هذا التقرير إلى المجلس قبل رفعه إلى النائب العام ليقوم باتخاذ اللازم إلا أننى قررت الصمود في وجه كل ذلك إلى أن يتم إحالة الموضوع كاملاً إلى النائب العام وأخبرتهم رسميًا بذلك.

وأتذكر أنه يوم إحالة أوراق الموضوع إلى النائب العام حضر إلى مكتبى رئيس هيئة الطرق والكبارى في هذا الوقت وكان اسمه المهندس محمود عز الدين الذى كانت تربطه علاقة وثيقة بلجنة النقل في مجلس الشعب بتركيبتها الإخوانية والسلفية ورئيسها المهندس صبرى عامر حيث كانت تصلنى تقارير مفادها تواجد المهندس صبرى عامر وآخرين من النواب

الإخوان في مكتب رئيس الهيئة بشكل متكرر، وعند حضوره إلى مكتبى هدد بشكل واضح أن العاملين بالهيئة سوف يتوقفون عن العمل ويحاصرون مبنى الوزارة ومعهم شركات المقاولات العاملة في مشروعات الهيئة بمعداتها الثقيلة ما لم يتم سحب البلاغ، ومع رفضى لهذا التهديد الصريح حدث هذا التجمع بالفعل، وعرضت الأمر على رئيس الحكومة وطلبت أن تتم إقالته فورًا ووافق سيادته دون تردد وتم غلق مكتبه ومنعه من دخول مبنى الهيئة وتعيين قائم بأعمال جديد خلال ساعات قليلة.

كانت أيام الحكومة كلها تحديات من كل نوع، ومثال ذلك أتذكر أننى منذ توليت الوزارة في ٧ ديسمبر ٢٠١١ كنت أتابع مع قيادات الهيئة القومية للأنفاق أعمال التشغيل التجريبى للمرحلة الأولى من الخط الثالث لمترو الأنفاق وهى المرحلة التى تبدأ من العتبة حتى ميدان العباسية وكلها على شكل نفق تحت الأرض بالإضافة إلى محطات جديدة في العتبة وميدان عبده باشا والعباسية وتم شراء قطارات مترو جديدة للعمل عليها وبلغت تكلفة كل الأعمال وقتها ما يقرب من ٤,٧ مليار جنيه.

مع اكتمال جميع تجارب التشغيل بنجاح والحاجة إلى إدخال الخط في الخدمة للاستفادة من الاستثمارات التى تمت وارتباط ذلك باستكمال شروط تعاقدات سابقة ثم عرضت الأمر على الدكتور الجنزورى لتحديد مستوى الافتتاح حيث المشروع من الضخامة بحيث يمكن أن يفتتحه رئيس الدولة والمتمثل وقتها في المشير طنطاوى أو رئيس الوزراء على الأقل، طلب منى الدكتور الجنزورى التنسيق مع مكتب المشير طنطاوى وبالرغم من وجود ترحيب بالفكرة إلا أن القرار فيما بعد أن يكون الاحتفال بحضور رئيس مجلس الوزراء وتحدد يوم ٢٢ فبراير ٢٠١٢ لهذا الغرض.

اتضح فيما بعد أن يوم ٢٢ فبراير يوافق يوم الطالب العالمى وأن هناك ترتيبات لأعمال تظاهر طلابية أساسها جامعة عين شمس القريبة جدًا

من محطة العباسية .. وكانت تقديرات أجهزة الدولة وقتها بعد أن أعلنا عن موعد الافتتاح باليوم والساعة أنه يتعذر المخاطرة بوجود رئيس الوزراء في موقع الاحتفال والمحدد له محطة العباسية على عمق ٣٠ مترا تحت الأرض وأخطروا الدكتور الجنزورى بذلك ليكلفنى بحضور الاحتفال بصفتى الوزير المختص وطلبت منه أن يكون ممثلا سيادته هو أقدم السادة الوزراء في هذا الوقت الدكتور حسن يونس، كما طلبت الأجهزة المختصة أن يتغير موعد الافتتاح ليبدأ مبكرًا في الثامنة صباحًا على أن ينتهى قبل الساعة العاشرة وكان موعد العاشرة هو الذى سبق وأن أخطرنا به المدعوين وبعضهم من السفراء وممثلى الاتحاد الأوروبى وجهات التمويل والقيادات العليا للشركات الفرنسية القائمة على التنفيذ والقادمين من باريس لهذا الغرض، وكان التقدير وقتها أننا يجب أن ننتهى من جميع الفعاليات ومغادرة المكان قبل العاشرة صباحًا حيث إن المتوقع أن يكتمل شمل التجمعات الطلابية ما بين العاشرة والحادية عشرة صباحًا وأن معلومات هذه الأجهزة أنه من الممكن أن يشرع الطلاب في إغلاق مخارج المحطة وإبقاء كل المشتركين في الاحتفال على عمق ٣٠ مترا تحت الأرض.

كنت قد طلبت من الدكتور الجنزورى أيضًا عندما كلفنى بإتمام الافتتاح الإبقاء على مستوى الاحتفال كما هو كما لو كان رئيس الوزراء هو الحاضر وقد وافق وعليه استمر المسئولون عن مراسم مجلس الوزراء في الإشراف على جميع مراحل الافتتاح التى تم جزء منها في محطة مترو الأنفاق الجديدة في العباسية ثم تبعه رحلة بأول قطار يتحرك من محطة العباسية إلى محطة العتبة والعكس في نفق طوله ٤,٣ كيلومتر على عمق يتراوح بين ٢٠ و٤٠ مترًا تحت الأرض.

كان مسئولو مراسم مجلس الوزراء في عجلة شديدة من أمرهم، وطلبوا اختصار الكلمات وإلغاء بعض الفقرات وكانوا ورجال الأمن في استخدام

دائمًا لأجهزة اللاسلكى حيث كانت شبكة التليفون المحمول لا تعمل وقتها على هذا العمق وكنت أسمعهم عن بعد يبلغون جهة ما أننا كلنا بخير وأننا انتهينا من جزء ما من الاحتفال وبدأنا في الجزء التالى، ثم عندما ركبنا القطار وعند مغادرتنا له وهكذا.

وعقب العودة إلى محطة العباسية قادمين من العتبة، التفت حولى أجهزة الإعلام ومع أهمية التحدث إليهم ليعرف المواطنون بمشروع كبير يدخل الخدمة بعد الافتتاح مباشرة، كانت هناك رغبة شديدة من مسئولى مجلس الوزراء بالاختصار أو حتى إلغاء اللقاء وفوجئت مع نهاية أسئلة رجال الإعلام أنه قد تم تقريبًا إخلاء كل الحضور ومغادرتهم المحطة فيما عدا أنا والدكتور عبد القوى خليفة محافظ القاهرة، وعند مغادرتنا طلبوا أن نستخدم المصعد بدلاً من السلالم حيث إن هناك تجمعات في الميدان قد تكونت حول مخارج السلالم حيث إن هذه التجمعات لن يسعفها الوقت حال تغيير طريقة خروجنا للانتقال من مخارج السلالم إلى المصعد وهو في العادة مخصص لمتحدى الإعاقة وليس بالضخامة التى تلفت إليه الأنظار.

وعند استقلال المصعد الوحيد من مستوى المحطة إلى مستوى الميدان سمعنا أثناء الصعود أصوات كثيرة قادمة من أعلى وتتزايد حدتها كلما اتجهنا إلى أعلى وكان المتوقع أنها لمظاهرات عارمة تستهدف مسئولين كبار وتنتظرهم لهذا السبب، وكانت المفاجأة عندما فتحنا الباب وكان قد سبقنا بعض المسئولين قبلها للتأمين أن التجمع كان لرجال وسيدات وشباب حى باب الشعرية البسطاء وأطلقت السيدات الزغاريد احتفالاً بخط المترو الجديد ووصوله إلى منطقتهم، ولم أصدق نفسى واندفع العشرات منهم لمعانقتى وشكرى والحكومة على هذا الإنجاز.

أصر مسئولو مجلس الوزراء أن أذهب مباشرة بعد انتهاء الاحتفال إلى الدكتور الجنزورى في مقر مجلس الوزراء المؤقت في هيئة الاستثمار وكنت

بالفعل أخطط للذهاب لتسليمه هدية تذكارية كنا قد أعددناها لسيادته عند حضوره الاحتفال.

كان إصرار مسئولى مجلس الوزراء لسبب آخر عرفته عند دخولى إلى مكتب رئيس مجلس الوزراء وكان معه وزير الداخلية اللواء محمد إبراهيم يوسف وكانا في حالة قلق بالغ عند وصولى وعانقانى عند وصولى المكتب وعرفت وقتها أن الدكتور الجنزورى كان يتابع مع مسئولى مجلس الوزراء خطواتنا تحت الأرض لحظة بلحظة وكذلك رحلتنا بالقطار وأنه هو الذى طلب إبلاغى بالذهاب إليه مباشرة حيث كانت المعلومات التى لديه هو أنه كان هناك ترتيب لعمل ما لإفساد هذه الاحتفالية.

جرت انتخابات رئاسة الجمهورية في الشهور الثلاثة الأخيرة من عمر وزارة الجنزورى وكان هناك خمسة مرشحين رئيسيين هم أحمد شفيق ومرسى وأبو الفتوح وعمرو موسى وحمدين صباحى بعدما تم إخراج كل من عمر سليمان والشيخ حازم أبو اسماعيل من السباق لأسباب إجرائية.

كان موقف الحكومة الوقوف على الحياد تمامًا، خاصة أنه كانت الانتخابات نفسها مسئولية اللجنة العليا للانتخابات برئاسة المستشار فاروق سلطان رئيس المحكمة الدستورية في هذا الوقت وكان أمين عام اللجنة العليا للانتخابات هو المستشار حاتم بجاتو أحد نواب رئيس المحكمة الدستورية، وحدث ما حدث من خروج عمرو موسى وأبو الفتوح وحمدين صباحى من الجولة الأولى وأصبحت الإعادة بين أحمد شفيق ومرسى تمثل معضلة شديدة من حيث إن الأول يمثل امتدادا لنظام مبارك وكان جزءًا منه والثانى يمثل الإخوان المسلمين بتاريخهم الدموى المعروف ورغبتهم الاستحواذية وانتهازيتهم واختطافهم لثورة ٢٥ يناير.

ودون الدخول في تفاصيل ما تم في هذه المرحلة لأنه مدون ومعروف، وفيما يخص الحكومة تحديدًا كنا نرى أن مشاركة المواطنين بشكل إيجابى

هو الوسيلة الوحيدة لضمان نجاح التيار الذى يبعد عن مصر شبح الدولة الدينية، ومن ضمن ما قررناه مثلاً زيادة فترة التصويت إلى ثلاثة أيام بقرار من اللجنة العليا للانتخابات ومنح إجازات لموظفي الحكومة المسجلة أسماؤهم في كشوف الانتخاب بعيداً عن مقر أعمالهم والسفر المجانى في السكك الحديدية وشركات نقل الركاب التابعة للحكومة والقطاع العام وكانت هذه تكليفات مجلس الوزراء إلى وزير النقل شخصيًا وتم تنفيذها.

جرت الانتخابات وكانت صيفًا، وبكل أسف استغل الكثيرون من كبار العاملين وغيرهم من الطبقة الوسطى أيام الانتخابات في ١٦ و ١٧ يونيه وكانت متصلة مع إجازة يوم الجمعة في السفر إلى الساحل الشمالى وباقى المصايف وكانت الحكومة تحاول بشتى الطرق حث هؤلاء على العودة والإدلاء بأصواتهم وأتذكر أن من عاد منهم لهذا السبب وصل مساء آخر يوم من أيام الاقتراع والذى تم تمديده أيضًا لمزيد من المشاركة من هذه الطبقة تحديدًا.

فجر اليوم التالى لإجراء الانتخابات ظهر الدكتور مرسى على وسائل الإعلام كما ظهر "قادة قضاة من أجل مصر" وأعلنوا نجاح مرسى قبل أن تكتمل إجراءات فرز الأصوات بشكل كامل وقبل تجميعها وكان ميدان التحرير قد امتلأ تمامًا بأنصار مرسى ويقال إنه كانت هناك أسلحة مخزنة في مطابق الصرف الصحى أسفل الميدان للتصادم مع السلطة حال عدم إعلان فوز مرشح الإخوان.

ذهبت مساء اليوم نفسه الذى أعلن فيه مرسى بنفسه أنه نجح وذلك لتقديم واجب العزاء في مسجد آل رشدان، وعند جلوسى في صف يطل على الممر الأوسط وهو الذى يصل إلى واجهة مكان العزاء، فوجئنا جميعًا بدخول الدكتور مرسى إلى مكان العزاء وجلوسه في الكرسى المخصص لمندوب رئيس الجمهورية وعقب جلوسه شاهدنى وقام متوجهًا إلى

وعانقنى ولم أكن قد قابلته إطلاقًا قبل هذا التاريخ ولكننى كنت وزيرًا في الحكومة وأظهر في وسائل الإعلام بهذه الصفة ووجهى مألوف للعامة، وعندما شاهد ذلك الوزير أسامة هيكل وكان يجلس في الجانب الآخر، جاء إلى مستغربًا ما حدث معى متصورًا أن بينى وبين مرسى معرفة قديمة، ففوجئ هو أيضًا بالدكتور مرسى يعانقه بنفس الطريقة.

أعلنت اللجنة العليا للانتخابات فوز الدكتور محمد مرسى بتاريخ ٢٤ يونيه ٢٠١٢ في بيان ما زلت أتذكر كلماته وخاصة ما ورد في مقدمته على لسان رئيسها المستشار فؤاد سلطان.

كنت وقت إعلان اللجنة العليا للانتخابات فوز الدكتور مرسى بالرئاسة في مكتبى وكانت البلاد كلها في حالة ترقب شديد وأتذكر أن معظم العاملين في المصالح الحكومية ومنها وزارة النقل قد غادروا مبكرًا في ترقب لإعلان النتيجة.

وعند إعلان النتيجة فعليًا وبعد الصدمة الأولى، بدأت في التفكير في مغادرة المكتب وكانت توقعاتى أن أرى البلد كلها في حالة وجوم واستغراب للنتيجة، وما رأيته في الطريق كان عكس ذلك حيث خرجت مسيرات للسيارات بالأعلام مصحوبة بإطلاق آلات التنبيه تعبيرًا عن فرحة قطاع كبير نجح الإخوان في استقطابهم سواء نكاية في النظام السابق أو حبًا وإيمانًا بالإخوان أنفسهم.

ذكرت في موقع آخر ما حدث من اجتماع الحكومة قبل حلف اليمين الدستورية من قبل الرئيس المنتخب وإعداد كتابة الاستقالة ومغادرة الدكتور الجنزورى لتقديمها إلى المشير طنطاوى وانتظارنا نحن الوزراء لحين عودته وما حدث من لقاء لسيادته مع سيادة المشير والرئيس المنتخب

وطلبهما منه استمرار الحكومة لحين اختيار رئيس الحكومة الجديد وحلف اليمين وأنه وفقًا للدستور فإننا بالفعل حكومة البلاد وعلينا الاضطلاع بمسئوليتنا وفق ذلك.

بعد أن قام الدكتور مرسى بحلف اليمين الدستورية ثلاث مرات؛ مرة في ميدان التحرير في ٢٩ يونيه ومرة في جامعة القاهرة ومرة أخرى أمام المحكمة الدستورية دعا إلى اجتماع للحكومة وقد أصبح رئيسًا للجمهورية وعاد المشير طنطاوى إلى منصبه، وزيرًا للدفاع بعد أن قام بمهام رئيس الجمهورية منذ ١١ فبراير ٢٠١١ حتى ٣٠ يونيو ٢٠١٢. في هذا الاجتماع جلس الدكتور الجنزورى على يمين الرئيس والمشير طنطاوى على يساره وجلس باقى الوزراء بحسب أقدمياتهم وحضر أيضًا اللواء مراد موافي رئيس المخابرات العامة في هذا الوقت.

وأعاد الرئيس الجديد علينا ما سبق وقاله للدكتور الجنزورى حين ذهب لتقديم استقالة الحكومة قبلها بأيام وأكد أننا الحكومة القائمة وعلينا الاضطلاع بمسئوليتنا طبقًا لذلك.

وقد لفت نظرى في هذا الإجتماع محاولات الدكتور مرسى الواضحة للحصول على تمويل من القوات المسلحة لمواجهة العجز المالى الكبير الذى كان موجودًا في هذا الوقت وكان يقدم بتوجيه حديثه في هذا الشأن إلى المشير طنطاوى الذى كان يوضح أن أموال القوات المسلحة مرتبط بها في خطط تطوير وتسليح الجيش المصرى.

ولفت نظرى أيضًا المحاولات التى قام بها رئيس المخابرات العامة لشرح خطورة الأوضاع في سيناء ولم يتح له الدكتور مرسى الفرصة لعرض ما لديه من تخوفات مما يحدث هناك، وأعاد اللواء موافي على مسامع الرئيس هذا الطلب بعد انتهاء الاجتماع والجميع في طريقهم للخروج من القاعة، ولكن دون جدوى.

أثناء الاحتفال الذى تم في جامعة القاهرة في ٣٠ يونيه ٢٠١٢ وقام فيه الدكتور مرسى بحلف اليمين الدستورية في واحدة من المرات الثلاث التى حلف فيها اليمين بغض النظر عن أيها هو فعلاً اليمين الدستورى الذى يعتد به، أتذكر واقعتين مازالتا في الذاكرة.

الأولى تتعلق بالمرشد العام الدكتور محمد بديع وكنت قد بدأت أسمع اسم الدكتور بديع حوالى عام ١٩٩٤ أى قبل واقعة هذا الاحتفال بحوالى ١٧ عاما، وقابلته في مناسبة كدت ألا أتذكرها لولا أنه عندما شاهدنى في الاحتفال أعادها إلى ذاكرتى. ففي عام ١٩٩٤ حين كنت عميدًا لكلية الهندسة جامعة القاهرة في الفيوم وعرض على الطلاب أن تنظم الكلية لقاءً لهم يحاضر فيه أحد الأساتذة، ووافقت طالبًا منهم تحديد من يجدوه مناسبًا وذكروا لى اسمًا لأحد أساتذة جامعة القاهرة في بنى سويف ودعوناه وأعطى المحاضرة في نشاط طلابى متكرر كنا نقوم به في هذا الوقت.

في العام التالى ١٩٩٥ عرض على الطلاب نفس الفكرة ورشحوا الاسم نفسه الذى كنت مازلت أتذكره كونه ليس اسمًا متكررًا، ووافقت وحضر وأعطى المحاضرة وكنا في رمضان. كان هذا اليوم هو اليوم الذى حددته الكلية لحفلها السنوى للإفطار الذى ندعو فيها قيادات الجامعة والمحافظة والقيادات الدينية من المسلمين والمسيحيين للإفطار، قبل الإفطار بحوالى ساعة تذكرت أن عندنا أستاذ من بنى سويف يعطى محاضرة (لم أحضرها) ولكن من الواجب إذا كان مازال موجودًا أن ندعوه لتناول الإفطار معنا، وقد كان، ودعوناه وحضر وغادر بعد الإفطار مباشرة عائدًا إلى بنى سويف.

في الاحتفال بجامعة القاهرة وبينما أنا جالس في الصف الثالث قرب الممر الذى يفصل صفوف منتصف القاعة عن الصفوف على اليمين

والشمال مر بجانبى المرشد العام الدكتور محمد بديع وكان مكانه المخصص في الصف الأول أو الثانى من ناحية الشمال ومعه المرشد السابق مهدى عاكف وربت على كتفى وهو سائر إلى حيث المكان المخصص له، وعندما تقدمت للسلام عليه همَّ فعانقنى وكنت لا أتذكر أننى شاهدته من قبل إلا في وسائل الإعلام حينما تم اختياره مرشدًا عامًا في عام ٢٠١٠، إلا أنه باغتنى قائلاً، "إحنا أكلنا مع بعض عيش وملح يادكتور مصطفى"، وهذه كانت واقعة مرت عليها سنوات عديدة، وأعطانى أرقام تليفوناته وطلب منى أن اتصل به لأنه يكن لى احترامًا خاصًا بحكم الوقائع التى سردها وكنت قد نسيتها تمامًا بمرور السنين، لم أتصل به فيما بعد حتى تركت الحكومة وكان يمكننى الاستفادة من هذه العلاقة حيث يعرف الجميع الآن مدى النفوذ التى كان يتمتع به المرشد العام داخل الجماعة وصلاحياته المطلقة في إدارة أمورها.

من الوقائع التى أتذكرها أيضًا أن تنظيم الحفل الذى تم في قاعة الاحتفالات الكبرى في جامعة القاهرة قد تم بقيادات إخوانية وطلابية بشكل تام وأن الصفوف الخلفية وكل الشرفات العلوية كانت مملوءة بكوادر شبابية وإخوانية ظلت تردد بشكل مستمر عبارة" يسقط يسقط حكم العسكر"، ومع قرب وصول رئيس الجمهورية دخل إلى القاعة أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة ماعدا المشير طنطاوى والفريق عنان رئيس الأركان حيث سيدخلون قبل الرئيس مباشرة، ومع دخولهم زادت الكوادر الإخوانية من وتيرة الصوت ودرجتة بشكل بدا كما لو كان يهز القاعة كلها، كان بالقرب منى اللواء حسن الروينى قائد المنطقة العسكرية وقتها وبدا أن اللواء الروينى منزعجًا جدا من الهتافات وبدا يلوح لهم بالتوقف دون جدوى وبدا عليه الحزن الشديد من هذه الهتافات، ورد في معرض طلبى وطلب الحضور المجاورين له ألا يلتفت لهم لأن هناك توجيهات حتمًا قد صدرت إليهم لفعل ما يقومون به، وكان رده الذى لا أنساه هو: مش مهم

يقولوا ما يقولون الآن ولكننى أخشى أن يستمر هذا الهتاف في مواجهة المشير عند دخوله القاعة وهو ما حدث بالفعل رغم المحاولة الظاهرية لمن كان منوط به أمر الإذاعة الداخلية في جامعة القاهرة لإثنائهم عن ذلك.

استمرت حكومة الجنزورى في العمل حتى الأربعاء الأول من أغسطس عام ٢٠١٢ وتم تشكيل الحكومة الجديدة برئاسة هشام قنديل وحلفت اليمين الدستورية في اليوم التالى.

والآن وأنا أعود إلى الوراء أنظر إلى هذه التجربة الثرية بكل فخر لاشتراكى مع الدكتور الجنزورى وكتيبة من المصريين الأشداء الذين تصدوا لمسئولية تاريخية في ظروف غاية في الصعوبة وكانت فترة فارقة ما بين وطن يعانى من انهيار تام في جميع القطاعات وبين وضع أكثر استقرارًا تمت فيه السيطرة على اضطرابات الميادين وإتمام انتخابات المجالس النيابية وانتخابات رئيس الجمهورية.

بالتأكيد لم تكن نتائج الانتخابات مرضية لكل قطاعات الشعب وبخاصة من هم من أنصار الدولة المدنية الرافضين لمبدأ الدولة الدينية. ولكن عذر من اختار الإخوان ما قالوه لباقى شركاء ثورة يناير من أن الحكم مشاركة لا مغالبة .. إلا أنهم انقلبوا بعد ذلك على الجميع، وبدأت أكبر عملية إقصاء لجميع أصحاب التوجهات المدنية حتى أنصار الدولة الدينية ولكن بمفهوم مختلف مثل السلفيين الذى انقلب عليهم الإخوان كذلك.

أداء اليمين الدستورية وزيراً للنقل أمام المشير حسين طنطاوى رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى ٧ ديسمبر ٢٠١١

صورة تذكارية لحكومة الإنقاذ الوطنى برئاسة الدكتور كمال الجنزورى ٧ ديسمبر ٢٠١١

مع المشير حسين طنطاوى عقب أداء اليمين الدستورية ٢٠١١

أعضاء حكومة الإنقاذ الوطنى ينطلقون إلى مهامهم عقب أداء اليمين الدستورية

لقاءات أعضاء حكومة الإنقاذ الوطنى بعد انتهاء مهمة الحكومة فى ٢ أغسطس ٢٠١٢

لقاءات أعضاء حكومة الإنقاذ الوطنى بعد انتهاء مهمة الحكومة فى ٢ أغسطس ٢٠١٢

مع الدكتور كمال الجنزورى فى زيارة خاصة ٢٠١٩

الفصل الثاني عشر

هشام قنديل

رئيس وزراء حكومة الإخوان

هشام قنديل
رئيس وزراء حكومة الإخوان

عرفت هشام قنديل للمرة الأولى يوم حلف اليمين في حكومة الدكتور الجنزوري ظهر يوم الأربعاء ٧ ديسمبر٢٠١١ حيث جاورني في أول اجتماع لمجلس الوزراء والذي انعقد برئاسة المشير طنطاوى بصفته رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة وهو المجلس الذي كان يدير البلاد في هذه الفترة بناءً علي ما ورد في بيان تخلى الرئيس حسني مبارك عن السلطة في ١١ فبراير ٢٠١١ وتكليف القوات المسلحة بإدارة شئون البلاد.

الدكتور هشام قنديل كان وزيرًا للموارد المائية في حكومة عصام شرف ودخل الوزارة بهذه الصفة في يوليو عام ٢٠١١ واستمر في حكومة الدكتور الجنزورى وهو شخصية هادئة، حاصل على بكالوريوس الهندسة المدنية من جامعة القاهرة عام ١٩٨٤ وهو بالصدفة في الدفعة نفسها التى تخرجت فيها أصغر شقيقاتى وهى الآن أستاذ في كلية الهندسة جامعة القاهرة وكذلك هى الدفعة نفسها التى تخرج منها زوج شقيقة زوجتى وما يتذكرونه عنه في هذه الفترة ليس بالكثير، فقد كان طالبًا من الطلبة العاديين ولا يلفت الانتباه إلا بالقصر النسبى لقامته وتحركاته السريعة والمستمرة في مدرجات الدراسة بين المحاضرات.

جاورنى في جميع اجتماعات مجلس الوزراء بصفته كان الأحدث من حيث الأقدمية بين من بقي من وزراء حكومة عصام شرف وكنت أنا الأقدم

من بين ١٤ وزيرًا جديدًا في حكومة الدكتورالجنزورى حيث شغلت قبلها موقعي المحافظ ورئيس الجامعة وكلتا الوظيفتين بدرجة وزير ومن هنا جاءت أقدميتى بين الوزراء الجدد.

مجاورتي للدكتور هشام قنديل في مجلس الوزراء مكنتنى من التحاور معه ومعرفته أكثر مما عرفت باقى الوزراء، ما عدا من كنت قد عرفتهم من قبل بحكم وظائفي السابقة أمثال الدكتور حسن يونس وزير الكهرباء والسفيرة فايزة أبو النجا وزير التعاون الدولى والدكتور أحمد فتحى البرادعى وزيرالإسكان وكان يشغل قبل ذلك موقع محافظ دمياط.

هشام قنديل حاصل على الدكتوراه من جامعة نورث كارولينا في الولايات المتحدة في الموارد المائية وعمل بالمركز القومى لبحوث المياه التابع لوزارة الموارد المائية والري، واستمر في الوزارة إلى أن تقلد منصب مدير مكتب الدكتور محمود أبو زيد وزير الموارد المائية قبل أن يعار إلى البنك الأفريقى للتنمية إلى أن تم اختياره وزيرًا من قبل الدكتور عصام شرف، ويقول زملاؤه في المركز القومى لبحوث المياه إن هذا الاختيار لم يكن متوقعًا على الإطلاق وأنه أصابهم جميعًا بالدهشة.

هشام قنديل لا يلفت الانتباه بحكم أنه لا يمتلك ملكات خاصة، ليست له صفات قيادية ظاهرة وهو غير مهتم كثيرًا بارتداء ملابس فاخرة أو متناسقة، كثير السفر خارج البلاد وغالبًا إلى إفريقيا ودول حوض النيل على وجه الخصوص وينتهز أي فرصة لأداء العمرة في إطار رحلاته الخارجية، ويحلق شعره تمامًا مع استمراراللحية كلما أدى العمرة، وليست له أي جاذبية أو هيبة غير التى يتمتع بها الشخص المعتاد.

ومع اقتراب انتخابات الرئاسة التى كان مرشحًا لها عدة أشخاص وانتهت إلى الإعادة ما بين الدكتور مرسى والفريق شفيق، كثيرًا ما كنت

أبحث عن صور الدكتور مرسي ضمن الأخبار المنتشرة على المواقع الإخبارية وأسأله مشيرًا إلى إحدى صوره هل يصلح الدكتور مرسي فعلاً أن يكون رئيسًا لجمهورية مصر وهى الدولة الكبيرة والمحورية في المنطقة كلها، ولم يكن مرتاحًا لتعليقاتى ولكنه لم يكشف أيضًا عن تعاطفه معه أو مع الإخوان بشكل واضح.

ومثلما لم يكن مرتاحًا لذلك، فلم يكن مرتاحًا أيضًا عندما أعرض عليه صور مماثلة للبلتاجى في مناقشاته في مجلس الشعب مشيرًا إليه بلقب "البلطاجى" كما كان البعض يصفه في هذه الأوقات.

وحسبما أتصور فإن العلاقة بينه وبين الدكتور مرسى قد أخذت تتطور بعدما تم انتخابه وتوليه الرئاسة بالفعل وخاصة أثناء مرافقته له في زيارته الأولى لأثيوبيا في شهر يوليو ٢٠١٢ والتى رافقه فيها أيضًا وزير الخارجية محمد كامل عمرو والذى كان قد طلب منى تقريرًا للعرض على الدكتور/ مرسى في شأن مساهمات مصر في طريق الإسكندرية كيب تاون الذى يجرى الحديث عنه من وقت لآخر.

كان الدكتور هشام قنديل بحكم منصبه وزيرًا للموارد المائية والري عضوًا في اللجنة العليا لنهر النيل بمجلس الوزراء التى يرأسها رئيس مجلس الوزراء وتضم وزراء الخارجية والري والكهرباء والنقل وممثلين من الأجهزة الأمنية المختلفة، وكان يعرض في كل اجتماع تطورات مشروع سد النهضة بناء على ما انتهى إليه من مداولات وزيارات متعددة ومناقشات مع المسؤلين في إثيوبيا وباقى دول حوض وادى النيل، وأتذكر أن كلامه كان متشابهًا في كل الاجتماعات حيث كان من الممكن توقع ما سيقوله في كل اجتماع حيث إنه لا يختلف كثيرًا عما قاله في الاجتماع السابق بالرغم من أنه قد يكون قد سافر إلى إثيوبيا أو السودان أو أحد دول حوض النيل الأخرى أكثر من مرة ما بين كل اجتماع والآخر.

ومثلما كان د. هشام قنديل مكلفًا بتجهيز الملف الخارجى بسد النهضة وقضايا نهر النيل قبل سفر الدكتور مرسى إلى إثيوبيا في يوليو ٢٠١٢، كنت أنا مكلفًا بإعداد الملف الخاص بالتعاون مع الصين في مشروعات البنية الأساسية في قطاع النقل (الطرق والموانى والسكك الحديدية) وجاء التكليف في لقاء دعانى إليه الدكتور/ مرسى في رئاسة الجمهورية صباح يوم الثلاثاء ٢٤ يوليو ٢٠١٢ تمهيدًا لزيارة مماثلة سيقوم بها إلى الصين في سبتمبر من نفس العام.

وفي هذا اللقاء الذى استمر أكثر من ساعتين تطرق معى الدكتور مرسى لعدة موضوعات وتم الاتفاق على الملامح الرئيسة للتقرير المطلوب تقديمه حيث كان يرغب أن يبدأ تعاون مصر الدولى بمشروعات ضخمة مع الصين على وجه التحديد وفي هذا اللقاء أيضًا ترك الدكتور مرسى مكتبه حيث يجرى الاجتماع إلى غرفة مجاورة وأخبرنى أنه سيتحدث مع الدكتور الجنزورى في شأن عاجل وعاد لاستكمال الاجتماع.

وأتذكر أنه في هذا اللقاء أيضًا دخل إلى مكتب الرئيس الدكتور عصام الحداد وكان مساعدًا للرئيس للشئون الخارجية وأول من دخل معه مقر الرئاسة في ٢٥ يونيه ٢٠١٢ عندما حضر لتفقد مكتبه قبل حتى أن يؤدى اليمين الدستورية، واستأذن الدكتورعصام الحداد الرئيس مرسى في مقاطعة الاجتماع لمعرفته بتواجدى وأخبرالرئيس أنه يعرفنى من قبل وبالفعل قابلنى معانقًا.

ولمعرفتى بالدكتور عصام الحداد قصة طريفة؛ حيث إنه كان رئيسًا لمجلس إدارة الشركة العربية للتنمية وهى شركة متخصصة في تنظيم المعارض والمؤتمرات ومقرها كان في شارع الرياض في المهندسين، متفرعًا من شارع سوريا، وعندما كنت أمينًا عامًا للمؤتمر القومى الأول للنقل في مصر والذى عقد في يناير ٢٠٠٢ وقت تولى الدكتور الدميرى وزارة النقل فقد رشح لنا الدكتور محمد رشاد المتيني الأستاذ في جامعة القاهرة

وعضو اللجنة المنظمة للمؤتمر هذه الشركة لتنظيم المعرض المصاحب للمؤتمر، وهو ما تم بالفعل حيث تم تنظيم المعرض والمؤتمر في مقر هيئة الطيران المدنى وحضر حفل الافتتاح رئيس مجلس الوزراء في هذا الوقت الدكتور عاطف عبيد وأكثر من نصف مجلس الوزراء، ويبدو أن علاقة الدكتور المتينى مع الحداد كانت ممتدة قبل وبعد هذا المؤتمر، حيث إنه هو الذى تولى وزارة النقل في أول حكومة للإخوان بعد ذلك في أغسطس ٢٠١٢.

وأتذكر أنه خلال تفقد رئيس مجلس الوزراء للمعرض أن تصرفات الدكتور عصام الحداد وباقى من عمل معه في التنظيم من العاملين في شركته كانت ملفته للنظر لاحظت أنه مع بداية وصول رئيس مجلس الوزراء للمعرض وبالرغم من أنه كان من المفروض أن يقوم بالشرح لسيادته كل من وزير النقل (الدكتور الدميرى) وأنا بصفتي أمين عام المؤتمر، إلا أن تصرفات عصام الحداد وفريقه كانت كما لو كانوا هم أصحاب المعرض مع أن دورهم كان منحصرًا في تخصيص المساحات وتحصيل الاشتراكات من العارضين لصالح الوزارة ومعظمهم من هيئات وشركات وزارة النقل ولم يكن لشركتهم أي فضل في نجاح المعرض أو زيادة عدد العارضين، ولكنى لاحظت نزعه واضحة إلى الظهور إعلاميًا والتبرع بالشرح والتوضيح عند أي سؤال واستباق رئيس الوزراء والحديث معه عند انتقاله من مكان إلى آخر كما لو كانت هناك رسالة مطلوب توصيلها من هذا السلوك لجهة ما، وقد لاحظ ذلك اللواء على محرز المسؤل عن مراسم مجلس الوزراء وسألني عنه وما علاقته بالزيارة وهل هو من العاملين في الوزارة أو لا؟ وعندما أخبرته بحقيقة الأمر تولى هو إبعاده تمامًا عن مسار رئيس مجلس الوزراء بطريقة واضحة وصريحة وخشنة إلى حد ما.

مع نهاية الاجتماع من الدكتور/ مرسي غادرت مبنى الاتحادية على أن يتم ترتيب موعد آخر يتم إبلاغى به لأعرض عليه الشكل النهائى للملف الذى سيتم تجهيزه لزيارة الصين، وأتذكر أنني عند مغادرتي مبني الاتحادية ظللت فترة في انتظار أن تفتح بوابة الخروج ولكن الحرس على البوابات أخبروني أن أحد أمناء الرياسة سيحضر الآن لإبلاغي برسالة ما، وقد كانت الرسالة مرتبطة بتحديد الموعد التالى مع الرئيس وكان محدداً له يوم الثلاثاء الموافق ٣١ يوليو ٢٠١٢.

خرجت من الاتحادية إلى مقر مجلس الوزراء المؤقت في وزارة الاستثمار، حيث من المفترض أن يكون هناك اجتماع قد بدأ في العاشرة صباحًا للجنة العليا لمياه نهر النيل وأنا أحد أعضائها وبسبب التأخر الذى توقعته نتيجة استدعائى إلى الاتحادية فقد أبلغت مجلس الوزراء أننى قد أتأخر وتوقعت أن يكون الاجتماع قد بدأ بالفعل في موعده وأننى متأخر بساعة كاملة على الأقل عن الاجتماع إلا أن الاجتماع لم يكن قد بدأ حتى وصولى بالرغم من وجود جميع أطرافه في قاعة الاجتماعات.

كانت هناك همهمات بين المتواجدين بالقاعة لم أفهمها وكان رئيس الوزراء ما زال في غرفته التى يفصلها باب عن غرفة الاجتماعات، ومع بداية الاجتماع سارت الأمور كما هو معتاد من شرح لوزيري الخارجية والري عن الأمور المرتبطة بمشروعات نهر النيل وكذلك ممثلى أجهزة الأمن التى تحضر الاجتماع.

بعد بداية الاجتماع بحوالى نصف ساعة ناول الدكتور الجنزورى والذي كان يجلس على رأس طاولة الاجتماع ورقة صغيرة مكتوب فيها ومطوية إلى الدكتور حسن يونس وزير الكهرباء وكان يجلس على الجانب الأيمن لرئيس مجلس الوزراء والعمودى على منصة الرئيس ويسبقنى من حيث الأقدمية في الجلوس وعلى الجانب المقابل كان يجلس وزير الخارجية

ويليه وزير الري بحيث إن وزير الخارجية كان يقابل وزير الكهرباء وأنا أقابل وزير الري ويلينا باقى الحضور على كل جانب وكان يفصلنا، وزير الكهرباء وأنا عن وزيري الخارجية والري مسافة لا تتعدى مترا ونصف إلى مترين ونواجه بعضنا بعضا.

طريقة تبادل الورقة بين الدكتور الجنزورى والدكتور حسن يونس ولغة العين والجسد المصاحب لها كانت توحى بأن يطلع الدكتور يونس عليها فقط دون الإفصاح عما بها، وقد كان، وابتسم وأومأ برأسه للدكتور الجنزورى ووضعها مطوية في جيبه.

بعد دقائق وبإيماءة أخرى من الجنزورى للدكتور يونس، كانت المفاجأة، أن قال الدكتور حسن يونس باركوا للدكتور هشام هو الآن المكلف بتشكيل الحكومة الجديدة، وكانت مفاجأة بالفعل وكان رد فعلى التلقائى أن قلت: هشام مين؟ ده؟ مشيرًا إلى هشام قنديل وقد حاولت أن أقنع نفسى أن أحدًا لم يلاحظ أو يسمع ما قلت، إلا أن هذا التصرف من جانبي كان هو تمامًا قناعتى الشخصية حكمًا على هذا الاختيار العجيب الذى كان فيما بعد أحد أسباب سقوط الإخوان نتيجة تمسكهم باختيارات لم تلق قبول الرأي العام.

الحمد لله لم تتم دعوتى للدخول في تلك الوزارة، وبالرغم من تجهيزى الملف الكامل لزيارة الدكتور مرسى إلى الصين فقد تم إلغاء الاجتماع السابق تحديده في الاتحادية لتقديم الملف، وسافر مع الرئيس مرسى إلى الصين الوزير الذى تلانى في وزارة النقل ضمن تشكيل حكومة هشام قنديل وهو الدكتور/ محمد رشاد المتينى وهو الذى قدم لى عصام الحداد قبل ذلك بأحد عشر عامًا.

كانت مكالمة الدكتور/ مرسي للدكتور الجنزورى عندما غادر المكتب أثناء اجتماعه معى متعلقة بالتأكيد بانتهاء مهمة الدكتور الجنزورى رئيسًا

للوزراء، وقد روى الدكتور الجنزورى فيما بعد وهو مستغرق في الضحك أننى أول من توقع فشل الإخوان بدليل واقعة استغرابى اختيار هشام قنديل رئيسًا للوزراء في هذا الاجتماع المثير الذى أشرت إليه وانتهت بعبارة: هشام مين؟

استكمالاً للحديث حول علاقتى بهشام قنديل، فقد حدث وتوفيت شقيقة الدكتور مرسي في نوفمبر ٢٠١٢ وكانت قد حدثت قبلها في ١٧ نوفمبر ٢٠١٢ حادثة قطار أسيوط التي توفي فيها أكثر من ٥٠ تلميذًا صغيرًا وتناثرت أشلاؤهم وشنطهم الدراسية وأحذيتهم على قضبان السكك الحديدية واستقال على أثرها وزير النقل الدكتور رشاد المتينى وأصبح منصب وزير النقل خاليًا.

ذهبت لتقديم واجب العزاء وكان في مسجد الشربتلى في التجمع وكان الدكتور مرسى يقف لتلقى العزاء ومعه في صف المستقبلين الدكتور سعد الكتاتني والدكتور أحمد فهمي رئيسًا مجلسي الشعب والشورى في ذلك الوقت.

عندما اقتربت لتقديم واجب العزاء للدكتور مرسي بادر واستدعى رئيسا مجلسي الشعب والشورى إلى حديث يجريه معى مؤداه: ماذا سنفعل في شأن وزارة النقل وأظنه كان يلمح لعودتى للوزارة ومع نهاية هذا الحديث القصير لمح د. هشام قنديل داخل الصوان واستدعاه وطلب منه التواصل معى لمناقشة أمر هذه الوزارة التى استقال وزيرها منذ أيام.

لحسن الحظ لم يتواصل معي د. هشام قنديل بعد ذلك وأسباب ذلك بالطبع مفهومه في ضوء استغرابى اختياره لرئاسة الوزراء قبل ذلك بثلاثة شهور، وقد جرى تكليف الدكتور/ طارق وفيق وزير الإسكان وقتها بتصريف أمور وزارة النقل إلى جانب عمله واستمر ذلك أكثر من شهر ونصف، وقد تحدث معى خلالها الدكتور وفيق في شأن تكليفه من قبل

رئيس الوزراء بالتباحث معي في أمر الوزارة ومن الصالح لشغلها، ولحسن الحظ أيضًا أننى لم أبد متحمسًا للأمر وجرى بعدها اختيار الوزير الإخوانى الدكتور حاتم عبد اللطيف لشغل المنصب والذى استمر فيه حتى قيام ثورة ٣٠ يونيه.

كنت أعرف الدكتور حاتم عبد اللطيف قبل تكليفه بالوزارة بعدة سنوات، وهو أستاذ في جامعة عين شمس وحاصل على الدكتوراة تحت إشراف الدكتور إبراهيم الدميرى من خلال بعثة إشراف مشترك مع أحد الجامعات اليابانية، وقد كنت أستعين به من وقت لآخر أثناء شغلى منصب وزير النقل فى حكومة الدكتور الجنزورى في موضوعات فنية محددة، واكتشفت أن له ميولا دينية واضحة، وبعد يناير بفترة قصيرة أطلق لحيته بشكل كثيف مثلما فعل كل الإخوان، وعرفت فيما بعد أنه كان إخوانيا وأنه والدكتور رشاد المتينى هم من كتبوا برنامج حزب الحرية والعدالة في مجال قطاع النقل الذى ترشح على أساسه الدكتور مرسى رئيسًا للجمهورية، وأثناء اعتصامات رابعة توافد الدكتور حاتم على المنصة وألقى خطبة أو أكثر على المعتصمين يدعوهم إلى الاستمرار حتى عودة الرئيس مرسى إلى الحكم، واختفى بعدها.

الفصل الثالث عشر

الطريق إلى ٣٠ يونيو

الطريق إلى ٣٠ يونيو

كانت الفترة ما بعد انتهاء مهمة حكومة الإنقاذ الوطنى برئاسة الدكتور كمال الجنزورى في ٢ أغسطس ٢٠١٢ حتى ٣٠ يونيو ٢٠١٣ فترة فارقة في تاريخ الوطن، ما أدوّنة هنا ليس تأريخا لهذه الفترة بقدر ما هو سرد لما راقبتة أو شاركت فيه من الأحداث وليس الأحداث كلها ويقينى أن التوثيق الكامل المتجرد لهذه الفترة يجب أن يحظى بالاهتمام اللازم وهو ما لم يحدث حتى الآن وهو السبب الرئيس في عدم فهم العالم الخارجى لثورة ٣٠ يونيه وطبيعتها الشعبية الخالصة وحجمها الحقيقى ودور الجيش من منطلق وطنى خالص في دعمها وهى ليست على الإطلاق انقلابًا عسكريًا كما كان يشاع وقتها واقتنع العالم الآن بعدم صحته، إلا أن أبواق الإعلام الإخوانى مازالت تعزف على نفس هذا الوتر حتى الآن.

بعد أن أدت حكومة هشام قنديل اليمين الدستورية يوم ٢ أغسطس ٢٠١٢ بأيام قليلة فوجئ الرأى العام في ١٢ أغسطس بقرار الرئيس مرسى بإعفاء المشير طنطاوى والفريق عنان من منصبى وزير الدفاع ورئيس الأركان على التوالى وتم تعيين الفريق عبد الفتاح السيسى وزيرًا للدفاع، وكان لخبر إنهاء مهمة المشير والفريق وقع الصدمة على الجميع، فقد كان المشير حتى أيام قبلها هو الرئيس الفعلى للبلاد وتحمل بهذه الصفة مسئولية إدارة الدولة في فترة هى الأصعب في تاريخ مصر، وقد شمل

القرار أيضًا نقل قادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة إلى وظائف أخرى خارج المؤسسة العسكرية مثل الفريق عبد العزيز سيف إلى الهيئة العربية للتصنيع والفريق مهاب مميش إلى هيئة قناة السويس وتعيين الفريق محمد رضا حافظ وزيرًا للإنتاج الحربى.

كان قد سبق ذلك أيضًا في يوم ٩ أغسطس إعفاء اللواء عبد الوهاب مبروك محافظ شمال سيناء واللواء نجيب عبد السلام قائد الحرس الجمهورى واللواء مراد موافي رئيس المخابرات العامة واللواء حمدى بدين قائد الشرطة العسكرية من مناصبهم في أعقاب حادث سيناء الإرهابى الذى وقع قبلها بثلاثة أيام.

كان الدكتور مرسى يتخذ هذه القرارات المصيرية ويستمر في استكمال جدوله اليومى العادى كما لو كان شيئًا لم يحدث، ويتجلى ذلك في أنه ذهب إلى احتفال وزارة الأوقاف مساء يوم ١٢ أغسطس احتفالاً بذكرى غزوة بدر وكان قد أصدر القرارات الخاصة بالمشير طنطاوى وكل قيادات القوات المسلحة منذ ساعات معدودة، وكان الجميع يتوقع أن هذا اليوم لن يمر إلا بتدخل ما من القوات المسلحة انتصارًا لقيادتها التى خرجت بهذا الشكل.

من التصرفات الغريبة أيضًا إصداره في ٨ يوليو ٢٠١٢ على عودة مجلس الشعب إلى الانعقاد بعدما صدر حكم المحكة الدستورية في ١٥ يونيه ٢٠١٢ بعدم دستورية طريقة انتخاب ثلث أعضائه المستقلين، وكان قد أعقب صدور حكم المحكمة صدور قرار من المجلس الأعلى للقوات المسلحة بحل المجلس تنفيذًا لهذا الحكم.

سارت الأمور خلال أغسطس وسبتمبر وأكتوبر عام ٢٠١٢ في اتجاه مؤداه تمكين الإخوان من مفاصل الدولة سواء في وظائف الوزراء أو القيادات العليا.

ظهرت أيضًا توجهات مؤداها تضمين دستور ٢٠١٢ والذى جرى الاستفتاء عليه في ديسمبر ٢٠١٢ المادة ٢٣٢ على ترتيبات للعزل السياسى لقيادات عصر مبارك وقيادات الحزب الوطنى والتى كان مؤداها سلب الحقوق السياسية من مئات الآلاف من المسئولين السابقين والقيادات الحزبية السابقة.

وفى يوم الأربعاء ١٥ مايو ٢٠١٣ كان هناك حادث إرهابى آخر في سيناء أدى إلى اختطاف أكثر من ١٥ من رجال القوات المسلحة وناشد الرئيس في توجيهاته بالحفاظ على سلامة المختطفين والخاطفين.

في يوم ١٧ نوفمبر ٢٠١٢ وقع حادث قطار أسيوط وأدى إلى مصرع حوالى ٥٠ طفلاً صغيرًا اختلطت أشلاؤهم مع شنطهم المدرسية وأحذيتهم على واجهة القطار وتحت عجلاته واستقال الدكتور رشاد المتينى وزير النقل وقتها وسط غضب شعبى كبير.

في ٢٦ نوفمبر ٢٠١٢ أصدر الدكتور مرسى الإعلان الدستورى العجيب الذى حصن قراراته السابق صدورها وتلك التى سيصدرها في سابقة قانونية لم تحدث من قبل في كل دول العالم وكان صدور هذا الإعلان الدستورى نقطة فاصلة في تاريخ حكم الإخوان، لقد شعر كل من قال عن الإخوان أنهم ناس طيبون ونعطيهم فرصة أنه قرأ خطأ وأدرك أنه لم يكن على صواب وأنهم قادمون للسيطرة التامة على كل أمور البلاد وأن ما قالوه عن أنه الحكم سيقوم على المشاركة لا المغالبة ليس صحيحًا بالمرة.

ظهر تأثير المرشد على المشهد العام وعلى الرئيس، ظهر أيضًا تأثير خيرت الشاطر، الكل يتذكر موضوع إملاءات المرشد للرئيس وتأكيده على أنه يجب أن يذكر كلمة القصاص في خطبة كان يلقيها وبجواره المرشد.

في أثناء قيامى بتقديم واجب العزاء في وفاة شقيقة الرئيس مرسى شاهدت بأم رأسى كيف أن خيرت الشاطر يعامل من قبل أتباع جماعة

الإخوان المسلمين وكأنه من القادة التاريخين الملهمين وكان الكل ينحنى ليقبل يديه عند السلام عليه في رسالة واضحة على سيطرتة التامة على كل الكوادر الإخوانية.

كانت تصرفات بعض الوزراء المحسوبين على الإخوان تفتقر اللياقة الواجبة، الجميع يتذكر التلميحات الفجة لوزير الإعلام محمد عبد المقصود في مقابلاته التليفزيونية.

كانت البرامج الحوارية التليفزيونية لا تخلو من ممثل أو أكثر للإخوان أو السلفيين يستفزون المشاهدين بآرائهم السمجة، وللأسف كان بعض مقدمى البرامج وقتها يساعدونهم على ذلك، ولعل القارئ يتذكر الظهور شبه اليومى الإعلامى الإخوانى هانى صلاح الدين والسلفي حسام البخارى والسلفي جمال صابر وغيرهم.

مع قدوم شهر مارس ٢٠١٣ كان المصريون قد فاض بهم الكيل مما يحدث، يستوى في ذلك أعضاء الجبهة الوطنية للتغيير، وشباب الثورة من غير الإخوان، الأحزاب السياسية، القوى الوطنية إلى أن وصل الأمر إلى المواطن المصرى العادى أو من أطلق عليهم "حزب الكنبة".

في المقابل كانت هناك تطمينات من القوات المسلحة أنها لن تتخلى عن الشعب وأنها تسانده بحكم دورها الوطنى الشريف ومسئولياتها عن حماية الوطن والمواطنين.

بالنسبة لى شخصيًا وبالرغم من تفاعلى مع الأحداث بحكم شغلى لمناصب عامة من قبل، إلا أننى كنت في كثير من الأحيان أعتبر أننى قد أديت رسالتى على الوجة الذى كان وأن الوقت صار مناسبًا لاستراحة محارب كما يقولون، إلا أن ذلك لم يحدث.

في أحد أيام شهر فبراير ٢٠١٣ اتصل بى تليفونيًا الأستاذ صلاح حسب الله وهو عضو مجلس النواب حاليًا والمتحدث الرسمى باسمه،

وطلب أن يقابلنى ومعه المهندس معتز محمود عضو مجلس الشعب الذى سبق حله بحكم قضائى في ١٥ يونيو ٢٠١٢ وهو حاليًا عضو مجلس النواب. في اللقاء دار النقاش حول الانضمام إلى حزب الحرية الذى يرأسه صلاح حسب الله وكان يمثله في مجلس الشعب في دورته السابقة النائب معتز محمود وأحد النواب الآخرين، وكانت وجهة نظرى أننى مستعد للمشاركة دون مسمى رسمى في المرحلة الأولى على الأقل، استمرت لقاءاتنا وانضم إلينا الوزير محمد العرابى وزير الخارجية الأسبق فيما بعد.

في اتصالات للسيد/ صلاح حسب الله مع السيد/ عمرو موسى المرشح السابق لمنصب رئيس الجمهورية والأمين العام للجامعة العربية ووزير الخارجية، تم الاتفاق على لقاء سيادته للتناقش حول عمل حزبى مشترك حيث كان وقتها في طور تشكيل حزب المؤتمر، وقد أسفر هذا اللقاء عن إمكانية انضمام حزب المؤتمر وحزب الحرية وحزب آخر هو الشعب الجمهورى تحت مظلة حزب المؤتمر، وقد تلا ذلك اجتماعات متعددة برئاسة السيد/عمرو موسى وفي وجودى والوزير العرابى والنواب صلاح حسب الله ومعتز محمود، والربان عمر صميدة (رئيس حزب المؤتمر حاليًا)، وحازم عمر رئيس حزب الشعب الجمهورى (كان تحت التأسيس وقتها) و د. صفي الدين خربوش وغيرهم قد حضر بعض من هذه الاجتماعات بشكل متقطع شخصيات عامة أخرى مثل المهندس/ خالد عبد العزيز وزير الشباب فيما بعد، والدكتور على مصيلحى وزير التضامن السابق والتموين فيما بعد، وأكمل قرطام النائب الحالى ورئيس حزب المحافظين.

وقد قمت بإعادة صياغة لائحة حزب المؤتمر وإعادة كتابتها في مكتبى في ذلك الوقت وتم اختيار الدكتور صفي الدين خربوش لأمانة الحزب والوزير محمد العرابى نائبًا للرئيس وتم اختيار وظائف حزبية قيادية لكل

من صلاح حسب الله ومعتز محمود والربان عمر صميدة وحازم عمر وبالطبع كان رئيس الحزب هو السيد/ عمرو موسى، وبالرغم من أنه عرض على أن أكون نائبًا لرئيس الحزب إلا أننى فضلت العمل بصفتى نائبًا للرئيس دون صدور قرار رسمى بذلك.

كان السيد/ عمرو موسى هو ممثل الحزب وعندما تم تشكيل جبهة الإنقاذ فيما بعد كان يحضر اجتماعاتها بهذه الصفة، وأصبح التنسيق مع جبهة الإنقاذ وتنفيذ الأدوار المنوطة بكل أطرافة ومنها حزب المؤتمر هو البند الرئيس على جدول أعمال اجتماعاتنا، التى كانت تجرى في مقر يمتلكه حزب الشعب الجمهورى على النيل في العجوزة وخصصه الحزب ليكون مقرًا لحزب المؤتمر الذى تم تشكيله على النحو السابق.

مع بداية شهر مايو ٢٠١٣ بدأت حملة حركة تمرد لجمع التوقيعات مطالبة بإجراء انتخابات رئاسية مبكرة والخروج إلى الشوارع في ٣٠ يونيه إذا لم يتم الاستجابة لمطالبها، ولاقت الحملة نجاحًا كبيرًا. كانت الحملة بقيادة شبابية بالكامل وعلى رأسها محمود بدر ومحمود عبد العزيز وحسن شاهين ومحمد نبوى وإيمان المهدى وغيرهم ونجحت الحملة في تجميع ملايين الاستمارات. لاقت الحملة مقاومة شديدة من السلطات وتم حرق مقراتها عدة مرات وظهرت حركات أخرى مضادة لحركة تمرد وبدأوا في إطلاق أرقام خرافية لعدد الاستمارات التى جمعوها وسط قناعة الكثيرين أنها أرقام غير حقيقية.

كانت حملة تمرد تسير بالتوازى مع مجهودات جبهة الإنقاذ التى كانت تطالب بانتخابات رئاسية مبكرة كمطلب رئيس لها.

كانت هناك أيضًا نداءات من القيادة العامة للقوات المسلحة لجميع الأطراف بالهدوء وضبط النفس والجلوس سويًا للاتفاق على مخرج من الوضع المتأزم الذى خلقه نظام الحكم ومن ضمن مجهودات القيادة العامة

للقوات المسلحة في هذا الشأن كانت دعوتها يوم الأربعاء ١٢ ديسمبر ٢٠١٢ إلى لقاء للقوى الوطنية المختلفة وأركان حكم الإخوان لمناقشة كيفية معالجة الموقف المتأزم وقتها.

كانت جبهة الإنقاذ تدعو إلى مسيرات في ميدان التحرير لدعم مطالب إجراء انتخابات رئاسية مبكرة، وكان ذلك يعقب اجتماعات يعقدها قادة جبهة الإنقاذ وعلى رأسهم البرادعى وصباحى وعمرو موسى والسيد البدوى وغيرهم، وقد نجحت هذه المسيرات في إظهار وجود مناخ عام من عدم الرضا من تصرفات الإخوان في إدارة شئون البلاد في هذا الوقت.

كان يسبق هذه المسيرات اجتماعات في كل حزب من الأحزاب ومن بينها حزب المؤتمر التى كنت أحضرها برئاسة عمرو موسى وكذلك بين قيادات جبهة الإنقاذ ككل. في اجتماعات حزب المؤتمر كان يتم الاتفاق على آلية خروج المواطنين للمسيرات التى يتم الاتفاق على تنفيذها، كانت الاجتماعات تتم في جو عام مشحون، ويتم في العادة تبديل مواعيد وأماكن الاجتماعات وكان يتم أيضًا تجميع أجهزة التليفونات المحمولة الذكية قبل كل اجتماع، حيث كان يسهل رصد هذه الاجتماعات والمشاركين فيها وما يجرى الترتيب له في أى منها، الاجتماعات كانت تجرى من قوى وطنية للترتيب لاحتجاجات ضد نظام حكم قائم له آلياته ومؤسساته الأمنية وكذلك له مؤيدوه ومليشياته وبالتالى فقد كان المشاركة فيها مشوبة بالخطر وقد يعرض المشاركين للمساءلة فيما بعد.

مع اقتراب منتصف يونيه ٢٠١٣ ازدادت وتيرة المظاهرات التى كانت تنادى بها جبهة الإنقاذ، وبدا أن الأمور تشير نحو صِدام واقع لا محالة، وتم داخل جبهة الإنقاذ عمل ترتيب مؤداة أن يضطلع كل من البرادعى وحمدين صباحى ببعض الصلاحيات وهو ترتيب أعتقد أنه لم يتم التشاور فيه مع السيد عمرو موسى مسبقًا، وتزامن مع ذلك طلب السيد عمرو

موسى أن يترك رئاسة حزب المؤتمر وقد تم له ما أراد بعد فشل كل محاولاتنا لإثنائه عن ما اتخذه من قرار وتولى الوزير محمد العرابى القيام بأعمال رئاسة الحزب بعدها.

وقد تجلت مظاهر هذا الترتيب المشار إليه فيما بعد ٣٠ يونيو مباشرة حيث انفرد البرادعى بمهمة تمثيل جبهة الإنقاذ في الترتيبات التى تمت بعد ذلك ومنها حضوره مراسم الإعلان التاريخى في ٣ يوليو ٢٠١٣ بتعليق العمل بالدستور وتولى رئيس المحكمة الدستورية مقاليد الحكم بشكل مؤقت وقتها، وأعتقد أن الترتيب الذى تم الاتفاق عليه كان يتضمن أيضًا دورًا للسيد حمدين صباحى في أى الانتخابات الرئاسية المقبلة وهو ما تم بالفعل.

من الأحداث المهمة أيضًا التى وقعت في ٧ مايو عام ٢٠١٣ والتى ألقت بظلالها فيما بعد ما حدث في شهر يونيو حيث كان التعديل الوزارى الذى أدخل وزراء تمتعوا بغضب شعبى كبير بمجرد تعيينهم ومنهم على سبيل المثال الدكتور علاء عبد العزيز كوزير للثقافة وكان يتمتع بكراهية شديدة بمجرد توليه المنصب وقد زادت هذه الكراهية بعدما أنهى تولى الدكتورة إيناس عبد الدايم إدارة دار الأوبرا ونجح بامتياز في كسب عداء جميع المثقفين الذى اعتبروا تعيين هذا الشخص عديم الخبرة ليقود الحركة الثقافية المصرية رغم ضحالتة، هو إهانة لهم جميعًا واستمر المثقفون في اعتصام مستمر أمام مبنى وزارة الثقافة وبداخله لقرابة ٤٥ يوما وكان تواجدهم اليومى وما لاقوه من اعتداءات من بعض أنصار الإخوان من المشاهد المهمة قبل رحيل الإخوان إلى غير رجعة.

تزامن مع ذلك أيضًا إجراء حركة محافظين شملت تعيين كوادر إخوانية وجهادية في مناصب المحافظين، إلا أن المواطنين قد طفح بهم الكيل وقد منعوا الكثير من هؤلاء المحافظين من دخول مكاتبهم حتى رحلوا بعد ذلك

مثلما حدث مع محافظ المنوفية المهندس/ أحمد شعراوى حسبما ذكر لى اللواء/ ياسين طاهر سكرتير عام محافظة المنوفية في هذا الوقت والذى تولى بعد ذلك منصب نائب محافظ القاهرة تزامنًا مع تعيينى محافظًا للقاهرة في ٢٠١٢/٨/١٣ ثم بعد ذلك محافظا للإسماعيلية عام ٢٠١٤ وكذلك لم يدخل كل من المهندس/ أسامة سليمان محافظ البحيرة والمهندس/ سعد الخياط محافظ الأقصر إلى مكاتبهم أو مزاولة مهام مناصبهم الجديدة، وقد كان محافظ الأقصر الجديد تحديدًا أحد المتهمين في قضية مقتل السائحين في الأقصر عام ١٩٩٧ ولاقى تعينه غضبًا شديدًا محليًا ودوليًا واستقال احتجاجًا على تعيينه وزير السياحة في هذا الوقت السيد هشام زعزوع ولم يعد إلى منصبه إلا بعد أن تم الرجوع عن هذا التعيين.

وفي خصوص تعيين المحافظين في هذا التوقيت، أتذكر أنه كان من بين المحافظين الجدد محافظًا للفيوم يدعى جابر عبد السلام وعرفت أنه من أبناء الفيوم ولم أكن قد سمعت عنه من قبل رغم أننى كنت قد قضيت فى جامعة الفيوم وقتها حوالى ٢٠ عامًا حتى ٢٠٠٨ ثم توليت منصب محافظ للفيوم بعد ذلك، وبصفتى هذه وجدت من المناسب بروتوكوليًا الاتصال بالمحافظ الجديد، وقد شعرت من ردوده أنه يعرفنى وأننا تقابلنا من قبل.

نقلت هذا الشعور خلال اتصال تليفونى إلى شخصية محترمة من أبناء الفيوم وكان يشغل منصب مدير بنك ناصر حتى قبل يناير بفترة بسيطة، وفوجئت به غارقًا في الضحك واستفسر كيف لا أعرفه وأنا الذى طردته من الجامعة في واقعة شهيرة كنت لا أتذكر تفاصيلها ولكن يبدو أنها معروفة لأهل الفيوم. أما السبب فقد كان أنه عمل مقاولاً من الباطن مع أحد الشركات المنفذة لمشروعات الجامعة وقت أن كنت أنا رئيسًا لها وكان قد تقاعس عن العمل هو والمقاول الأصلى وقمت بطردهما من الجامعة

وسحب الأعمال منهما وإخطار هيئة الخدمات الحكومية لمنعهما من العمل في الحكومة في أى موقع آخر وهو إجراء له عواقب وخيمة ويؤدى عادة إلى الإفلاس والخروج من مجال المقاولات تمامًا.

أما كيف رجع هذا الشخص محافظًا بعد ذلك فلأنه وهروبًا من الملاحقات والمطالبات المالية التى أعقبت سحب الأعمال منه وقفل جميع الأبواب أمامه للتعامل مع أى جهة حكومية فقد هرب إلى السودان وظل بها عدة سنوات وكان هو فيما بعد الذى يستقبل القيادات الإخوانية إذا هربت من الملاحقات الأمنية إلى السودان وقد كان تعيينه محافظًا للفيوم في ١٦ يونيه ٢٠١٣ مكافأة له على الدور الذى قام به في استضافة الإخوان الهاربين، وهكذا فإننى ودون أن أدرى كنت سببًا فى تعيينه محافظًا للفيوم فى ذلك الوقت.

مع اقتراب الأيام الأخيرة من شهر يونيو ٢٠١٣ كان هناك اتفاقٌ قد تم مع الرئيس مرسى وأن يتم الإعلان عن ذلك في خطاب تحدد موعده في ٢٦ يونيو، ومعلوماتى أن هذا الاتفاق كان يتضمن إقالة حكومة هشام قنديل وإجراء انتخابات رئاسية مبكرة وكانت المفاجأة أن الخطاب فعليًا لم يتضمن ما تم الاتفاق عليه وإنما زاد الأمور اشتعالاً وتطرق الرئيس إلى أمور أخرى وهاجم أشخاصا عديدين منهم القضاة والصحفيون وأعضاء من مجلس الشعب من غير الإخوان. وقد روى لى مسئولٌ كبير على دراية كاملة بالاتفاق الذى تم - بل إنه اشترك في الإعداد له ولكنى لم أستأذن في نشر ذلك على لسانه - أنه قد عرف قبل ساعات قليلة من إلقاء الخطاب أن ما تم الاتفاق عليه لن يتم الالتزام به ولكنه لم يتمكن من الوصول للرئيس مرسى في حينه لشرح عواقب ما هو مقدم عليه.

زاد التأكد بعد خطاب ٢٦ يونيو الشهير أن المحك سوف يكون هو خروج الجماهير في ٣٠ يونيو في إطار دعوات حركة تمرد من ناحية وجبهة

الإنقاذ من ناحية أخرى، وبدأ المواطنون العاديون يتواصون فيما بينهم على النزول في هذا اليوم بما في ذلك السيدات من ربات البيوت وأعضاء النوادى ومجموعات الأصدقاء من الشباب وكبار السن، وأتذكر سماعى نقاشات عفوية في الشوارع وفي نادى الصيد بين أصدقاء يتواعدون للخروج في هذا اليوم ويتفقون على مواعيد وأماكن اللقاء.

كنت قد بدأت أنا وصديقى وجارى الدكتور/ سيد عبد السلام الأستاذ بكلية الهندسة جامعة الزقازيق منذ أوائل شهر يونيه وفي نشاط أسبوعى التوجه بشكل منتظم عقب صلاة الجمعة في مسجد السيدة نفيسة إلى شارع ٩ في المقطم حيث يتفرع منه الشارع الواقع به مقر جماعة الإخوان المسلمين، ممنيين أنفسنا أن هذا المكان والذى كان يبدو كالقلعة المسلحة ويعلوه القناصة لابسو الأقنعة ببنادقهم المصوبة خارجة سيكون أثرا بعد عين بعد ٣٠ يونيو، وأتذكر وقتها أنه كانت تذاع بيانات من مكبرات للصوت لتحذير الواقفين قرب المكان أن هناك كاميرات للمراقبة تسجل المترددين على المكان وتتوعدهم بالملاحقة.

انتشرت وحدات حماية المواطنين من القوات المسلحة في الأماكن الحيوية في ٢٦ يونيو، تحسبًا لأى صدامات محتملة بين المواطنين المدعوين للخروج يوم ٣٠ يونيو وأنصار جماعة الإخوان المسلمين والذين استبقوا الأحداث بالخروج بالفعل إلى عدة أماكن يشاركهم في ذلك أصدقاؤهم من السلفيين وأتباع الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل.

بعد صلاة الجمعة في مسجد السيدة نفيسة يوم ٢٨ يونيو وبعد زيارتى المعتادة بعدها لشارع ٩ في المقطم حيث يقع مقر جماعة الإخوان المسلمين، قمت بالتوجه إلى ميدان التحرير حيث كانت وحدات حماية المواطنين منتشرة في الميدان وشاهدت عناصر منها مرابطة عند بداية كوبرى قصر النيل من ناحية ميدان التحرير وكان المواطنون يحيونهم واستأذنت في

تصويرهم وكذلك التصوير معهم وأظن أن التعليمات لديهم كانت غير ذلك، إلا أننى نجحت في التصوير معهم رافعًا علم مصر قبل أيام من انتصار حقيقى على الإخوان ومليشياتهم.

مساء يوم الجمعة ٢٨ يونيو حدثت بعض الصدامات في مدينة بورسعيد نتج عنها وفاة شخصين مما كان يؤشر حينها بتفاقم الأمور فيما بعد، وأتذكر وقتها أننى كنت في لقاء مع اللواء سامح سيف اليزل الخبير الأمنى المعروف والسيد أسامة هيكل وزير الإعلام السابق وكان تقديرنا وقتها أن ما حدث في بورسعيد يعتبر مؤشرًا واضحًا عما هو متوقع بعدها بأيام.

في آخر يونيو كان شهر رمضان على وشك أن يبدأ وكان التقدير وقتها من قبل الإخوان أن هذا سوف يؤثر بشكل كبير على انتظام المواطنين في الخروج في ٣٠ يونيو واستمرارهم في الوجود في الشوارع والميادين لتحقيق الأهداف المحددة لهذا الخروج ولكن المصريين أذهلوا العالم كله حيث إن الصيام لم يؤثر إطلاقًا على كثافة خروج المواطنين وبقائهم في الميادين حتى تنفيذ مطالبهم.

في يوم الأحد ٣٠ يونيو خرجت الجماهير بأعداد غير مسبوقة في التاريخ البشرى كله وبأعداد تم تقديرها بحوالى ٣٠ مليون مواطن في مئات المناطق على كامل رقعة الوطن وكان على رأسها ميدان التحرير وجميع المناطق المحيطة به شاملة الشوارع الرئيسة وكبارى قصر النيل ثم إلى كوبرى الجلاء المؤدى إلى الدقى والعجوزة وباقى أحياء محافظة الجيزة.

اشترك المصريون في الخروج من جميع الأعمار، من ناحيتى اصطحبت كل أسرتى، زوجتى وأولادى وأحفادى وكان يصاحبنا أصدقائى بأسرهم أيضًا، وعند انطلاقى من منزلى في العجوزة وصولاً إلى شارع النيل

بالقرب من شارع نوال ثم إلى كوبرى الجلاء كان الزحام شديداً بحيث إن عبور كوبرى الجلاء بعد ذلك في اتجاة كوبرى قصر النيل ثم ميدان التحرير قد استغرق وقتًا طويلاً جداً وسط مواطنين من جميع الأعمار يتحركون حاملين الأعلام والآلات الموسيقية كما رسم الأولاد الأعلام على وجوههم وبعضهم ارتدى ملابس بلون العلم المصرى.

أمضيت في هذه الليلة عدة ساعات في ميدان التحرير ولم أعد إلى منزلى إلا بعد منتصف الليل حيث كان الاتفاق بين الجماهير هو الاستمرار في التواجد يوميًا حتى تحقيق الهدف الذى خرجوا من أجله وأن يكون ذلك ممتدًا حتى بعد بداية شهر رمضان حيث كانت بعض الجماهير تتناول طعام الإفطار حتى يحين موعده في الميادين والبعض الآخر يبدأ خروجه بعد المغرب مباشرة حتى وقت السحور.

كانت تقديرات المسئولين من الإخوان قبل ٣٠ يونيو، أن هذا اليوم سيكون يومًا عاديًا وأنه حتى مع خروج المواطنين كما يدعى زعماء حملة تمرد أو قادة جبهة الإنقاذ، فإن الناس لن تبقى طويلاً في الميادين، وكان التقدير أيضًا أنه مع دخول شهر رمضان فإن الأمر سينتهى تمامًا ولن يخرج أحد في ظل الصيام والحر الشديد في هذا التوقيت.

مع خروج الناس فعلاً بالأعداد الغفيرة التى ظهرت في ٣٠ يونيه، لم يأخذ المسئولون هذا الأمر على محمل الجد، وأتذكر أن أحد السادة الوزراء من غير الإخوان الذى كان عضواً في الوزارة في هذا الوقت قال حُكي لى أن د. هشام قنديل، وفي إطار حرصه على متابعة الأمور من مكتبه فقد طلب إحضار طعام له وللحضور من بعض الوزراء ولما أحضروا لهم شندوتشات من الفول والطعمية طلب أن يحضروا حمامًا محشيًا من أبو شقرة حتى يساعدهم ذلك على مواصلة العمل الشاق في متابعة المظاهرات وكان يقول ذلك على سبيل السخرية، وهذا في رأى الوزير

صاحب الرواية أن الأمر لم يؤخذ في البداية ـ أو هكذا أرادوا أن يظهروا ـ بالجدية الكافية.

استمرت المظاهرات والخروج إلى الميادين بعشرات الملايين من الأحد ٣٠ يونيو حتى الأربعاء ٣ يوليو ومع استمرار نزول المواطنين في الميادين وعدم استجابة النظام الإخوانى لطلباتهم ووقوع بعض الصدامات التى كان من الممكن أن تطور إلى أحداث مؤسفة، أعلن ظهر الأربعاء ٣ يوليو أن بيانًا هامًا سيصدر بعدها بقليل ولم يصدر البيان إلا مساء ذلك اليوم، ولم يكن بيانًا بقدر ما كان مشهدأ مهيبًا لوزير الدفاع وقتها الفريق أول عبد الفتاح السيسى وقادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة وشيخ الأزهر والبابا والبرادعى وممثل لحركة تمرد بالإضافة إلى رئيس المحكمة الدستورية وتضمن ما أعلنه وزير الدفاع حينها عدة قرارات منها تعليق العمل بالدستور وتولى رئيس المحكمة الدستورية منصب رئيس الجمهورية وغيرها من القرارات التى ما إن سمعها المصريون حتى انطلقوا في احتفالات صاخبة في جميع أنحاء مصر بعدما وقف الجيش إلى جانبهم في مطالبهم بإنهاء حكم الإخوان.

الفصل الرابع عشر

جناب الوالى

محافظ القاهرة ٢٠١٣-٢٠١٦

جناب الوالى
محافظ القاهرة ٢٠١٣- ٢٠١٦

في أعقاب بيان ٣٠ يوليو ٢٠١٣ الذى ألقاه الفريق أول السيسى وزير الدفاع في ذلك الوقت وأعلن فيه حل الدستور والاستعداد لمرحلة انتقالية استجابة لمطالب الملايين التى خرجت في ٣٠ يونيه تحت حكم الإخوان واختارت القوات المسلحة الوقوف في صفها، تولى رئيس المحكمة الدستورية المستشار عدلى منصور مهام الرئيس المؤقت وبدأت الأخبار تتناثر حول شخص رئيس الوزراء ما بين البرادعى قبل أن يتم تعيينه نائبًا لرئيس الجمهورية وأسماء أخرى محتملة منها الدكتور زياد بهاء الدين والدكتور حازم الببلاوى والذى انتهى الأمر بتكليفه بتشكيل الحكومة.

قابلت الدكتور الببلاوى صباح يوم ١٦ يوليو ٢٠١٣ ضمن مشاوراته لتشكيل الحكومة وكانت المقابلة متأخرة في توقيتها عدة أيام عن بقية لقاءاته التشاورية التى قابل وحدد فيها أسماء الوزراء بالفعل وكان الدكتور الببلاوى يتشاور بشكل يومى مع الدكتور البرادعى بشأن تشكيل الحكومة، وأعتقد أنه كان يراجع معه الترشيحات، ولم يستقر الأمر على تكليفي بوزارة النقل وقتها بسبب البرادعى على ما أعتقد على خلفية فشل زيارته إلى الفيوم أوائل عام ٢٠١٠ عندما كنت محافظًا لها وعقب عودته من الخارج وتشكيله الجبهة الوطنية للتغيير ورغبته في زيارة محافظات خارج القاهرة لإثبات جماهيريته وفشلت الزيارة بسبب صعوبات واجهته في

تدبير مكان للقاء جماهيرى مناسب وظل يجوب الشوارع وقتها دون عقد هذا اللقاء.

تم ترشيح الدكتور أحمد سلطان لتولى وزارة النقل وذهبت الحكومة بكامل تشكيلها بعد ظهر اليوم نفسه لأداء اليمين الدستورية، إلا أنه تم إخطار المرشح البديل قبل حلف اليمين بدقائق بتأجيل أداء اليمين بالنسبة له لاستكمال بعض الإجراءات وتم الاعتذار له نهائيًا فيما بعد.

بعد أداء الحكومة لليمين الدستورية أمام الرئيس عدلى منصور دون تسمية وزير النقل جرى إخطارى مرة أخرى يوم ٢٣ يوليو ٢٠١٣ بإعادة ترشيحى وزيرًا للنقل وأن حلف اليمين تحدد له الساعة الثالثة عصرًا نفس اليوم، وأثناء استعدادى للذهاب لحلف اليمين هاتفنى من يخطرنى من مراسم مجلس الوزراء أنه قد تم التأجيل وبعدها ورد في الأنباء أن الدكتور إبراهيم الدميرى أصبح هو وزير النقل الجديد وكان قد شغل هذا المنصب من ١٩٩٩ وحتى ٢٠٠٢ واستقال في أعقاب حادث قطار الصعيد في فبراير من هذا العام.

هاتفنى صباح يوم ٣٠ يوليو ٢٠١٣ اللواء عادل لبيب الذى كان من ضمن التشكيل الحكومى الجديد متوليًا مهام وزارة التنمية المحلية، يعرض أن يرشح اسمى لرئيس مجلس الوزراء محافظًا للقاهرة ضمن المشاورات التى كانت تجرى لإجراء حركة شاملة للمحافظين بدلاً ممن عينهم الدكتور/ مرسى في الحركة التى تمت يوم الأحد ١٦ يونيو ولم يتمكن الكثير منهم حتى من دخول مكاتبهم نتيجة الغضب الشعبى منذ تعيينهم حتى ثورة ٣٠ يوليو.

كنت قد عرفت اللواء عادل لبيب محافظًا لقنا منذ ١٩٩٩ وهو صاحب تجربة فريدة فيها ثم محافظًا للإسكندرية منذ ٢٠٠٦ عقب تولى اللواء عبد السلام محجوب وزارة التنمية المحلية، وقد تزاملنا معا في مجلس

المحافظين في الفترة من ٢٠٠٨ إلى ٢٠١١ حينما كنت أتولى أنا منصب محافظ الفيوم.

قام المحافظون الجدد وأنا منهم بحلف اليمين الدستورية أمام الرئيس عدلى منصور ظهر يوم الثلاثاء ١٣ أغسطس ٢٠١٣ واجتمع معنا الرئيس بعدها في حضور د. البرادعى ود. حازم الببلاوى واللواء عادل لبيب. وقد كانت مشاركة البرادعى في هذا الاجتماع هو آخر ظهور رسمى له حيث إنه استقال بعدها بأقل من ٢٤ ساعة.

تعرفت أثناء حلف اليمين على النواب الأربعة لمحافظ القاهرة الذين حلفوا اليمين أيضًا أمام الرئيس وتواعدنا بعد انتهاء مراسم أداء اليمين أن نتقابل ظهر اليوم التالى بعدما يكون كل منهم قد ذهب إلى مكتبه في الصباح.

قابلت أثناء حلف اليمين الدكتور حازم عطية الذى تولى منصب محافظ الفيوم في التشكيل الجديد، وكان ينوى كما قال لى أن يرتب أموره في عدة أيام قبل الذهاب إلى الفيوم إلا أننى أوضحت له أنه أصبح مسئولاً من هذه اللحظة عن محافظة الفيوم وعليه أن يذهب الآن ليتسلم مهام منصبه، وبحكم شغلى الوظيفة نفسها من قبل فقد عملت له الترتيبات اللازمة مع مكتب المحافظ في الفيوم ومع أنه لم يذهب في نفس اليوم، إلا أنه ذهب صباح اليوم التالى وكان في هذا التزام بنصيحتى.

انتهت مراسم حلف اليمين والاجتماع مع رئيس الجمهورية حوالى الساعة الرابعة عصرًا وقد قررت وقتها أن يكون اليوم الأول للعمل هو اليوم التالى ١٤ أغسطس وطلبت أن تأتينى السيارة فجرًا ووصلت مبنى المحافظة السادسة صباحًا، وقد ظل كل العاملين في المحافظة والذين وصلوا جميعًا بعد وصولى بأكثر من ساعتين في حالة ذهول من هذا القادم الجديد.

بعد وصولى بوقت قصير بدأت الأنباء تتوارد عن بدء عملية فض الاعتصام في ميدان رابعة العدوية وتوقف سيل المهنئين وأصبح الشغل الشاغل وقتها هو حجم التحديات التى ستواجه المحافظة في التعامل مع ما خلفه هذا الاعتصام من خراب ودمار للمنطقة التى ظلت لمدة ٣٦ يومًا مقرًا لاعتصام عشرات الآلاف مما سبب شللاً تامًا لمحاور الطرق الرئيسة في المنطقة ومبانيها ومداخل العمارات وفرضوا حظرًا على دخول وخروج أبناء المنطقة طوال هذه الفترة، وامتد تأثيرهم الجغرافي خارج نطاق منطقة الاعتصام حيث دأبوا على تنظيم مسيرات من موقعهم في ميدان رابعة إلى مواقع أخرى في شبه غارات سريعة ما تلبث أن تنتهى برجوعهم إلى مقرهم الأصلى ومثال ذلك ما حدث في رحلاتهم عدة مرات إلى منطقة المنصة وجامعة الأزهر ولمقر نادى الحرس الجمهورى في شارع العروبة في أعقاب الأحداث التى نجمت عن محاولة اقتحام الحرس الجمهورى صباح يوم ٨ يوليو ٢٠١٣ وقال أثناءها محمد البلتاجى عبارته الشهيرة: "إن العنف سيتوقف في سيناء في اللحظة التى يتم فيها الإفراج عن الرئيس مرسى" الذى كان محتجزًا وقتها في مقر نادى الحرس الجمهورى بعد بيان ٣ يوليو ٢٠١٣.

تزاحمت الأحداث في هذا اليوم، وفي وسط ما كنت أقوم به من متابعات لعملية فض اعتصام رابعة جاءنى تليفون الدكتور حازم عطية محافظ الفيوم الجديد وكان مضطربًا ليخبرنى أنه قد أخذ بنصيحتى وذهب إلى مكتب محافظ الفيوم منذ فترة قصيرة إلا أنه قد غادر المكتب بعد قليل تحت وقع أعمال تخريبية امتدت إلى مبنى المحافظة وأنه وهو يهاتفنى كان موجودًا داخل مدرعة أمام المبنى والرصاص ينهال عليها من كل جانب، وقد عاجلنى بالقول إن نصيحتى له بالذهاب صباح هذا اليوم إلى مكتبه كانت نصيحة صائبة وهو الأمر الذى قدرته له من ناحية وأزال

عنى شعورى بالذنب لأننى قد أكون قد ورطة في هذا الموقف وخاصة إذا كان قد حدث له أى مكروه وقتها.

كانت عملية فض اعتصام رابعة تتم بالتوازى مع فض اعتصام النهضة أمام جامعة القاهرة ولكن كانت الأعداد المشاركة في اعتصام رابعة تزيد عن أربعة أو خمسة أضعاف المتجمعين في ميدان النهضة، وقد تطور فض اعتصام رابعة بسبب إطلاق النار من قبل عناصر من الإخوان كانوا موجودين على أسطح المنازل في المنطقة وفي بعض الأدوار لمبانٍ خالية محيطة بالمكان مما أدى إلى سقوط عناصر من الشرطة وأدى إلى تدخل قوات من الجيش لإتمام عملية فض الاعتصام التى انتهت بنهاية هذا اليوم.

لم أكن على علم بشكل رسمى أن عملية فض الاعتصام ستتم في أول يوم لبداية عملى في محافظة القاهرة، ولكننى توقعت أن انتظار هذه العملية لن يطول بعدما أصبح الاعتصام خروجًا واضحًا على الدولة وخلق بؤرة مناوئة للنظام في موقع حيوى بالعاصمة يصعب السماح باستمرارها.

توجهت صباح الخميس ١٥ أغسطس ٢٠١٣ بصحبة مسئولين من محافظة القاهرة إلى مكان الاعتصام، كان الدمار يحيط بالمكان من كل جانب، قابلت هناك قيادات من الشرطة والجيش، موقع الاعتصام كان قريبًا جدًا من مواقع حيوية لكل منهما، الإدارة العامة للمرور على بعد خطوات وكذلك هيئة الشئون المالية للقوات المسلحة والدفاع الشعبى وغيرها من الهيئات المهمة وبسبب وظيفتى كمحافظ للقاهرة تم استدعائى فيما بعد كأحد الشهود في قضية فض اعتصام رابعة وقدمت وقتها للمحكمة صورًا فوتوغرافية للدمار الذى شاهدته بنفسى في موقع الاعتصام.

تجولت في المنطقة، تفقدت جامع رابعة العدوية الذى كان المقر الرئيس لقيادة الاعتصام والذى نُصب أمامه المنصة الشهيرة التى وقف عليها قيادات الإخوان بشكل يومى لإثارة جمهور المعتصمين وحثهم على عدم مغادرة المكان إلا بعد الإفراج عن الرئيس مرسى وعودته إلى الحكم وكان صوتهم يذهب إلى الرأى العام المحلى والعالمى عن طريق محطة إرسال التليفزيون المصرى التى استغل وزير الإعلام الإخوانى صلاح عبد المقصود سلطاته وإرسالها إلى هناك في أواخر شهر يونيه ٢٠١٣ وظلت هكذا طوال فترة الاعتصام، حيث أصر المعتصمون على بقائها لتنقل فعالياتهم إلى العالم الخارجى، تفقدت كذلك عدة مدارس في المنطقة تم تحويلها إلى أماكن لإيواء المعتصمين وتم فيها تجهيز أماكن لإعداد وتناول الطعام وأماكن لإيواء الذبائح تمهيداً لطبخها وتم في أحواشها تجهيز دورات للمياه وأماكن للاستحمام.

كان الدمار يحيط بالمكان، الدخان كان ما زال يتصاعد من أرجاء المسجد، الأرضيات مشبعة بالمياه من آثار إطفاء الحرائق، شاهدت آثار الحرائق على الحوائط والأسقف، وزرت المنطقة الخلفية للمسجد وهى المقر السابق للمركز الطبى لجمعية رابعة العدوية التى تحولت أثناء الاعتصام إلى مركز طبى لعلاج المصابين من اختناقات الغاز المسيل للدموع من إصابات أخرى أثناء فض الاعتصام.

بعد هذه الزيارة بأيام معدودة كان العمل يجرى على قدم وساق لإعادة تأهيل المنطقة بالكامل، المسجد وملحقاته والمدارس وباقى المبانى ولم يمر أكثر من شهر إلا والمنطقة قد تم إعادتها إلى شكلها الأصلى واشترك في هذه العملية إلى جانب محافظة القاهرة، كل من شركات قطاع الأعمال العام بإشراف وزير الاستثمار وقتها الوزير أسامة صالح، بالإضافة إلى إدارة الأشغال العسكرية التابعة للهيئة الهندسية للقوات المسلحة التى تولت أعمال إعادة تأهيل المسجد وكذلك إعداد مجسم يعبر عن حجم الإنجاز

الذى تم في فض الاعتصام وإعادة تعمير المنطقة وتولت المحافظة رفع المخلفات من المنطقة والمحاور الرئيسة المرتبطة بها وإعادة تأهيل الشوارع والأرصفة والأشجار والإضاءة.

بعد استقرار الأمور نسبيًا بعد عملية فض اعتصام رابعة، كانت هناك تحديات كبرى تنتظرنى كمحافظ للقاهرة، كانت العاصمة وليس فقط منطقة رابعة قد تحولت إلى مسرح كبير لمئات المظاهرات والوقفات الاحتجاجية وأعمال التخريب والكر والفر اليومى في مواجهة قوات الشرطة والقوات المسلحة، وتلا عملية الفض أعمال تخريبية أخرى تضمنت إنشاء متاريس جديدة لغلق الشوارع وخلع الأرصفة وإحراق الأشجار وتكسير أعمدة الإضاءة والكتابة المسيئة على الحوائط وكانت أعمال النظافة قد انهارت في كل أنحاء العاصمة لصعوبة سير عربات تجميع المخلفات مما استبتع بداية عمليات كبرى شملت كل أحياء القاهرة لمواجهة كل هذه التحديات، لقد كانت عملية صعبة ومضنية، وزاد من صعوبتها قرار حظر التجوال الذى تم اتخاذه مع تزايد الأعمال التخريبية والمسيرات الليلية وما يصاحبها من أعمال عنف مدبرة، وكان يجرى التنسيق مع اللواء توحيد توفيق قائد المنطقة المركزية في هذا الوقت لمنح معداتنا والعاملين عليها تصاريح للحركة أثناء حظر التجوال لإنقاذ العاصمة من كارثة بيئية حقيقية متوقعة.

لقد تم في هذه المرحلة رفع أكثر من ٥٠٠ ألف طن من المخلفات وإعادة رصف الشوارع وتبليط الأرصفة وإعادة الإضاءة إلى آلاف أعمدة الإنارة وإصلاح الكبارى بعدما تم نزع أجزاء كاملة من جوانبها المعدنية، وبدأت أيضًا عملية كبرى لإنشاء حواجز أعلى الكبارى تعيق استهداف الأماكن الحيوية من أعلى الكبارى وهى ظاهرة انتشرت بشكل كبير في هذا الوقت وتم إنشاء فرق للعمل على مدار الساعة لإزالة الكتابات المسيئة على

حوائط المنشآت وأعمدة الكبارى وكنا كلما انتهينا من هذه الأعمال في منطقة ما وننتقل إلى مكان آخر كان هناك من يعود ليقوم بنفس الأعمال التخريبية في الأجزاء التى انتهينا منها وعليه كنا نعيد الكرة مرة أخرى.

كانت الأعمال السابقة هى السائدة خلال الشهور الأولى من عملى كمحافظ للقاهرة ومع أهميتها إلا أنها كانت تمثل فقط مواجهة أولية لقضايا أكثر تعقيدًا يجب الالتفات إليها.

كانت هناك قضايا يجب مواجهتها تتعلق باحتلال الباعة الجائلين لشوارع وميادين وسط العاصمة بالكامل، كانت هناك أيضًا قضايا مواجهة الخطر الداهم في المناطق العشوائية المنتشرة في القاهرة وبخاصة تلك التى تمثل تهديدًا لحياة المواطنين، كانت هناك قضايا انهيار أسطول النقل العام في مدينة يتم فيها أكثر من ٢٠ مليون رحلة يوميًا، كانت هناك قضايا تتعلق بالمشروعات التى بدأت ثم توقفت بسبب أحداث الثورة وهناك ضرورة الانتهاء منها مثلما كان الحال مع مشروع جراج التحرير، وكانت هناك ضرورة الاهتمام بالقاهرة الخديوية والقاهرة الإسلامية بعدما أصابها من انهيار تعرضت له خلال الأعوام الماضية، وكان من المهم التصدى بشدة لقضايا الانفلات العام ومن معالمهما البناء المخالف وبدون ترخيص في بعض الأحيان على أراضى لا يمتلكها القائم بالبناء بل قد تكون الأرض ملك الدولة نفسها .

الانفلات السلوكى هو من ظواهر مرحلة ما بعد الثورات، وظهر هذا الانفلات في القاهرة أكثر مما ظهر في مدن أخرى، وكان المشهد العام على أرض الواقع يتمثل في احتلال الباعة الجائلين لمنطقة وسط المدينة بالكامل بما في ذلك الميادين الرئيسة مثل رمسيس والعتبة والتحرير والشوارع الرئيسة مثل ٢٦ يوليو وقصر النيل وطلعت حرب والجمهورية،

الحديث هنا عن عشرات الآلاف وليس عن تجمعات بسيطة هنا وهناك، ومثلما كان الوضع في وسط المدينة كانت هناك ظواهر مماثلة في حلوان والمطرية وغيرها من أحياء القاهرة.

تعاملاتى اليومية مكنتنى من تحليل الموقف، نحن نتحدث عن قيادات كبرى تأتمر بأوامرها قيادات أصغر، ثم ينتهى الأمر بالبائع الفعلى وهناك مصالح مشتركة بينهم، ما بين توفير الحماية للبائع الصغير مقابل إتاوات يتم دفعها من قبل هؤلاء الباعة إلى القيادات الأعلى التى كانت على الأرجح مرتبطة بمصالح مع الإخوان من قبل في السيطرة على وسط القاهرة. مع ذهاب الإخوان ولضمان استمرار ولاء هؤلاء للسلطة الجديدة كان من المناسب عدم التصادم معهم بشكل حاد في المراحل الأولى، وكان هذا واضحًا وقيل لى بشكل مباشر فيما يخص الباعة الجائلين في ميدان رمسيس تحديداً والذين كان لهم دور في سيطرة الأمن على الاعتصام في جامع الفتح في ميدان رمسيس بعدما ظل بؤرة للإخوان والسلفيين لمدة طويلة.

هذه أشياء استوعبتها من المعايشة لمدة ستة شهور على الأقل منذ أغسطس ٢٠١٣ حتى مارس ٢٠١٤، وظنى أن رجال الأمن كانت الصورة عندهم أوضح، ودليلى على ذلك أن محاولاتى الأولية لتنظيم تعامل قوى مع ظاهرة احتلال الباعة لوسط القاهرة لم تكن على رأس الأولويات في حينه واستغرق الأمر بعض الوقت لاتخاذ خطوات ملحوظة من قبل الأمن، قد كان للمهندس إبراهيم محلب رئيس مجلس الوزراء في ذلك الوقت دور مهم في تسريع اهتمام الجهات الأمنية بهذا الموضوع.

كانت عملية نقل الباعة الجائلين من وسط القاهرة تمثل المرحلة الأولى وكان نقلهم من ميدان رمسيس يمثل المرحلة الثانية أما إخلاء ميدان ومحطة حلوان فكان يمثل المرحلة الثالثة.

كل مرحلة من المراحل كانت لها ترتيباتها المتشعبة مع الأمن من ناحية ومن ناحية أخرى مع قيادات ونقابات الباعة الجائلين وكانت الأمور تتم بمتابعة يومية من الإعلام، وبينما كان الرأى العام مساندا لإجلاء هؤلاء الباعة الجائلين من الشوارع، كان الإعلام يتحدث بلغة تهييجية عن أن احتلال الشوارع هو مصدر الرزق المتاح لهؤلاء الباعة، أصحاب المصالح من منظمى عملية الاحتلال والاسترزاق منها كان لهم صوت عالٍ أيضًا، وكان نقباء الباعة الجائلين من الضيوف الدائمين في البرامج الحوارية اليومية وكثيرًا ما حاول المعدون لهذه البرامج إدخالى تليفونيًا في الاستوديوهات التى يستضيفون فيها هؤلاء النقباء المزعومين وكنت أرفض تمامًا الدخول في مهاترات ترمى إلى إقناعى أن مصلحة هؤلاء تفوق مصلحة الوطن ومصالح مواطنيه.

كنت أحاول إيجاد البديل لكل البائعين قبل الحديث عن نقلهم من الأماكن التى يحتلونها وجهزنا البديل الأول لبائعى وسط المدينة ليكون في أرض الترجمان خلف مبنى الأهرام، والبديل الثانى لبائعى رمسيس ليكون في أحمد حلمى على الناحية الأخرى من محطة السكك الحديدية والبديل الثالث لبائعى حلوان وليكون في منطقة يطلق عليها توشكى على بعد ٨٠٠م من المحطة، وأنفقت أكثر من ٣٠ مليون جنيه لتجهيز هذه المواقع وتدبير منافذ موحدة الشكل لهم جميعًا وكانت توزع مجانًا ومع ذلك كان هناك تذمر منهم ومن الإعلام الذى ينتقد ظاهرة وجود الباعة الجائلين في وسط المدينة وينتقد في نفس الوقت أية محاولة لنقلهم.

الترتيبات الأمنية كانت تتم على أعلى مستوى سواء مع وزير الداخلية شخصيًا أو مع مدير أمن القاهرة ومن ورائه أجهزة الداخلية الأخرى وكذلك قادة المنطقة العسكرية المركزية، وكثيرًا ما انتظرنا أسابيع حتى نحصل على الموافقات الأمنية وتقارير تقدير الموقف وكثير ما أوقفنا

عمليات للإخلاء كانت سوف تتم في الصباح الباكر بأوامر من جهات أعلى تأتينا في منتصف الليل وقبلها بساعات قليلة.

الجميل في هذا المجهود الجبار هو أنه حينما تحين ساعة التنفيذ وغالبًا ما يكون ذلك فجرًا، يصبح الكل على قلب رجل واحد، وأتذكر أننى قبل أن أغادر مكتبى في العاشرة صباحًا بعد متابعة تطور الأمور منذ الفجر وذلك للذهاب إلى ميدان الأوبرا لمشاهدة جزء من عمليات إخلاء وسط المدينة على الطبيعة كنت أكتشف أن وزير الداخلية قد سبقنى إلى الموقع نفسه وأتذكر أن نفس الشيء حدث في ميدان رمسيس حيث سبقنى كل من مدير الأمن وقائد المنطقة العسكرية المركزية حيث أنشأنا غرفة عمليات في الميدان لحين انتهاء عملية الإخلاء بالكامل في تنسيق بديع من أجهزة الدولة المختلفة.

أكثر من ٢٠ ألف بائع متجول تم تحرير وسط القاهرة وميادينها الرئيسة منهم دون أى أضرار بشرية أو أعمال عنف كانت من الممكن أن تحدث، خاصة أن بعضهم في منطقة حلوان تحديدًا كانوا ممن يتسمون بالعنف ومنهم من هو هارب من أحكام جنائية في موطنه الأصلى.

من ضمن ما قمنا به لمواجهة ثقافة الانفلات واستباحة أملاك الدولة ما حدث في التعامل مع عشرات العمارات خلف المحكمة الدستورية والتى تم بناؤها بدون ترخيص وعلى أرض ملك الدولة وتسلموا أثمانها واختفوا، وكانت المعضلة أن ساكنى هذه الشقق السكنية على النيل ينظر إليهم في القانون على أنهم حسني النية ولم يقترفوا أية مخالفة، وكانت هذه الحجج لا تنطلى على شخص مثلى وصممنا على إزالة كل هذه العمارات وسط مطالبات بتقنين الأوضاع من قبل من استباحوا الملكية العامة وللأسف أيضًا فإن هذه الدعوات لاقت آذانًا في الإعلام ولم يزدنا ذلك إلا إصرارًا على إنقاذ القانون مهما كان الثمن.

كان التنسيق على أعلى مستوياته بين المنطقة المركزية العسكرية والهيئة الهندسية للقوات المسلحة ومديرية أمن القاهرة والأجهزة المسئولة عن الغاز والكهرباء والمياه والصرف الصحى وجرى الاستعانة بخبراء التفجير من القوات المسلحة لنسف العمارات التى تزيد عن عشرة أدوار بالديناميت، وكانت المتابعة اليومية للإعلام لهذا الأمر يعطى مؤشرًا قويًا لعودة هيبة الدولة وكان رادعًا لمن يفكر في مخالفة مماثلة في أماكن أخرى. وأتذكر أننا كنا حين تكتمل أعمال زرع أصابع الديناميت في هيكل العمارة استعدادًا لنسفها كنا نذهب إلى غرفة مراقبة تطل على الموقع من داخل مبنى مستشفي المعادى العسكرى وسط ترحيب من قياداتها تقديرًا للدور الذى كنا نقوم به.

استغرقت عملية إزالة جميع المبانى في المنطقة وعددها حوالى ٧٥ مبنى حوالى شهرين من العمل المتواصل، الديناميت للعمارات العليا، المعدات الأخرى للعمارات الأقل ارتفاعًا، عمل عظيم تم في هذا الوقت، ولم يفسد فرحتنا وقتها سوى أن اثنين من القادة الكبار ممن كانوا يقوموا بالتجهيز لأعمال التفجير بالديناميت تم استدعاؤهم لعملية مداهمة بؤرة إرهابية في القليوبية وللأسف فقد استشهدا هناك واستكمل مهمتهما ضباط آخرون كنت أشهد الحزن على وجوههم جراء فقد زملائهم ولكنهم يعرفون أن هذا هو قدرهم في الحفاظ على أمن واستقرار البلاد.

من المفارقات العجيبة جدًا ما حدث يوم استشهاد العميد مهندس ماجد إبراهيم بعد العملية الإرهابية في القليوبية حيث ذهب كل سكان العمارة التى كان يسكنها للمشاركة في الجنازة، وتزامن مع ذلك - نتيجة أعمال مخالفة قام بها مالك العقار دون إشراف هندسى- انهيار نصف العقار في هذا اليوم ولم تحدث أية إصابات أو وفيات ولولا خروج السكان قبل قليل في جنازة الشهيد ماجد لكان الأمر قد اختلف كثيرًا.

لم تكن العمارات خلف المحكمة الدستورية هى وحدها التى تم التصدى لها، حيث كانت هناك المئات من المخالفات الفجة في أماكن مختلفة أتذكر منها عمارات ضخمة من عشرات الطوابق أمام القصر الجمهورى بالقبة بنيت بدون ترخيص وضم أصحابها أجزاء من الشوارع المحيطة بأرضهم وبنوا عليها وتم إزالتها بالكامل بأساليب غير النسف بالديناميت لوجودها وسط مناطق سكنية كثيفة وفي هذه الحالة كنا نرفع الحفار إلى أعلى المبنى الذى قد يتجاوز ارتفاعه ٥٠ مترا بأوناش عملاقة ويبدأ هذا الحفار العمل في تكسير وهدم المبنى من الأعلى إلى أن يصل إلى الدور الأرضى وجرى نفس الأمر مع عمارات مماثلة في المطرية تم بناؤها على أراضٍ تم ضم مساحات من الشوارع إليها وكذلك تم ضم أراضٍ أخرى ملك الآثار المصرية في سوابق وجرأة لم يكن لها مثيل من قبل.

من الأعمال التى أفتخر بها أثناء شغلى لمنصب محافظ القاهرة ما تم إنجازه لإعادة أحياء القاهرة الخديوية وهى المنطقة الواقعة بين الميادين الثلاث الرئيسة: التحرير والعتبة ورمسيس والأماكن المتاخمة لها، وقد تطلب ذلك مجهودًا كبيرًا في الانتهاء من جراج التحرير وكان العمل قد استمر فيه لمدة ١٦ عامًا بنسبة إنجاز ٥٠٪ وتم الانتهاء من باقى الأعمال خلال شهور عديدة، وتلا ذلك إعادة تخطيط ميدان التحرير ومعالجة واجهات العمارات المطلة على الميدان، والتعامل مع كل العمارات في الشوارع الرئيسة مثل قصر النيل وطلعت حرب والجمهورية و٢٦ يوليو ورمسيس وعبد الخالق ثروت والتحرير في مجهود اشترك فيه المئات من المهندسين والمقاولين ومسئولى وزارتي الإسكان والثقافة وباشتراك مباشر من ملاك هذه العمارات وعلى رأسهم الشركة القابضة للتأمين وبالتنسيق أيضًا مع شركة الإسماعيلية التى تمتلك بعض العمارات وقامت بمعالجتها تحت إشرافنا وعلى نفقتها، وامتد العمل إلى ميدان رمسيس وميدان العتبة وإلى الأماكن المحصورة تحت الكبارى وإلى أجسام الكبارى نفسها وامتد

العمل ليشمل أيضًا رصف الشوارع والأرصفة وإعادة زراعة الأشجار وتطوير الإضاءة وتطوير كبارى قصر النيل والجلاء والواجهة النيلية ما بين كوبرى ١٥ مايو حتى كوبرى قصر النيل.

من الأعمال التى أفتخر أننى قمت بها ـ أيضا ـ أثناء شغلى منصب محافظ القاهرة ما يتعلق بمواجهة ظاهرة العشوائيات، حيث تحتوى محافظة القاهرة بمفردها على ٤٢٪ من المساكن العشوائية في جميع أنحاء البلاد وبعض العشوائيات تصنف على أنها مهددة للحياة بمعنى أن السكن نفسه أو المنطقة الواقع بها السكن يمثل خطرًا داهمًا على حياة المواطنين.

من أكثر الأحياء التى تحتوى على المساكن التى تمثل خطرا داهما حي منشأة ناصر والبساتين وغرب مدينة نصر وتأتى في المقدمة منطقة منشاة ناصر التى تحتوى على مناطق مثل الدويقة والزرايب والرزاز والتى تعتبر جميع مساكنها مخالفة لأبسط قواعد السلامة وبنيت جميعها في غياب تام للدولة في الثمانينيات والتسعينيات وبدون تراخيص وعلى أراضى ملك للدولة على امتداد هضبة المقطم وجميع المبانى غير آدمية، وبعضها لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال اختراق مبانٍ أخرى، وجميعها تحتوى على مبانٍ بدون أساس أو على ميول خطرة أو تربة غير مستقرة وتشهد تكدسا وكثافة سكانية عالية جدًا وسبق أن شهدت حادثة مروعة عام ٢٠٠٨ حيث سقطت الصخرة الشهيرة في الدويقة على عشرات المساكن مخلفة أكثر من ١٠٠ قتيل وكان معظمهم من أبناء الفيوم التى كنت محافظًا لها في هذا الوقت وشاركت في مراسم دفنهم في جنازات جماعية كانت تتم ليلاً، وجرى وقتها بناء مساكن جديدة في منطقة مجاورة لبعض المتضررين من الحادث إلا أن استمرار توافد سكان جدد على المنطقة بالإضافة إلى الزيادة السكانية الطبيعية أدى إلى استمرار تفاقم المشكلة.

عندما استوعبت خطورة الموقف قمت بإعداد مقترح لعرضه على الدكتور حازم الببلاوى رئيس الوزراء في ذلك الوقت، إلا أننى شعرت أثناء العرض أن خطورة الموقف غير ملفتة للاهتمام بالشكل الذى كنت أتوقعه وسمعت عبارات مثل أنها ظاهرة في مصر كلها ولماذا القاهرة تحديدًا وكان شاهدًا على ما حدث في هذا الاجتماع المهندس إبراهيم محلب وزير الإسكان في ذلك الوقت والوزير منير فخرى عبد النور وزير التجارة والصناعة.

لم تمنعنى العبارات التى سمعتها في الاجتماع من السير قدمًا في تحويل ما كنت اقترحته إلى حقيقة وتم اختيار أقصى شمال شرق المقطم في منطقة يطلق عليها "الأسمرات" لبناء النواة الأولى للمشروع والذى يتألف من حوالى ٧٠٠٠ شقة سكنية في مجتمع متكامل بخدماته المختلفة، وعند اكتمال جميع أعمال التخطيط والتصميم والطرح وقبل بداية الإنشاء دعوت رئيس الوزراء ليشرفنا في احتفال وضع حجر الأساس إلا أنه قال لى البركة فيك.

أصبح الأمر فيما يخص مشروعات الأسمرات تحديًا شخصيًا بالنسبة لى وتم وضع حجر الأساس في أوائل ٢٠١٤ وأتذكر أننى طلبت من نائب محافظ القاهرة للمنطقة الجنوبية وكان وقتها اللواء يس طاهر (الذى أصبح محافظًا للإسماعيلية فيما بعد) أن يضع ٢٠٠ جنيه تحت طوبة حجر الأساس وكان هذا تقليدًا قد شاهدته أثناء عملى في الكويت والقصد منه أن يبارك الله في المشروع وأن ينتهى على خير، وقد قام بذلك بالفعل، واكتشفنا في اليوم التالى أن هناك من أتى وأخذ هذا المبلغ قبل مرور ٢٤ ساعة على وضعه تحت طوبة حجر الأساس، ومع أن هذا الأمر كان ملفتًا للنظر وربما يدعو إلى التشاؤم، إلا أننا قد تعاملنا معه بمزيج من البساطة والتندر في آن واحد.

دار العمل في المشروع بجدية شديدة جدًا وتم اختيار عشرات المقاولين للتنفيذ وبدأت البشائر تظهر متمثلة في أعمدة مئات العمارات وكان شكلها وهى تخرج من تحت الأرض بعد أن تم تنفيذ الأساسات مفرحًا جدًا وكنا نركب أعلام مصر أعلى حديد التسليح البارز من كل عمود ونرفع العلم إلى أعلى مع تطور الأعمال بإنشاء أدوار جديدة في هذا المشروع الكبير، وقد حدث أثناء هذه المرحلة أن حل المهندس إبراهيم محلب محل الدكتور حازم الببلاوى رئيسًا للوزراء ووضع هذا المشروع على رأس أولوياته وزارته عدة مرات أثناء تنفيذ المرحلة الأولى وعرضنا عليه أن ننفذ مرحلة ثانية من المشروع ووافق على وعد بتدعيمنا ماليًا حيث إن المرحلة الأولى من المشروع كانت قد استنفزت معظم موارد المحافظة في هذا الوقت.

بدأنا التفكير في المرحلة الثانية من المشروع وأطلقنا عليها "الأسمرات ٢" وكانت المشكلة الرئيسة تتعلق بقيود الارتفاع في المنطقة التى لا تزيد عن دورين لقربها من مواقع منصات صواريخ الدفاع الجوى التى تم التغلب عليها بدعم من الفريق عبد المنعم التراس قائد قوات الدفاع الجوى وقتها وتولى بنفسه عرضها على جهات الاختصاص في القوات المسلحة وبقيت بعد ذلك عملية التمويل.

كانت الدفعة الكبرى في المشروع عندما انهارت أحد الصخور بالقرب من منازل منطقة الرزاز والتى كنا قد نجحنا للتو في نقل من كانوا في هذه المنازل بعد عملية إقناع مضنية، وعندما وقعت الصخرة لم تكن هناك خسائر في الأرواح وقمت والمهندس إبراهيم محلب بزيارة الموقع واتصل رئيس الوزراء بالسيد الرئيس السيسى يطمئنه على حياة المواطنين وعندما تساءل الرئيس عما تقوم به الحكومة لهذه الأسر المتأثرة وهى بالآلاف أطلعه وقتها المهندس إبراهيم محلب على مشروع الأسمرات (١) الجارى تنفيذه، والأسمرات (٢) الجارى التخطيط له، ووعد الرئيس بدعم هذا

المشروع وهو ما حدث بالفعل بعدها بأيام قليلة حيث أمر بتوفير تمويل من صندوق تحيا مصر قدره ٥٠٠ مليون جنيه للمرحلة الثانية من المشروع.

وفر اهتمام الرئيس دعمًا معنويًا هائلاً لجميع العاملين في المشروع وتسابقت جميع الشركات في العمل على مدار الساعة وكانت هناك زيارتان أسبوعيتان لموقع المشروع يومى الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع وكل زيارة تستغرق من ٥ إلى ٧ ساعات وأصبح هذا تقليدًا أسبوعيًا يلتزم به الجميع، كانت كل زيارة تبدأ ظهرًا ولا تنتهى قبل التاسعة مساء، وأتذكر أن هناك من قال لى أن سكان المقطم ومن تكرار زيارتى للمنطقة في طريقى إلى موقع المشروع ومع الترتيبات التى يقوم بها رؤساء الأحياء والأمن مع زيارة المحافظ، قد بدأ يشيع بينهم أن لى بيتا ثانيا في المقطم (يقصدون زوجة ثانية).

كان قرار التوسع في المشروع بإنشاء الأسمرات ٢ بطاقة إضافية حوالى ٦ آلاف وحدة سكنية يستدعى إعادة النظر في مرافق المشروع ككل حيث تم الترتيب عندما كان المشروع مقتصرًا على المرحلة الأولى بحيث يتم توصيل مرافقه (المياه، الصرف الصحى والكهرباء) بمرافق المنطقة والمتوفرة فعلاً إلا أن التوسع في المشروع استتبع إيجاد تصور آخر تمامًا لمرافق المرحلتين الأسمرات ١ والأسمرات ٢ مع خدمات أكثر وتكاليف أكثر كثيرًا متضمنة محطات للرفع وخطوط للصرف وكذلك تدعيم لشبكة الطرق المؤدية إلى المشروع من المقطم ومحور الشهيد ومحور المشير.

مع قرب انتهاء المرحلتين الأسمرات ١ والأسمرات ٢ في أواخر عام ٢٠١٥ كان هناك توجه من الرئيس السيسى ببداية مرحلة ثالثة يطلق عليها الأسمرات ٣ على أرض ملك القوات المسلحة ومتاخمة للمشروع وتم تسلمها بالفعل وبدأت أعمال التخطيط والتصميم.

أصبح مشروع الأسمرات محط اهتمام الرئيس وكانت تتم بتوجهات منه زيارات للموقع من قبل المهندس إبراهيم محلب الذى أصبح مساعد رئيس الجمهورية للمشروعات الكبرى واللواء أمير سيد على مستشار الرئيس للتخطيط العمرانى والفريق (اللواء في هذا الوقت) كامل الوزير رئيس الهيئة الهندسية للقوات المسلحة واللواء محمد الأمين رئيس هيئة الشئون المالية للقوات المسلحة وأمين صندوق تحيا مصر.

جرى الترتيب لافتتاح رئاسى للمشروع في زيارة مشتركة في منتصف فبراير ٢٠١٦ كان أطرافها الفريق كامل الوزير (اللواء فى ذلك الوقت) واللواء محمد الأمين وأنا وتم الاتفاق على كل التفاصيل واختيار مواقع تفقد المشروع وخط سير الرئيس والعمارة والوحدة السكنية التى سيتفقدها سيادته وكل التفاصيل الأخرى إلا أن الظروف لم تمهلنى لحضور حفل الافتتاح بصفتى محافظ القاهرة والمسئول عن المشروع بالكامل، حيث إننى قد انتقلت لشغل منصب وزير النقل في ٢٣ مارس ٢٠١٦ وحضرت فيما بعد حفل الافتتاح في يونيه ٢٠١٦ وأشار الدكتور مصطفى مدبولى رئيس مجلس الوزراء (وزير الإسكان وقتها) في معرض حديث عن المشروع إلى الدور الذى قمت به وصفق الحضور وكان ذلك إيذانًا بنهاية مشوار طويل لى مع هذه القضية المهمة.

كان يتم بالتوازى مع مشروع الأسمرات عدة مشروعات أخرى ومنها المحروسة (١) والمحروسة (٢) على أول طريق بلبيس الصحراوى لنقل سكان المساكن العشوائية في شارع ترعة الطوارئ الموازى لطريق جسر السويس، وكان يجرى أيضًا إخلاء منطقة تل العقارب في السيدة زينب بعدما تم الانتهاء من التخطيط الكامل للمنطقة والتصميم لما عرف بعد ذلك بمشروع روضة السيدة زينب.

من القضايا الجوهرية التى تم الاهتمام بها كانت قضية تحديث أسطول النقل العام حيث كان الأسطول الذى يصل حجمه ٢٦٠٠ أوتوبيس لا يعمل منه بشكل منتظم أكثر من ١٠٠٠ أوتوبيس وكان الأمر يستدعى تدخلاً سريعًا وهو ما تم بالفعل حيث تم تدبير تمويل على مراحل لحوالى ٦٥٠ أوتوبيس من وفورات الهيئة ومن تمويل إضافي من المالية كما تمت الموافقة على تضمين منحة دولة الإمارات العربية لمصر في أعقاب ٣٠ يونيه لعملية شراء ٦٠٠ أوتوبيس وبالتالى تم إضافة ١٢٥٠ أوتوبيس جديد خلال أقل من عامين بالإضافة إلى أكثر من ٤٠٠ أوتوبيس أخرى من القطاع الخاص.

تم أيضًا الاهتمام بمحاورالطرق الرئيسة وبالميادين وتوسيعها ورصفها مثلما حدث مع شوارع الميرغنى وأبو بكر الصديق ومصطفى النحاس وعباس العقاد والطيران ويوسف عباس وامتداد رمسيس والحجاز ومحور عينى الحياة في مصر القديمة والرازى الأوسطى وميادين السيدة زينب والسيدة نفيسة وميدان التحرير ورمسيس.

كانت تجربة محافظة القاهرة ثرية جدًا وفي ظروف غير تقليدية تمامًا من حيث توقيتها في أعقاب ثورة ٣٠ يونيه وتزامنها مع أحداث مهمة في تاريخ مصر استدعت العمل تحت وطأة حالات حظر التجول وأحداث إرهابية متلاحقة وفي مواجهة تراكمات بدأت من بداية يناير ٢٠١١ مرورًا بحكم الإخوان والشلل الذى أصاب مرافق الدولة وعلى رأسها العاصمة والذى تطلب عملاً وجهدًا إضافيًا أعتقد أننى قد وفقت في القيام به.

لقد شاركنى في هذه التجربة الكثيرون من قيادات محافظة القاهرة وعلى رأسهم نواب المحافظ الخمسة ومنهم كما سبق الإشارة اللواء يس طاهر محافظ الإسماعيلية فيما بعد، واللواء أحمد ضيف محافظ الغربية فيما بعد، واللواء سيد نصر محافظ كفر الشيخ فيما بعد، واللواء أحمد

تيمور الذى شغل منصب القائم بأعمال المحافظ بعد انتقالى لوزارة النقل، واللواء أيمن عبد التواب والأستاذة جيهان عبد الرحمن بعد انتقالها من الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة، بالإضافة إلى رئيس هيئة النظافة المهندس حافظ السعيد والمسئول عن مشروعات الإسكان المهندس هانى شنيشن ورئيس هيئة النقل العام اللواء رزق مصطفى رزق واللواء محمد البندارى سكرتير عام المحافظ والعميد محسن صلاح السكرتير العام المساعد للمحافظة وهو حالياً نائب محافظة القاهرة للمنطقة الشمالية.

لوظيفة محافظ القاهرة خصوصية شديدة كون شاغلها مسئولا عن كل أمور عاصمة البلاد وعن الأمور الحياتية لأكثر من ١٠ مليون مواطن هم سكانها وعن ضعف هذا العدد لتشعب وتداخل أمور المحافظة مع إقليم القاهرة الكبرى وباقى أجزاء الجمهورية القريبة منها، هذه الوظيفة الرهيبة تحتاج من شاغلها نظام عصبى خاص وقدرات إبداعية متنوعة وخبرة في ضبط النفس ومقدرة على التعامل مع الأحداث المتلاحقة على مدار الساعة، هى وظيفة تستنهض في شاغلها كل ما له من خبرات وملكات التى قد يكون قد استجمعها على مدار سنوات طوال ليقود سفينة العمل في هذه المدينة العظيمة.

أطلق علي بعض أصدقائى لقب "والى العاصمة" أو "جناب الوالى" وانتشر استخدام هذا اللقب وانتقل إلى مجموعات أخرى من الأصدقاء وأصبح استخدامه بينهم أو بينهم وبين غيرهم يتم بشكل عفوى وهناك وقائع كثيرة لاستخدام هذا اللقب بشكل أثار الاستغراب، وقد روى لى الصديق ياسر رزق رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم أنه بينما كان يعرض على المهندس شريف إسماعيل رئيس مجلس الوزراء أمورا تخص أرض تمتلكها أخبار اليوم على كورنيش النيل وترغب في استثمارها بشكل جيد فقد ظل يردد أمامه أن جناب الوالى قد وافق على ذلك وسط دهشة

رئيس الوزراء من تكرار استخدام هذا اللقب الغريب دون أن يعرف مقصده إلى أن اكتشف ياسر رزق ذلك وأوضحه لسيادته.

مع انتقالى إلى وزارة النقل لم يتنازل أصدقائى عن لقب جناب الوالى الذى اختاروه لى واستمروا في استخدامه، وأصبح هو اللصيق بى حتى الآن وقرروا أيضًا أن هذا اللقب لا يذهب إلى أي مسئول جديد يتولى وظيفة محافظ القاهرة ولكنه لقب اختصونى به، وأنا أعتز به أيضًا.

أداء اليمين الدستورية محافظاً للقاهرة أمام الرئيس المستشار عدلى منصور فى ١٣ أغسطس ٢٠١٣

صورة تذكارية مع الرئيس المستشار عدلي منصور ورئيس مجلس الوزراء الدكتور الببلاوي والمحافظين الجدد ١٣ أغسطس ٢٠١٣

فى احتفال وضع حجر الأساس لمشروع نصب تذكارى فى ميدان التحرير بحضور رئيس مجلس الوزراء ومجموعة كبيرة من الوزراء فى نوفمبر ٢٠١٤

الاحتفال بدخول معدات نظافة جديدة فى حضور المهندس إبراهيم محلب رئيس مجلس الوزراء فى ٢٠١٤

الاحتفال بمضاعفة أتوبيسات النقل العام فى القاهرة بحضور المهندس إبراهيم محلب رئيس مجلس الوزراء فى ٢٠١٥

عشوائيات منشأة ناصر ومشروع الأسمرات ٢٠١٦

مشروعات تطوير القاهرة الخديوية ٢٠١٥

مع فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الجامع الأزهر وفضيلة المفتى والفنان محمد صبحى فى زيارة أحد مشروعات القضاء على العشوائيات

مع قداسة البابا تواضروس الثانى بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

الفصل الخامس عشر

الوزير العائد

وزارة النقل ٢٠١٦ - ٢٠١٧

الوزير العائد

وزارة النقل ٢٠١٦ - ٢٠١٧

لا شك أن تجربة عودة الوزير مرة أخرى لتولى نفس منصبه الوزارى السابق هى من التجارب غير المتكررة في الممارسة المصرية؛ هى تحدث ولكنها الاستثناء. لقد كانت عودتى لوزارة النقل مرة أخرى عام ٢٠١٦ من المحطات المهمة في حياتى المهنية وهى بالفعل هى تجربة استثنائية.

ارتباطى بقضايا النقل القومى بدأ منذ وقت طويل يعود إلى سنة تخرجى عام ١٩٧١. لم يكن من المعتاد أن يختار أوائل خريجى الهندسة المدنية في كليات الهندسة المصرية التخصص في مجال تخطيط النقل، حيث يجنح أكثرهم إلى التخصصات التقليدية في الهندسة الإنشائية والأساسات وغيرها من التخصصات التى تضمن فرصًا أكبر في أعمال الاستشارات الهندسية، ولكن كان لى اتجاه مختلف بالرغم من أن كل البدائل الأخرى كانت مطروحة ومتاحة.

كنت في العام الأول بعد تخرجى وأثناء عملى معيدًا في كلية الهندسة جامعة القاهرة موضع ثقة لاثنين من كبار أساتذة الهندسة وفرسانها في مصر في ذلك الوقت، أحدهم كان الدكتور على صبرى أعظم أساتذة ميكانيكا التربة والأساسات في مصر قاطبة والذى كان له دور في دراسات السد العالى وإنقاذ معابد فيلة، أما الثانى فكان الدكتور عبد الرحمن

الهوارى أول من تخصص في علوم تخطيط واقتصاديات النقل في ألمانيا في خمسينيات وستينيات القرن الماضى.

مع الدكتور على صبرى وفي مكتبه الاستشارى اشتركت في عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ في الإشراف على أعمال دراسات التربة على مسار مشروع مترو الأنفاق عندما بدأ التفكير فيه في هذا الوقت وكان يتم التخطيط له من قبل مكتب استشارى فرنسى.

مع الدكتور عبد الرحمن الهوارى اشتركت في أولى دراسات تخطيط النقل على يد استشاريين مصريين في مصر وكانت لحساب شركة شرق الدلتا لنقل الركاب وكان رئيسها المهندس/سمير فهمى والد كل من المهندس/سامح فهمى (وزير البترول فيما بعد) وشقيقه المحاسب هادى فهمى والسيدة داليا حرم د. خالد عبد الناصر زميل الدراسة.

لم يكن الاستمرار مع كليهما معًا ممكنًا لاختلاف المجال وكان على أن اختار، وكان قرارى وقتها أن أتوجه إلى الجديد في علوم الهندسة المدنية في هذا الوقت وهو علوم التخطيط والإدارة في مجال النقل القومى، ولم أندم على القرار حتى الآن بل إننى قد شجعت عليه آخرين أقربهم شقيقتى الصغرى الدكتورة عزة مصطفى سعيد وهى الآن واحدة من الأساتذة المصريين في هذا التخصص ورئيسة لقسم الهندسة المدنية بهندسة القاهرة وابنتى الكبرى الدكتورة داليا جلال سعيد الأستاذة المساعدة في جامعة القاهرة وكلتاهما تخصصا في المجال نفسه وذهبتا إلى نفس الجامعات التى تعلمت بها في كندا وحصلتا أيضًا على نفس الدرجات بعد ذلك بسنوات، بل إنه من الصدف أن ابنتى قد ولدت في كندا أثناء دراساتى هناك وعادت إليها بعد ما يقرب من ربع قرن لتعيد الكرة من جديد.

أكاديميًا تسلحت بأعلى الدرجات العلمية في التخصص ومن أقوى الجامعات العالمية تحت إشراف أبرز العلماء فيه وعملت بعد التخرج في وظائف الإدارة العليا في وزارة النقل الكندية وحصلت على دورات في الإدارة التنفيذية العليا وقمت بالتدريس الجامعى في جامعات كندية وعربية ومصرية لمقررات أكاديمية وتطبيقية في مجال تخطيط وإدارة النقل وهندسة الطرق والمطارات ودراسات الجدوى للمشروعات الكبرى وغيرها من التخصصات واشتركت على مدار ٤٠ عامًا في العشرات من الدراسات الاستشارية المتخصصة في مجال تخطيط النقل وإدارته.

ومع عشقى للعمل الجامعى الذى تدرجت فيه من المعيد الصغير إلى الأستاذ ثم العميد ورئيس الجامعة، إلا أن إحساسا لم يكن يفارقنى أبدًا أننى يومًا ما سأكون وزيرًا للنقل وكنت قد تعرفت على جميع وزراء النقل السابقين منذ عام ١٩٧٢ وعمرى ٢٤ عامًا حين تولى د. حسن حميده الوزارة، ثم المهندس سليمان عبد الحي، ثم م. على فهمى الداغستانى، ثم م. الحسينى عبد اللطيف ثم م. سليمان متولى ثم د. إبراهيم الدميرى و م. حمدى الشايب و د.عصام شرف وعاصرت كل الأحداث المهمة في الوزارة طول هذه الفترة.

كانت المرة الأولى التى كنت فيها مرشحًا لتولى الوزارة عندما وقعت حادثة قطار الصعيد في فبراير ٢٠٠٢ وأعقبها استقالة الدكتور إبراهيم الدميرى وزير النقل وقتها، وكانت المرة الثانية عقب وفاة المهندس حمدى الشايب في منتصف ٢٠٠٤ وكانت المرة الثالثة عقب استقالة المهندس محمد منصور في أواخر ٢٠٠٩ بسبب حادث قطار الصعيد الذى خرج عن القضبان وأدى ذلك إلى وفاة ١٨ مواطنا وإصابة ٣٦ آخرين.

وفي الوقت الذى كانت هذه التسريبات بشأن تولى وزارة النقل ولا تتحول إلى واقع في النهاية، كانت تأتينى فرص فعلية لتولى مناصب أخرى

بنفس القدر من الأهمية ومنها رئاسة الجامعة (بدرجة وزير) ومحافظ (بدرجة وزير أيضًا) ولكن كان أن أتولى وزارة النقل هو الأقرب إلى تطلعاتى واستعداداتى الأكاديمية والإدارية والتنفيذية.

عندما تركت موقع محافظ الفيوم في ١٤ أبريل ٢٠١١ في أعقاب ثورة ٢٥ يناير وسقوط كامل نظام الرئيس حسنى مبارك، اعتبرت ذلك بمثابة إنهاء لدورى في العمل العام، لم أكن سعيدًا، ولكن كان هذا هو التقييم الطبيعى للموقف في هذا التوقيت.

كانت فرضية أن أتولى أى منصب وزارى بعدما جرى من أحداث في يناير ٢٠١١ من الفرضيات المستبعدة تمامًا، ولذلك كان لاتصال الدكتور كمال الجنزورى في أوائل ديسمبر ٢٠١١ وعرضه أن أشترك في الحكومة التى كان يشكلها تحت مسمى حكومة الإنقاذ الوطنى وأن أشغل فيها حقيبة وزارة النقل تحديدًا يمثل لى فرصة لخدمة بلدى في مجال أحبه منذ الصغر وأمضيت سنوات عديدة أتفانى في ثقل مهاراتى لأكون جديرًا به.

طبعًا كان المؤكد وقت تشكيل حكومة الدكتور الجنزورى أن هذه الوزارة لن تكون تقليدية ولا سيكون للدخول فيها أى جوانب احتفالية وكذلك كان من المؤكد أيضًا أنها وزارة مؤقتة سينتهى دورها خلال شهور قليلة مع إتمام الانتخابات التشريعية والرئاسية وهو ما تحقق بالفعل حيث استمرت الوزارة ثمانية شهور فقط بدءًا من ٧ ديسمبر ٢٠١١ حتى ٢ أغسطس ٢٠١٢، كان عمر الحكومة قصيرًا لكن ما تم إنجازه على مستوى إنقاذ الوطن من انهيار تم كان أمرًا لا تخطئه عينى ولعب الدكتور الجنزورى في ذلك دورًا محوريًا وكذلك وزير الداخلية اللواء محمد إبراهيم يوسف.

مع وصول الإخوان إلى الحكم وحصولهم والسلفيين على الأغلبية في مجلسي الشعب والشورى ثم نجاح ممثلهم محمد مرسى في انتخابات

رئاسة الجمهورية بعد ذلك في ٢٤ يونيه ٢٠١٢ واختيارهم الدكتور هشام قنديل رئيسًا للوزراء، ومع توالى الإجراءات والقرارات التى كرست السلطة لهم ومكنتهم من مفاصل الدولة، بات واضحًا أن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذه الشاكلة وتوالت الأحداث التى قادت إلى خروج الجماهير في ٣٠ يونيه ٢٠١٣ ودعم القوات المسلحة للملايين التى خرجت وصدور بيان ٣ يوليو الذى أنهى حكم الإخوان وعطل العمل بالدستور وتولى المستشار عدلى منصور رئيس المحمة الدستورية منصب رئيس الجمهورية بشكل مؤقت وجرى تكليف الدكتور الببلاوى بتشكيل الحكومة في يوليو ٢٠١٣ وتوليت أنا منصب محافظ القاهرة في ١٣ أغسطس ٢٠١٣.

تولى رئاسة مجلس الوزراء أثناء شغلى لمنصب محافظ القاهرة إلى جانب الدكتور الببلاوى كل من المهندس إبراهيم محلب في الفترة من مارس ٢٠١٤ إلى سبتمبر ٢٠١٥ ثم المهندس شريف إسماعيل اعتبارًا من سبتمبر ٢٠١٥، وفي ٢٣ مارس ٢٠١٦ قام المهندس شريف إسماعيل بإجراء أول تعديل وزارى على حكومته خرج بموجبه مجموعة من الوزراء ومنهم وزير النقل وكان وقتها هو الدكتور/ سعد الجيوشى.

استدعانى المهندس شريف إسماعيل لمقابلته بعد ظهر السبت ١٨ مارس ٢٠١٦ وتحدث حول عرض أمر تكليفي بتولى وزارة النقل مرة أخرى على القيادة السياسية ضمن التعديلات التى كان يجرى الإعداد لها في ذلك الوقت وذكر من ضمن أسبابه لذلك أننى من ناحية سبق وأن توليت هذا المنصب من قبل ومن ناحية أخرى فإنه يرى أننى أتمتع بحس سياسى واضح وأننى من وجهة نظره قد أديت مهامى كمحافظ للقاهرة بنجاح وأنه يريد أن يستفيد من خبراتى في وزارة النقل مرة أخرى.

لم يكن استدعائى من قبل رئيس مجلس الوزراء لهذا اللقاء مفاجأة كاملة بالنسبة لى، حيث سبقها حديث من قيادة معروفة في الدولة يوم

الثلاثاء ١٥ مارس حول الرأى فيمن يمكن أن يكون وزيرًا مناسبًا للنقل وكان السؤال بإيحاء مفاده: ما رأيك إذا ما طلب منك تولى هذه الوزارة الآن؟

قابلنى رئيس مجلس الوزراء بشكل نهائى مرة أخرى مساء الثلاثاء ٢٢ مارس ٢٠١٦ وكان ذلك حوالى الساعة الحادية عشرة مساءً في مقر دار الدفاع الجوى الواقعة على محور المشير وتم إخطارى بعدها بساعتين، أي في الساعة الواحدة صباح اليوم التالى أننى سأقوم بحلف اليمين الدستورية في الواحدة ظهر نفس اليوم الموافق ٢٣ مارس ٢٠١٦.

الشعور المرتبط بالانتقال من موقع للمسئولية قضيت فيه فترة إلى موقع آخر بمسئوليات أكبر له مذاق خاص، وقد جربته من قبل حين انتقلت عام ٢٠٠٥ من موقع نائب رئيس جامعة القاهرة إلى رئيس جامعة الفيوم والذى صدر به قرار جمهورى وجربته مرة أخرى عندما صدر القرار الجمهورى، بتعيينى محافظًا للفيوم عام ٢٠٠٨ وكان الانتقال من منصب محافظ القاهرة إلى منصب وزير النقل مرة أخرى هى تجربتى الثالثة في هذا السياق.

أول ما ينتاب الشخص من شعور في هذه المناسبة هو أن متخذ القرار يرى أن المسئول قد نجح في مهامه السابقة ومهمته الأخيرة تحديدًا وإلا ما تم ترشيحه إلى منصب أعلى ومسئوليات أكثر وغالبًا ما يكون هذا الانطباع عن مجمل ممارسات المسئول في مواقع المسئولية السابقة بما فيها رأى الشارع والمواطنين والعاملين معه وتحت رئاسته وكذلك حسن تصرفاته ورجاحة قراراته وتوازنه الانفعالى وتقديره للمسئولية وقدرته على الإدارة والقيادة تحت ضغوط متعددة وفي أمور متشعبة ومتشابكة، أن يشعر أى مسئول بأن هذا هو مجمل ما أدى به إلى الموقع الأعلى يعطى له قدرًا معتبرًا من الرضا النفسى وأن تضحياته ومجهوداته قد وجدت من يقدرها.

ثانى ما ينتاب المسئول هو الكيفية التى يستطيع بها أن ينهى ارتباطاته مع الموقع الذى سيتركه بعدما أمضى فيه عدة سنوات كان هو المسئول الأول عن كل شيء فيه، وكانت له أولويات في إدارته وخطط زمنية لإنجاز المشروعات المهمة ويحتفظ بتفاصيل تتعلق بالتنسيق مع الوزارات والجهات الأخرى في الدولة لم تصل إلى مرحلة أن توضع في أطر مؤسسية يمكن أن يتابعها من سيأتى إلى موقع المسئولية، وغالبًا ما يكون للمسئول موضوعات ارتبط بها وإنجازات يريد استكمالها ومسئولون كان قد وصل معهم إلى درجة من الفهم المشترك للأمور تسمح له بإدارة سلسلة وممنهجة للأمور.

مغادرة موقع محافظ القاهرة تحديدًا كانت صعبة على النفس، مكتب محافظ القاهرة كان بالنسبة لى كامل الامتداد الجغرافي والحضارى والإنسانى للقاهرة ككل، في كل شارع وميدان وحي، كانت لى هناك تحديات ونجاحات وإخفاقات، كان شغل هذا المنصب تحديدًا يمثل تحديًا صعبًا من حيث مسئولياته من ناحية ومن حيث توقيته متزامنًا مع أحداث جسام في تاريخ الوطن في أغسطس ٢٠١٣.

ثالث ما ينتاب المسئول هو كيفية مواجهة مسئوليات الموقع الجديد؟، وكيف ينجح فيه كما نجح فيما تولاه من مسئوليات في مواقعه السابقة؟.

الجديد في الموضوع في حالتى هذه كان أن انتقالى سيقودنى إلى موقع سبق وأن شغلته من قبل وأننى سأعود إلى المكتب الذى تركته مع وصول الإخوان إلى الحكم في ٢ أغسطس ٢٠١٢ بعد غياب ثلاث سنوات ونصف وحينها كنت قد توقعت فشلهم قبل أن يبدأوا، وحمدت الله أننى لم أتورط في الاستمرار في الوزارة وقتها، وإلا ما كنت قد سامحت نفسى حتى اليوم.

عدت إلى وزارة النقل بآمال كبيرة وكانت هناك تحديات صعبة تتمثل في تدنى مستويات التنفيذ في المشروع القومى للطرق ومواجهة قضايا تطوير السكك الحديدية وتوقف المباحثات الخاصة بمشروعات مهمة مثل تمويل وتنفيذ خط السكك الحديدية المكهرب من السلام إلى العاشر من رمضان وكذلك تعثر مفاوضات تدبير ١٣٠٠ عربة ركاب جديدة والتى كانت لها عروض متعددة من المجر وروسيا ولاتفيا، وتأخر مشروع تطوير المزلقانات ومشروعات التحكم الإلكترونى في إشارات ومشروعات تطوير المحطات والخطوط وتطوير ورش الصيانة وتدعيم أسطول الجرارات بحوالى ٣٠٠ جرار بتكلفة حوالى مليار دولار.

كانت هناك أيضًا تحديات في تطوير قطاع النقل البحرى ومنها ما هو متعلق بإنشاء محطات تداول البضائع في موانى الإسكندرية والدخيلة ودمياط وسفاجا وكلها مشروعات ضخمة مرتبطة بحركة التجارة المصرية مع العالم الخارجى.

وكانت هناك أيضًا مشروعات مترو الأنفاق في القاهرة واستكمال إنشاءات محطات الخط الثالث وأعمال الحفر في المرحلة الرابعة من الخط في المسافة من محطة هارون الرشيد حتى محطة عدلى منصور عند تقاطع الطريق الدائرى مع طريق الإسماعيلية الصحراوى مرورًا بمحطات هيليوبولس والألف مسكن ونادى الشمس والنزهة وقباء.

المشروعات المدرجة ضمن المشروع القومى للطرق كانت لها أولوية خاصة، كان الرئيس يتابعها وعندما عدت إلى الوزارة لم يكن الإنجاز فيها مرضيًا، انتهينا في شهور قليلة من مشروعات تطوير طريق السويس الصحراوى وطريق الزعفرانة الشيخ فضل وطريق وادى النطرون العلمين وطريق سوهاج البحر الأحمر وطريق قنا ـ سفاجا وتم افتتاح هذه المشروعات في احتفالات رئاسية في مايو ٢٠١٦ و يناير ٢٠١٧.

كان التحدى في المشروع القومى للطرق مرتبطا أكثر بطريقين رئيسين هما طريق شبرا ـ بنها الحر بطول ٤٠ كم والذى يبدأ من شبرا الخيمة على الطريق الدائرى وينتهى عند بنها والقوس الشمالى من الطريق الدائرى الإقليمى بطول ٩٢ كم والذى يربط بين طريقي القاهرة ذ الإسماعيلية الصحراوى وطريق القاهرة ذ الإسكندرية الصحراوى.

مع بداية عملى كان حجم الإنجاز في طريق شبرا ـ بنها حوالى ٣٠٪ وفي الطريق الدائرى الإقليمى حوالى ١٠٪، كان هناك صعوبات كثيرة من حيث استكمال نزع الملكية، إزالة المبانى والزراعات المتعارضة مع المسارات المقترحة، احتجاجات الأهالى التى لا تنتهى، التنسيق مع المحافظات، المشاكل المتعلقة مع مصلحة المساحة، التعارضات مع خطوط وأبراج الكهرباء، تأخر أعمال الكبارى أعلى المجارى الحالية وأعلى الطرق الحالية والحاجة إلى استكمال الكبارى أعلى نهر النيل عند بنها والخطاطبة وأعلى الطريق الدائرى وأعلى ترعة المنصورية وبحر شبين وأعلى طرق بنها ـ الزقازيق وكذلك طريق بنها ـ المنصورة والقاهرة الإسكندرية الزراعى، وخطوط السكك الحديدية ومنها خط القاهرة ـ الإسكندرية وخط قليوب ـ شبين القناطر وخط بنها ـ شبين الكوم وخط المناشى.

طريق شبرا ـ بنها كان يشتمل على أكثر من ٤٥ من الكبارى من هذا النوع بينما كان استكمال الدائرى الإقليمى ينطوى على الانتهاء من حوالى ٩٠ من هذه الكبارى والأعمال الصناعية.

كان العمل في هذين المشروعين يتطلب جهداً خاصًا ومتابعة مستمرة وزيارات أسبوعية وقضاء الساعات في مواقع العمل ووسط الزراعات، كان عملاً جبارًا بكل معنى الكلمة، لم يكن الرئيس مستريحًا عندما أخبرته عن نسب الإنجاز التى وجدت عليها المشروعين عند تولى الوزارة، وكان أيضًا متعجبًا من ارتفاع التكاليف المتوقعة لإنهاء المشروعين وكان قد جرى

تصميمها من قبل وجارى التنفيذ كانت التكاليف المتوقعة هى اللازمة للتنفيذ وفق هذه التصميمات السابق اعتمادها، وطلب سيادته مراجعة التصميمات الهندسية وخفض التكاليف، وقد فعلنا ذلك وقتها.

مع استمرار المتابعة لمعدلات التنفيذ والضغط المستمر على العشرات من شركات المقاولات العاملة في المشروع وصل معدل التنفيذ في مشروع طريق شبرا - بنها الحر إلى حوالى ٨٥٪ وفي الطريق الدائرى الإقليمى إلى حوالى ٦٠٪ مما يعنى تنفيذ أعمال تكلفتها مليار جنيه في الطريق الأول وحوالى ٤ مليار جنيه في الطريق الثانى خلال عام واحد بمعدل تنفيذ شهرى يصل إلى ٤٠٠ - ٥٠٠ مليون جنيه في هذين المشروعين فقط.

تركت الوزارة في ٢٦ فبراير ٢٠١٧ ولم يسعفنى الوقت حتى يكتمل تنفيذ المشروعين بالرغم من المجهود الخارق الذى بذلته للانتهاء منهما وكانا هما المشروعين الكبيرين المتبقين من مكونات المشروع القومى للطرق والتى كانت تقع ضمن تكليفات وزارة النقل وتشرف عليها الهيئة العامة للطرق والكبارى. تم افتتاح مشروع طريق شبرا - بنها الحر في احتفال رئاسى في يناير ٢٠١٨، وتم افتتاح مشروع الطريق الدائرى الإقليمى في ٩ سبتمبر ٢٠١٨ وقد حضرت هذا الاحتفال بدعوة من وزير النقل وقتها الدكتور هشام عرفات.

السكك الحديدية هى التحدى الأكبر لمن يتولى وزارة النقل، أول ما يتمناه أى وزير للنقل عند دخول الوزارة هو ألا يخرج منها مع وقوع حادث كبير تكون استقالة الوزير هى المخرج السحرى لامتصاص غضب الرأى العام، هكذا خرج الدكتور الدميرى والمهندس محمد منصور والدكتور رشاد المتينى وأخيراً الدكتور هشام عرفات. أثناء شغلى للوزارة مرتين لم تقع حوادث تذكر، وكنت محظوظًا في ذلك.

بعيدًا عن الحوادث وهى عرض لمرض عضال طال السكك الحديدية بدأ في الأساس كنتيجة مباشرة لانتفاضة يناير ١٩٧٧ التى اندلعت في أعقاب زياردات طفيفة في أسعار الخبز والأرز والمحروقات، ومع خروج المواطنين إلى الشوارع وعدم قدرة الشرطة على السيطرة على الأمور ونزول القوات المسلحة تراجع الرئيس السادات عن هذه الزيادات وهدأت الأمور بعدها. ومن ذلك الوقت وأصبح المسئول الشاطر هو الذى لا يثير الجماهير بأي زيادات في أسعار أي خدمات تقدمها الدولة حتى ولو زادت التكلفة التى تتحملها الدولة في توفير هذه الخدمات عشرات المرات.

هذا هو بيت الداء في السكك الحديدية، جميع الدراسات التى تمت منذ منتصف السبعينيات وأوائل الثمانينيات أشارت إلى ضرورة تحريك سنوى لأسعار خدمات السكك الحديدية من ٥ -١٠٪ ولم يتم ذلك منذ ١٩٨٠ وبشكل متدرج ما أوصل هذه المرفق إلى ما وصل إليه.

تعديل أسعار الخدمات كان حتميًا منذ ٤٠ عاما وهو ما لم يحدث بشكل منتظم وممنهج وإنما تمت زيادات ضعيفة ومتفرقة وعشوائية لا تمثل مدخلاً بديلاً لما كان يجب أن يتم منذ ذلك الوقت.

تزامن مع هذا القصور في تسعير الخدمات أسباب أخرى لتدنى خدمات السكك الحديدية منها التضخم الكبير في عدد العاملين والخلل الشديد في التوزيع ما بين طبيعة الكوادر والتخصصات وضعف مستوى التأهيل بشكل عام وسوء اختيار القيادات وفساد بعضها.

زيادة أسعار كل مكونات مرفق السكك الحديدية بشكل كبير منذ منتصف السبعينيات بشكل لا يقابله أى زيادة في الإيرادات وتزامن ذلك مع زيادة المصروفات المرتبطة بالمرتبات وزيادة العاملين وأسعار الوقود أوجد خللاً رهيبًا في اقتصاديات هيئة السكك الحديدية ووصل العجز

المتراكم ممثلاً في ديونها لبنك الاستثمار القومى إلى ٣٩ مليار جنيه في عام ٢٠١٦.

خلال السنوات الأربعين من عام ١٩٨٠ وحتى الآن زادت أسعار القاطرات وأسعار العربات وأسعار إنشاء الخطوط أكثر من مائة ضعف والنتيجة أنه كان يتعذر تدبير أى تمويل ذاتى للتطوير في أى هذه العناصر وفي نفس الوقت كان هناك عجز في التمويل من الموازنة العامة للدولة من ناحية وفي إتاحة أى تمويل من بنك الاستثمار القومى حيث إن ذلك سيزيد العجز المتراكم من السنوات السابقة مع صعوبة إثبات إمكانية سداده مستقبلاً.

المدهش أن أى وزير النقل وفور أن يتولى منصبه يصبح في نظر المواطنين والحكومة على السواء هو المسئول عما آلت إليه أحوال السكك الحديدية من ناحية مستوى الخدمة من ناحية والعجز وحجم الديون المتراكمة عليها ويصبح مدانًا بالتقصير والعجز عن إيجاد الحلول لوضع هو لم يكن موجودًا في موقع المسئولية حين نشأ ثم تفاقم بعد ذلك على مر السنين التى سبقت توليه الوزارة.

أحد مظاهر الخلل أيضًا في إدارة منظومة السكك الحديدية هو ما يتعلق بدورها المتدهور في نقل البضائع حيث إن معظم هيئات السكك الحديدية في العالم تعتمد بشكل كبير في إيراداتها السنوية على نقل البضائع وغالبًا ما يكون نشاط نقل الركاب نشاطًا مكملاً لذلك وهو وضع معكوس تمامًا في مصر ولا تتعدى نسبة ما تنقله السكك الحديدية من البضائع عن ١٪ من الحجم الكلى أما باقى النسبة وهى ٩٩٪ فتنتقل بعربات نقل البضائع على الطرق وبحمولات زائدة لعدم كفاية الأسطول وهو الوضع الذى يؤدى إلى تدمير الطرق وانهيارها في وقت قصير مضيفًا أعباء مالية أخرى على الموازنة العامة للدولة علاوة على أنه لا يتيح

الاستفادة من خطوط السكك الحديدية وأسطول عربات نقل البضائع العاملة عليها ويهدر أموالا طائلة أنفقت عليها.

الخلاصة أن هناك خللاً جوهريًا في منظومة السكك الحديدية ولا يجب أن يلقى بعبء مسئوليتها على وزير النقل وحده وإنما يجب أن تكون مسئولية الدولة ككل ولا يترك لوزير النقل وحده تدبير الاعتمادات المطلوبة من هنا وهناك وفي نفس الوقت هو ليس مطلق العنان في إقرار أى زيادات في مقابل الخدمات التى تقدمها السكك الحديدية وإنما عليه التعامل مع جهات عديدة يهمها في النهاية عدم إثارة القلائل أو إغضاب المواطنين بحيث إن يصبح إبقاء الوضع على ما هو عليه أفضل الحلول.

في المرة الأولى التى توليت فيها وزارة النقل عام ٢٠١١، لم يكن المجال متاحًا لإدخال أى إصلاحات جوهرية في هيكل السكك الحديدية وإصلاح أوضاعها المالية ولكنى أمكن تدبير التمويل اللازم لتصنيع ٢١٢ عربة مكيفة لنقل الركاب فيما أطلق عليه فيما بعد قطارات VIP وهى تمثل الآن عصب توفير خدمة نقل الركاب على خطي الإسكندرية والصعيد وتكلفت وقتها ١,٧ مليار جنيه بمتوسط ٨,٥ مليون جنيه للعربة الواحدة وقد وصل سعرها حاليًا إلى أكثر من ٢٥ مليون جنيه. كما أمكن أيضًا في هذا الوقت تدبير التمويل اللازم لإصلاح نظام الإشارات على خط القاهرة - الإسكندرية (النيل الدولى) وخط بنى سويف - أسيوط (النيل الدولى) بالإضافة إلى خط بنها - المنصورة - دمياط (الصندوق الكويتى) وهى مشروعات تصل تكلفتها إلى أكثر من عشرة مليار جنيه وتستغرق وقتًا طويلاً في تنفيذها كونها تستخدم تكنولوجيات متقدمة وتتم في ظل استمرار حركة القطارات على هذه الخطوط وهى جميعًا على وشك الانتهاء حاليًا.

عند رجوعى إلى وزارة النقل في عام ٢٠١٦ كانت الظروف مهيأة أكثر للتدخل الفعال لإنقاذ السكك الحديدية؛ من ناحية كان يجرى تنفيذ المشروع القومى للطرق مما يعكس اهتمام الدولة بقطاع النقل بشكل عام ومن ناحية أخرى أصبح الوضع في مرفق السكك الحديدية لا يمكن إطلاقًا إهماله أكثر من ذلك.

عدة مشروعات كانت قيد التنفيذ وتحتاج متابعة يومية لدفع معدلات الإنجاز ومنها مشروعات تطوير المزلقانات ومشروعات تطوير معهد وردان ومدرسة السكك الحديدية ومعهد تكنولوجيا النقل لتخريج كوادر متخصصة في إدارة السكك الحديدية وصيانة مكوناتها.

عدة مشروعات أخرى كانت قد توقفت قبل وصولى إلى الوزارة مباشرة وعلى رأسها مشروع خط السكك الحديدية الجديد من السلام إلى العاشر من رمضان والتى بدأت مفاوضاته مع شركات ومؤسسات حكومية صينية من قبل الوزير هانى ضاحى ووصلت إلى مراحل متقدمة جدًا وصولاً لاتفاق حول التنفيذ بقرض ميسر من الحكومة الصينية وتوقفت مفاوضاته فجأة وكادت تحدث أزمة بين الدولتين بسبب هذا التوقف وقد تمكنت مع وصولى الوزارة من إعادة إحياء المشروع والرجوع إلى المفاوضات بل وتخفيض الأسعار لتصل تكلفة المشروع إلى ١,٢ مليار دولار وبدأ العمل فعليًا في تنفيذ المشروع.

من المشروعات التى بدأت التخطيط لها ما يتعلق بإصلاح الهيكل المالى للسكك الحديدية واستغلال أصولها تجاريًا مثل الأراضى والمحطات وخطوط السكك الحديدية والتخلص من آلاف الأطنان من العربات والجرارات والقضبان القديمة وكانت للهيئة أساليب عقيمة عمرها أكثر من مائة عام في التعامل مع هذه الأصول غير المستغلة وكان التطرق إلى مداخل جديدة في التعامل مع هذه الأمور يواجه بمقاومة شرسة ممن

يمثلون الإدارة العميقة لمرفق السكك الحديدية. كل هذه الأمور وضعت لها برامج وآليات جدية وجداول زمنية للتنفيذ وللأسف لم يسعفنى الوقت للانتهاء منها وبعضها يجرى استكماله الآن وبعضها الآخرى جرى التغاضى عنه.

من القضايا المهمة التى تم التعاطى معها ما يخص ضرورة دعم أسطول جرارات السكك الحديدية، نصف الجرارات الحالية ستخرج من الخدمة خلال ثلاثة أعوام على الأكثر حيث يصل عمرها إلى أكثر من ٤٠ عامًا، فيما عدا ٨٠ جرارا من طراز GE جرى شراؤها في عام ٢٠٠٦ (بتمويل عربى) لم يتم شراء جرار واحد منذ عام ١٩٧٧، حتى الجرارات الجديدة ظهرت بها عيوب أوقفت أكثر من نصفها عن العمل بعد شرائها مباشرة. تقدمت بتقرير مفصل حول هذا الموضوع إلى القيادة السياسية ورئيس مجلس الوزراء وتم الدخول بناءً على ذلك في مفاوضات طويلة مع شركات عالمية أمريكية وأوروبية للحصول على ٣٠٠ جرار جديد تتكلف حوالى ٩٠٠ مليون دولار (١٥ مليار جنيه)، ولم يسعفنى الوقت لإتمام الاتفاقات الخاصة بها بشكل نهائى وهى نفسها التى جرى استكمالها فيما بعد.

ومثلما حدث مع قضية أسطول الجرارات، كانت هناك أيضًا مفاوضات لتصنيع ١٣٠٠ عربية ركاب جديدة لخطوط الدرجة الثانية وكانت هذه المفاوضات تجرى مع شركات مجرية وروسية ووصلت إلى مراحلها النهائية من التفاوض للحصول على أفضل العروض من الطرفين إلا أنهما اتفقا سويًا بعد ذلك تحت ضغط ومظلة الشركة الروسية بعرض مشترك تكلفته حوالى ١٤٠٠ مليون يورو (حوالى ٣٨ مليار جنيه مصرى) وهو العرض الجارى تنفيذه الآن وبقرض من مؤسسات مالية مجرية.

من المشروعات التى جرى دراستها أيضًا بالتعاون مع وزارة الإسكان ما يتعلق بخطوط المونوريل التى تربط السادس من أكتوبر بجامعة القاهرة

والتى تربط القاهرة بالعاصمة الإدارية الجديدة وهى في رأيى مشروعات في منتهى الأهمية حيث لا توجد وسيلة نقل عام ذات سعة عالية لخدمة السادس من اكتوبر، كما أن تسارع العمل في العاصمة الإدارية الجديدة كان لا بد أن يواكبه أيضًا توفير وسيلة نقل عام على هذا المستوى. كان هذان المشروعان دائمًا على قائمة العرض على رئيس مجلس الوزراء شريف إسماعيل كما تم عرضهما على القيادة السياسية في اجتماع حضرته والدكتور مصطفى مدبولى رئيس مجلس الوزراء وكان وقتها يشغل منصب وزير الإسكان ونظرًا لوجود عروض عديدة من شركات كندية وماليزية وصينية لتنفيذ هذين المشروعين مع اختلافات في التكنولوجيا المستخدمة وطرق التمويل فقد استقر الأمر على طرحهما على أسس ثابتة ومتفق عليها على أن تقدم هذه الشركات العروض الخاصة بها ويجرى تقييمها فنيًا وماليًا واختيار الأفضل وهو الأمر الذى جرى العمل به أنتهى إلى اختيار قائمة تضم الحلفاء الأقدر على تنفيذ المشروع والمخطط له أن يستغرق ٤ سنوات على أن ينفذ على مراحل بحيث تكتمل منه أجزاء يمكن الاستفادة منها خلال سنتين فقط من بدء التنفيذ.

فيما يخص مشروع مترو الأنفاق في القاهرة فقد جرى العمل على قدم وساق في تنفيذ الخط الثالث ومحطاته في المرحلة الرابعة من هارون الرشيد إلى نادى الشمس شاملة حفر النفق بطول ٧ كم وعلى عمق حوالى ٤٠ مترا تحت الأرض وأعمال الإنشاءات في محطات هارون الرشيد وميدان هيليوبولس وألف مسكن ونادى الشمس ونظرًا لأن الشركة المنفذة للمشروع هى شركة فرنسية فقد تم خلال زيارة الرئيس الفرنسى فرانسو هولاند إلى مصر تفقد موقع العمل في محطة هارون الرشيد، حيث رافقت الرئيس الفرنسى في هذه الزيارة صباح يوم ١٨ أبريل ٢٠١٦.

كما تم أيضًا في هذه الفترة اتخاذ كل الخطوات المطلوبة لبدء العمل في المرحلة التالية (٤ ب) وهى التى تبدأ من محطة نادى الشمس إلى

محطة المستشار عدلى منصور والواقعة في منطقة السلام قرب تقاطع الطريق الدائرى مع طريق القاهرة الإسماعيلية الصحراوى شاملة المحطة النهائية وورش الصيانة الضخمة المرتبطة بها، وقد كانت الأعمال المرتبطة بهذه المرحلة والممولة من الحكومة المصرية وتكلفتها حوالى ٨ مليار جنيه قد تم إسنادها إلى تحالف من شركات مصرية وفرنسية قد تأخر العمل بها لأسباب متعددة تم تذليلها جميعًا بما فيها مساعدة الشركات المصرية في تدبير خطابات الضمان المطلوبة وهى بمئات الملايين لإدخال المشروع حيز التنفيذ. وهذا المشروع الآن يجرى العمل به على قدم وساق وبه أول جزء من مترو الأنفاق يتم على مسار علوى بالكامل.

واتصالاً بمشروعات مترو الأنفاق أيضًا، ولاستكمال الخط الثالث في جزئه الغربى (المرحلة الثالثة) الذى يصل ميدان العتبة إلى الزمالك والكيت كات وإمبابة وجامعة الدول العربية وشارع السودان وجامعة القاهرة، فقد تم استكمال التفاوض مع الشركات الفرنسية المنفذة وتدبير التمويل وحل كل العقبات المرتبطة بمرور الخط تحت منطقة الزمالك والمرور تحت نهر النيل مرتين، الأولى عند بولاق أبو العلا والثانية من الزمالك إلى ميدان الكيت كات. وبدأ العمل فعليًا في المشروع في يوم ٢٣ مايو ٢٠١٨ وقد تمت دعوتى لمراسم بداية الأعمال والتى حضرها المهندس شريف إسماعيل رئيس مجلس الوزراء وقتها في تقدير للدور المتواضع الذى قمت به ليبدأ تنفيذ المشروع فعليًا رغم ما واجهه من صعوبات.

وكان آخر ما قمت به اتصالاً بمشروعات مترو الأنفاق بما يتعلق بالمفاوضات المضنية التى تمت مع شركتين كورية وفرنسية مدعومة بحكومتيهما لتوريد ٦٤ قطارا للخط الثالث للمترو بتكلفة تصل إلى حوالى ٧٥٠ مليون دولار وقد نجحنا في استغلال حالة التنافس الشديدة بين الشركتين في الوصول إلى أسعار غير مسبوقة كما نجحنا في أن يكون

التمويل مدعومًا من حكومات هذه الشركات وبنسبة فائدة لا تتعدى النصف في المائة وبفترة سماح قبل بدء السداد غير مسبوقة أيضًا وتصل إلى ٤٠ عاما. والسداد بعد ذلك على ثلاثين عاما أخرى وقد تم في النهاية التوصل إلى تكليف الشركتين الكورية والفرنسية بالتوريد مناصفة بعدما أنهكنا الشركتين في مفاوضات هى أفضل ما تم في هذا المجال.

مجهودات مماثلة جرت في قطاع النقل البحرى وخاصة فيما يتعلق بإنشاء محطتين لتداول البضائع في ميناء الإسكندرية (رصيف ٥٥) وميناء دمياط حيث وصلت الترتيبات إلى مراحلها النهائية في كل منهما حيث كان الحديث عند استثمارات أجنبية مباشرة قيمتها ٨٠٠ مليون دولار في كل مشروع وإنشاء شركات مشتركة يدخل فيها كل ميناء طرفًا في شركة إدارة مع المستثمر وتم التأكد من أن العوائد المتوقعة بالعملات الأجنبية كافية لسداد مستحقات الطرف الممول للمشروع في فترة من ٦-٨ سنوات فقط من عمر المشروع.

ومن المشروعات المهمة التى تمت جرى أيضًا الانتهاء من إنشاء وصلات من الطرق الحرة الشريعة لربط مينائي الإسكندرية والدخيلة بطريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوى بتكلفة حوالى ١/٢ مليار جنيه لتفادى مرور شاحنات البضائع داخل الكتل السكنية وتم افتتاح المشروعات رئاسيًا فيما بعد وفي مجال تطوير الموانى المصرية كان الانتهاء من مشروع إعادة تطوير وبناء ميناء سفاجا وإنشاء أكبر محطة ركاب بحرية على البحر الاحمر وتطوير محطة الشاحنات وصوامع الغلال وهو مشروع بدأ من قبل دخولى وزارة النقل في المرة الأولى وتعثر تنفيذه بعدها وعاد العمل به بشكل مكثف إلى أن انتهى بتكلفة قدرها ٥٠٠ مليون جنيه وتم افتتاحه رئاسيًا وزاره السيد الرئيس في يناير ٢٠١٧.

كانت تجربة العودة لتولى وزارة النقل مرة أخرى تجربة ثرية جداً، لقد كانت في أعقاب إنجاز حقيقى أثناء شغلى موقع محافظ القاهرة وكان انتقالى للوزارة بمناسبة تتويج لمجهوداتى السابقة في هذا الموقع، وقد بذلت في موقعى الجديد مجهوداً خارقًا لتكون لى فيه بصمات مثلما كان الأمر في وظيفتى السابقة محافظًا للقاهرة.

لا أتذكر أننى ابتعدت عن العمل في أية إجازة من أى نوع بل إننى عملت جميع أيام الجمع والأعياد والإجازات الرسمية دون توقف، كثيرًا ما عدت إلى منزلى مرهقًا للدرجة التى تدعونى أن ألقى بنفسى إلى أقرب مكان يقابلنى في المنزل للنوم حتى الصباح مرتديًا نفس ملابس الخروج التى رجعت بها في الليلة الماضية.

فترة تولى الوزارة استمرت حوالى عام، ورغم ما تم من مجهودات كبيرة إلا أنها لم تكن كافية لاستكمال أعمال ومشروعات متعددة كان يجرى تنفيذها في ملحمة عظيمة مع كتيبة العمل من العاملين في الوزارة وهيئاتها وشركاتها والشركات التى تعاقدنا معها لتنفيذ مشروعاتنا، إلا أن ذلك لا ينفي أن مشروعات كبيرة قد أنجزت بالفعل ومشروعات أخرى كبيرة أيضًا جرى استكمالها فيما بعد وخرجت إلى النور شاهدة على ما تم من تفانٍ في العمل لا استكثره على الوطن.

أداء اليمين الدستورية أمام الرئيس عبدالفتاح السيسى وزيراً للنقل فبراير ٢٠١٦

صور تذكارية مع الرئيس عبدالفتاح السيسي ورئيس الوزراء شريف إسماعيل والوزراء الجدد فبراير ٢٠١٦

افتتاح الرئيس عبدالفتاح السيسى أعمال تطوير ميناء سفاجا ٢٠١٦

مع الدكتور على عبدالعال رئيس مجلس النواب ٢٠١٦

مع المهندس شريف إسماعيل رئيس مجلس الوزراء ٢٠١٦

فى افتتاح ميناء أرقين على الحدود المصرية ـ السودانية ٢٠١٦

مع الرئيس الفرنسى فرانسوا هولاند فى زيارة أحد محطات الخط الثالث للمترو ٢٠١٦

الفصل السادس عشر

إبراهيم محلب

إبراهيم محلب

عرفت المهندس/ إبراهيم محلب منذ تخرجى من هندسة القاهرة عام ١٩٧١ حيث كنت أسبقه بعام دراسى وتخرج هو عام ١٩٧٢، وكان ضمن أول دفعة تعاملت معها معيدًا في تخصص هندسة الطرق والمطارات وهو من التخصصات التى تدرس لطلاب السنة النهائية في قسم الهندسة المدنية.

عمل المهندس إبراهيم محلب فور تخرجه عام ١٩٧٢ في شركة المقاولون العرب وكان ضمن طاقم العمل في المرحلة الأولى من كوبرى رمسيس (كوبرى ٦ أكتوبر فيما بعد) وكانت هذه المرحلة تبدأ من وزارة الزراعة وتضم الكوبرى القائم حاليًا على فرع النيل الصغير ما بين العجوزة والزمالك ثم المسار أعلى الجزيرة ثم الكوبرى القائم حاليًا أعلى النيل الكبير حتى ميدان عبد المنعم رياض، وكان موقع مكاتب مهندسى شركة المقاولون العرب عند مدرسة الأورمان الإعدادية على مسار طريقى اليومى من الكلية في الجيزة وحتى منزلى في العجوزة مما أتاح لى اللقاء به بشكل متقطع خلال الفترة من ١٩٧٢ حتى ١٩٧٤ وبعدها سافرت للدراسة ولم ألتقِ به بعد ذلك إلا في منتصف التسعينيات حيث كان وقتها الرجل الثانى في المقاولون العرب والمسئول عن قطاع الكبارى وتولى عام ٢٠٠١ رئاسة مجلس إدراة الشركة.

وبصفته رئيسًا لمجلس إدارة المقاولون العرب وقت أن شغلت أنا منصبى نائب رئيس جامعة القاهرة ثم رئيس جامعة الفيوم ما بين ٢٠٠٣-٢٠٠٨ تعددت لقاءاتنا وخاصة فيما يتعلق بمساهمات الشركة في الأعمال الإنشائية لجامعتي القاهرة والفيوم ثم مشروعات محافظة الفيوم حينما تولت أمورها بعد ذلك وكان من أهم هذه المشروعات ما أطلق عليه مشروع المصرف القاطع الذى ينقل ١٠٠ مليون متر مكعب من مياه الصرف الزراعى والصالحة للزراعة كان سيتم صرفها في بحيرة قارون إلى مسار آخر للتوسع الزراعى وتحسين الري لحوالى ٥٠٠ فدان غرب الفيوم وكان الأمر يتطلب إنشاء محطة رفع عملاقة نفذتها الشركة بكفاءة مذهلة وتم افتتاح المشروع في ٣ مارس ٢٠١٣ بعد تركى منصب محافظ الفيوم.

أحد المشروعات الأخرى المهمة التى نفذتها المقاولون العرب برئاسة المهندس إبراهيم محلب في الفيوم هو مشروع محطة مياه طامية (شرق الفيوم) بطاقة ١٧٠ الف م٣/يوم وهى المحطة التى يبعد مصدر المياه عنها حوالى ٥٠ كيلومترا حيث كان يقع على النيل في منطقة جرزا في محافظة الجيزة وتم إنشاء خط مواسير ضخم بهذا الطول وصولاً إلى محطة التنقية في طامية وبالإضافة إلى إنشاءات المحطة الضخمة وخزانات المياه المتعددة فقد تم إنشاء شبكة أخرى من مواسير المياه النقية إلى مئات الآلاف من السكان الذين كانوا يعانون من ندرة أو قلة مياه الشرب.

كان الانتهاء من محطة مياه طامية يمثل تحديًا كبيرًا حيث كان المشروع متوقفًا لنفاد التمويل وقت أن توليت منصبى ومع إتاحة التمويل مرة أخرى بدعم من الدكتور أحمد نظيف والمهندس أحمد المغربى (وزير الإسكان وقتها) والدكتور يوسف بطرس غالى (وزير المالية) وتم استئناف العمل في منتصف عام ٢٠٠٨ وتم افتتاح المحطة في احتفال رئاسى حضره الرئيس حسنى مبارك في ٨ أكتوبر ٢٠٠٩، وقد شهد الشهر السابق للاحتفال

تحويل موقع العمل إلى معسكر عمل لآلاف العمال والمهندسين من رجال المقاولون العرب وعلى رأسهم المهندس إبراهيم محلب نفسه الذى اكتشفت في هذه الفترة كم هو جاد في عمله ومخلص فيه ومتقن له إلى أقصى درجة حيث قضى ليالي عديدة دون نوم إلا جالسًا في غفوات قصيرة ثم يعود ليستأنف العمل.

أثناء الأحداث التى تلت ثورة ٢٥ يناير كانت مواقع الإنتاج والمشروعات الإنشائية تتعرض لأعمال نهب وتخريب وفرض إتاوات ومنها مشروعات المقاولون العرب في الفيوم وكنت أثناء غمرة أحداث الثورة أتلقى اتصالات تليفونية من المهندس إبراهيم محلب يطلب أن أساعده في التواصل مع مديرية الأمن والقوات المسلحة لتأمين مواقع المشروعات في ظل الظروف الاستثنائية التى كانت سائدة في هذا الوقت.

وحينما تم ترشيحى لتولى وزارة النقل في حكومة الدكتور الجنزورى وعندما ذهبت للقاء الدكتور الجنزورى بشكل غير رسمى في مقر وزارة التخطيط في يوم الأحد ٤ ديسمبر ٢٠١١ كان المهندس إبراهيم محلب هو أول من أشاع الخبر حيث رآنى أحد مهندسى شركة المقاولون العرب والتى كانت تقوم بأعمال تطوير مبنى وزارة التخطيط في هذا الوقت.

وأثناء شغلى لمنصب وزير النقل في حكومة الدكتور الجنزورى وفي زيارة لى في منتصف يوليو ٢٠١٢ لموقع ميناء نويبع الذى كانت تنفذ المقاولون العرب وكان ذلك عقب انتهاء الانتخابات الرئاسية ونجاح محمد مرسى مع بقاء الحكومة بشكل مؤقت لاحظت تراخى في تنفيذ الأعمال لم أعهده من قبل وكان هذا الموقف تحديدًا مرتبطًا بسيطرة بعض البدو على المنطقة وطلبهم إتاوات لتأمين المواقع وضمان انتظام العمل بها وهى أوضاع كانت منتشرة فى سيناء فى هذا الوقت وقررت مساءلة جميع العاملين والفنيين والمهندسين فى الموقع وإغلاقه حتى أتشاور مع رئيس الشركة، وبعد انتهاء

زيارتى وأنا في السيارة من نويبع إلى مطار شرم الشيخ للحاق بالطائرة وكان بصحبتى اللواء خالد فودة محافظ جنوب سيناء اتصل بى المهندس إبراهيم محلب يسألنى عن موقعى حيث إنه غادر القاهرة منذ قليل متجهًا إلى نويبع وكان يبدو منزعجًا جدًا مما حدث وأخبرنى أنه مستمر في رحلته إلى نويبع وسوف يعود لمقابلتى في القاهرة في اليوم التالى بعدما يعيد ترتيب الأمور ويتخذ اللازم مع المقصرين في إدارة المشروع.

عاتبنى المهندس/ إبراهيم محلب بعدما تسربت أخبار ما حدث إلى المواقع الإخبارية وجاء ذكرها أيضًا في بعض الصحف في اليوم التالى وكان عتابه منصبًا أن التوقيت لم يكن مناسبًا حيث تزامن مع تولى رئيس جديد ونظام جديد لشئون البلاد.

مع بداية مشاورات تشكيل حكومة هشام قنديل في ٢٤ يوليو ٢٠١٢ كان المهندس إبراهيم محلب ممن تم تداول أسماؤهم لوزارة جرى استحداثها للمرافق إلا أنه جرى اختيار الدكتور عبد القوى خليفة محافظ القاهرة وقتها لهذا المنصب واستمر فيها حتى قيام ثورة ٣٠ يوليو ٢٠١٣ وتم بعد ذلك إلغاء الوزارة نفسها.

بعد تشكيل حكومة هشام قنديل في ٢ أغسطس ٢٠١٢ تم تعيين الدكتور أسامة الحسينى عبد السلام الأستاذ في جامعة الزقازيق رئيسًا للمقاولون العرب وغادر المهندس إبراهيم محلب البلاد بعدها مباشرة للعمل في المملكة العربية السعودية حيث داومت على الاتصال به ولم يعد إلا بعدما تم ترشيحه وزيرًا للإسكان في وزارة الدكتور الببلاوى في ١٦ يوليو ٢٠١٣ وبينما توليت أنا منصب محافظ القاهرة في ١٣ أغسطس من نفس العام ومنذ هذا التاريخ أعتقد أننى قد أعدت اكتشاف المهندس إبراهيم محلب من جديد.

بناءً على اتصال تليفونى بيننا صباح السبت ١٧ أغسطس اتفقنا أنا بصفتى محافظًا للقاهرة وهو بصفته وزير الإسكان وتتبعه شركة المقاولون العرب أن نلتقى أمام أحد مبانى المقاولون العرب أمام قسم الأزبكية والذى تم إضرام النيران فيه ضمن أحداث مسجد الفتح التى جرت يوم الجمعة ١٦ أغسطس واستمرت حتى اليوم التالى.

كان الإخوان قد دعوا بعد فض اعتصام رابعة إلى اعتصام آخر في مسجد الفتح في ميدان رمسيس في جمعة أطلقوا عليها "جمعة الغضب" وتخلل ذلك صعودهم فوق كوبرى رمسيس في نطاق الميدان وأعلى شارع الجلاء وفي منطقة قسم شرطة الأزبكية وإطلاقهم النار بشكل عشوائى وإضرام النيران في عدة مبانٍ ومنها مبنى المقاولون العرب.

تقابلنا في تقاطع شارع رمسيس مع شارع عماد الدين وتحركنا وصولاً إلى السبتية وسط تحذيرات من قوات الحراسة المرافقة له بقيادة أحد ضباط الحراسات الخاصة، بينما كنت أنا وبعد يومين فقط من بداية مسئولياتى كمحافظ للقاهرة، في حراسة اثنين من أمناء الشرطة من قوة شرطة مرافق القاهرة، واستمر تجولنا في المنطقة في وسط إطلاق الرصاص وتفقدنا المنطقة ثم صعدنا إلى الأدوار العليا في مبنى المقاولون العرب، ويبدو أن الحراسة الخاصة بالمهندس إبراهيم محلب قد استشعرت الخطر على حياته وأقنعوه بمغادرة المكان دون إخطارى وبقيت أنا أحاول تفادى الطلقات الطائشة وسط حراستى المتواضعة إلى أن غادرت المكان بعد ذلك وعرفت فيما بعد أن ما قمنا به كان فيه خطورة حقيقية على حياة كل منا.

منذ منتصف أغسطس ٢٠١٣ وحتى الأول من مارس ٢٠١٤ ـ وهى الفترة التى قضاها المهندس إبراهيم محلب وزيرًا للإسكان ـ تعاونا بشكل رائع في قضايا تخص محافظ القاهرة وأخصها الانتهاء من أعمال

الإنشاءات في جراج التحرير والذى كانت زياراتنا له تتم بمعدل مرتين إلى ثلاث مرات أسبوعيًا إلى أن تم افتتاحه رسميًا في فبراير ٢٠١٥ وحضر الاحتفال الذى تم بهذه المناسبة بصفته رئيسًا للوزراء.

وأثناء شغل المهندس إبراهيم محلب منصب وزير الإسكان تم أيضًا البدء في ثلاثة مشروعات مهمة في القاهرة انتهت جميعها وافتتحها أيضًا ومنها مشروع تطوير شارع مصطفى النحاس وإنشاء أول مسار معزول للأوتوبيس (BRT) بطول ١٢ كيلومترا في هذا المحور المهم ثم في شارع محمد متولى الشعراوى المتعامد عليه بطول ٣كم. وكان تمويل المشروع بالكامل من وزارة الإسكان وتم الطرح واختيار الشركة المنفذة بمعرفتها.

ومن هذه المشروعات أيضًا مشروع امتدادات كوبرى الفنجرى إلى مدينة نصر وتقاطعاته مع شارع النصر وهو المشروع الذى بدأ التخطيط له عام ٢٠١٤ وأشرف على تنفيذه جهاز تعمير القاهرة الكبرى التابع لوزارة الإسكان وتم الانتهاء منه في ٢٠١٨.

وثالث هذه المشروعات هو إنقاذ وإعادة تأهيل وبناء محور عين الحياة المجاور لبحيرة عين الصيرة والذى يصل طريق صلاح سالم بكورنيش المعادى مرورًا بمنطقة البساتين وعين الصيرة والفسطاط وقد تم تمويل هذا المشروع بالكامل والإشراف عليه وفق دراسات هندسية متعمقة لحركة ارتفاع وانخفاض المياه في البحيرة بالمقارنة بمستوى منطقة المقابر التى كانت تغمرها المياه مع كل ارتفاع لمستوى المياه وتم افتتاحه بعد تولى المهندس إبراهيم محلب رئاسة مجلس الوزراء إلا أنه كان حريصًا على حضور حفل الافتتاح في ٣٠ سبتمبر عام ٢٠١٤.

كان المهندس إبراهيم محلب في مكتبى في محافظة القاهرة صباح يوم ٢٤ فبراير ٢٠١٤ حينما تلقى اتصالاً تليفونيًا يفيد تكليفه بتشكيل الحكومة خلفًا للدكتور حازم الببلاوى وخرج من مكتبى متوجهًا إلى مكتب وزير

الداخلية اللواء محمد إبراهيم ثم توجه إلى مسجد السيدة نفيسة وبدأ مشاوراته لتشكيل الحكومة بعد ذلك. وأتذكر أن اللواء خالد فودة محافظ جنوب سيناء بعد تأكيد خبر تكليف محلب برئاسة الحكومة هاتفنى ضاحكًا وأعاد تذكيرى بواقعة زيارتى موقع ميناء نويبع وما حدث منى بشأن العاملين من المقاولين العرب من وقت أن كان المهندس محلب رئيسًا لها.

كان المهندس محلب داعمًا بقوة لمشروعات وقضايا محافظة القاهرة وكان يتبنى مشروعات المحافظة ويتابعها بشكل دائم ومستمر وكان ذلك سببًا لإنهاء مشروعات تطوير منطقة القاهرة الخديوية وكان يحرص على افتتاح كل مرحلة من هذه المشروعات مثلما حضر الانتهاء من تطوير شارع الألفي وميدان عرابى وأعمال تطوير ميدان التحرير والانتهاء من الجراج ذى الأدوار الأربعة تحت كامل مساحة الميدان بسعة إجمالى ٢٣٠٠ سيارة وإخلاء وسط القاهرة من الباعة الجائلين بعد محاولات مضنية وترتيبات لوجيستيه وأمنية طويلة ومضنية والانتهاء من مشروعات التحكم الإلكترونى في تقاطعات شبكة طرق وسط المدينة ومصر الجديدة والمعادى وافتتاح غرفة التحكم المركزية الخاصة بذلك في محافظة القاهرة في سابقة هى الأولى في مصر.

ومن أهم المشروعات التى لاقت اهتمام الرئيس السيسى والمهندس إبراهيم محلب هو مشروعات الأسمرات بمراحله الثلاثة والذى يحتوى على أكثر من ٢٠ ألف وحدة سكنية كاملة التشطيب والمرافق بالإضافة إلى كل الخدمات الأساسية للمنطقة ككل وأصبح هذا المشروع هو أيقونة مشروعات مكافحة العشوائيات في مصر وخاصة بعد الدعم المادى والمعنوى الذى وفره الرئيس السيسى ممثلاً في تمويل سخى يصل إلى مليار جنيه بالإضافة إلى إتاحة أراضى ملك القوات المسلحة للمرحلة الثالثة (الأسمرات ٣) لا تقل عن ٥٠ فدانا.

بذل المهندس إبراهيم محلب مجهودًا مضنيًا حال توليه رئاسة الوزراء في ظروف صعبة وذلك بعد ٧ شهور فقط من ثورة ٣٠ يونيو وما سبقها وتلاها من أعمال إرهابية متعددة، لم يكن يغادر مكتبه قبل منتصف الليل وإذا غادر قبل ذلك فلأنه يرغب في زيارة مواقع في أوقات متأخرة، وغالبًا ما كان يهاتفنى قبل منتصف الليل بقليل وأكون مازلت في مكتبى وننزل سويًا لتفقد وسط المدينة أو أحد المناطق التراثية مثل الدرب الأحمر أو أحياء تقليدية مثل المنيل أو منطقة الفسطاط وجامع عمرو بن العاص ومصر القديمة وكان له قبول جماهيرى كبير وعنده قدرة على الدوبان بين الناس دون أى حراسة أو ترتيبات أمنية معقدة.

مع منتصف ٢٠١٥ بدأت تظهر نغمة شبه موحدة في وسائل الإعلام مؤداها أن وجود رئيس الوزراء خارج مكتبه معظم الأوقات في جولات ميدانية يحرمه من فرصة التحضير والتخطيط للسياسات والمشروعات، وزادت هذه النغمة مع الوقت إلى أن كانت واقعة استقالة وزير الزراعة صلاح هلال يوم ٧ سبتمبر ٢٠١٥ لتورطه في أحد قضايا الفساد ثم القبض عليه في ميدان التحرير فور انتهاء مقابلته مع المهندس إبراهيم محلب، حيث كثر الكلام وقتها أن أحد المتورطين في قضية وزير الزراعة له علاقة مع العديد من أعضاء الحكومة، وهو الأمر الذى أثار حفيظة بعض الوزراء وطلبوا ما يشبه تجديد الثقة بهم من قبل القيادة السياسية واضعين استقالة الحكومة تحت تصرف الرئيس والذى قبلها يوم السبت ١٢ سبتمبر ٢٠١٥ وتم تكليف المهندس/ شريف إسماعيل بتشكيل الحكومة الجديدة التى أدت اليمين الدستورية يوم ١٩ سبتمبر ٢٠١٥ وتقديرًا من الرئيس للمهندس إبراهيم محلب اختاره لموقع جديد هو مساعد رئيس الجمهورية للمشروعات القومية.

استمرت علاقتى بالمهندس إبراهيم محلب وهو يشغل موقعه الجديد في رئاسة الجمهورية وكثيرًا ما حضرت معه اجتماعات في مكتبه في

قصر الاتحادية وبخاصة في متابعة لمشروعات تطوير العشوائيات في محافظة القاهرة أو مشروعات الطرق الكبرى عندما انتقلت أنا لشغل منصب وزير النقل في مارس ٢٠١٦، وقام بزيارات ميدانية لهذه المشاريع وكتب في ذلك تقارير رفعها إلى الرئيس السيسى بناءً على طلب سيادته إلى أن انتهى شغله لهذا المنصب في منتصف ٢٠١٨.

ومؤخرا كان المهندس محلب والدكتور الجنزورى هما الشهود على عقد قران أصغر بناتى وجلسا متجاورين وأنا معهم في صحبة الدكتور على جمعة الذى عقد القران في صحن جامع محمد على الشهير بالقلعة بعد عصر يوم الجمعة ١٧ مارس ٢٠١٧.

علاقتى بالمهندس إبراهيم محلب قديمة، ولأنها غير مرتبطة بتولى أى منا مناصب محددة، فإنها مستمرة منذ ١٩٧١ حتى الآن، ولنا لقاءات دورية نتبادل فيها الأحاديث ونتذكر رحلة كفاح كل منا وما نحن فيه الآن من نعمة الرضا عما قدمناه وما نستشعره من مظاهر التقدير والاحترام من مئات المواطنين الذين نقابلهم في المناسبات المختلفة.

صور من اللقاءات والزيارات الميدانية مع المهندس إبراهيم محلب رئيس مجلس الوزراء
فى ٢٠١٤ و ٢٠١٥

صور من اللقاءات والزيارات الميدانية مع المهندس إبراهيم محلب رئيس مجلس الوزراء
فى ٢٠١٤ و ٢٠١٥

الفصل السابع عشر

أنا ونجوى والأولاد

أنا ونجوى والأولاد

إذا كان هناك ثمة نجاح خلال مسيرتى العلمية والمهنية وفي العمل العام، فإن لزوجتى نجوى فضلا كبيرا بعد الله في ذلك، عرفتها أوائل ١٩٧٤ حيث كانت إحدى طالباتى في السنة النهائية في كلية الهندسة جامعة القاهرة خلال فترة عملى معيدا في الكلية، وتعارفنا سريعًا وساعدنى في ذلك أنها كانت زميلة لشقيقتى فاطمة في نفس السنة الدراسية، ولأننى كنت معروف بالجدية الشديدة فقد سارعت بالتقدم إلى أسرتها حتى لا يكون هناك أى مجال لشائعة هنا أو هناك مما تنتشر في العادة في أوساط الطلاب ورحبت بى الأسرة وقتها ومضت كل الأمور في سلاسة شديدة حيث لم يكن للأسرة أى مطالب إلا الحفاظ على مستقبل ابنتهم وتوفير مستوى المعيشة المناسب لها، وتم عقد القران في ٩ أغسطس ١٩٧٤ في مقر نادى أعضاء هيئة التدريس الخاص بجامعة القاهرة في شارع هارون في ميدان المساحة بالجيزة وكان صديقى خالد عبد الناصر هو الشاهد على عقد القران.

والد زوجتى هو الأستاذ حسين العربى ـ رحمه الله ـ وكان المسئول عن معامل التحاليل الطبية فى مستشفيات حكومية وخاصة عديدة وآخرها كانت مستشفى الأنجلو أميركان فى جاردن سيتى، وكان شخصًا رائعًا وأبًا حنونًا، وكان والده هو الدكتور عبد الله العربى من علماء اللغة وعلى اسمه

سمى شارع عبد الله العربى فى مدينة نصر، ولأنه كان الأصغر بين أخوته فقد رحل أخوته جميعًا قبل أن ألتقى به ولكنى عرفت بعضا من أبناء أشقائه وشقيقاته وأزواجهم مثل الدكتور نبيل العربى وزير الخارجية والأمين العام لجامعة الدول العربية والمرحوم السفير محمود عبد الجواد سفيرنا السابق فى البحرين ومستشار شيخ الأزهر فيما بعد والمرحوم الدكتور أحمد النجار الاقتصادى المعروف والذى ارتبط اسمه بفكرة البنوك الإسلامية فى الثمانينيات والتسعينيات بالإضافة إلى اللواء مهندس الحسينى عبد السلام الذى كان من أبطال حرب أكتوبر ثم أصبح رئيسًا لسلاح المهندسين فى القوات المسلحة وتم تكليفه فيما بعد ليكون أول رئيس لهيئة مترو الأنفاق.

أما والدة زوجتى، مدام سميحة راشد - رحمها الله - فكانت شخصية رائعة أيضًا وتنحدر من أصول تركية وكانت غاية فى الجمال والرقى والتحضر والهدوء وهى صفات انتقلت منها إلى زوجتى، وأتذكر أنه حينما ذهبت أنا ضمن جهاز الإشراف من الأساتذة والمعيدين على رحلة الأقصر وأسوان لطلاب السنة النهائية بكلية الهندسة فى أوائل ١٩٧٤ وكانت بينهم نجوى وكانت تصطحب معها والدتها مدام سميحة، فكانت ملفتة لنظر جميع المشرفين والطلاب بوقارها وهدوئها وتقديرها للجميع وأنا منهم.

سافرت إلى كندا في ٢٨ أغسطس ١٩٧٤ بمفردى أولاً ثم لحقت بى نجوى بعد ذلك في ١٩ أكتوبر من نفس العام وبدأنا من يومها رحلة طويلة من الكفاح سويًا وأصبحت لنا أسرة من خمسة عشر فردًا من الأبناء وأزواجهم ومن الأحفاد، نستقبلهم أنا ونجوى بانتظام أسبوعيًا، ونتذكر قصة كفاحنا الطويلة التى نجنى ثمارها الآن.

في سنوات زواجنا الأولى عملت نجوى مهندسة في أحد المكاتب الاستشارية في مدينة هاملتون في كندا حيث تقع جامعة ماك ماستر التى

كنت أدرس بها للحصول على درجة الماجستير، ثم عملت مساعدة باحث في جامعة ووترلو التى انتقلت إليها للحصول على الدكتوراه، ثم عملت مهندسة في وزارة الأشغال العامة عندما انتقلنا إلى الكويت.

حرصنا على ألا ترتبط نجوى بوظائف من العيار الثقيل التى تأخذ كل وقتها وذلك لرغبتنا في تكوين عائلة ومعرفتنا أن ذلك سيتطلب بعض التفرغ من جانبها، وهو ما حدث بشكل كامل بعد عودتنا إلى مصر عام ١٩٩٠.

ولدت ابنتى الأولى الدكتوره داليا في ووترلو في كندا في ١٢ نوفمبرعام ١٩٧٦ وقضت هناك أربع سنوات قبل أن نغادر كندا إلى الكويت عام ١٩٨٠، وقد كان لهذه الفترة أثر كبير في إتقانها اللغة الإنجليزية تمامًا كما يتقنها الكنديون وساعدها ذلك على الالتحاق بالمدرسة الأمريكية في الكويت والتى استمرت فيها عشر سنوات حتى رجوعنا إلى القاهرة في عام ١٩٩٠، وهى متفوقة بطبيعتها وحصلت على الثانوية العامة عام ١٩٩٤ مجموع عال جدًا التحقت بموجبه بكلية الهندسة جامعة القاهرة حيث تخرجت بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى وتم تعيينها معيدة في الكلية إلى أن سافرت مرة أخرى برفقة زوجها إلى كندا للحصول على الدكتوراه في الهندسة المدنية من جامعة كارلتون بمدينة أوتاوا عاصمة كندا، وهى الآن أستاذة مساعدة في تخصص تخطيط وهندسة الطرق وزوجها الدكتور مصطفى أستاذ مساعد أيضًا في تخصص الهندسة البيئية ولى منهما ثلاثة أحفاد محمد وفريدة وياسين.

ابنى الثانى الرائد ضياء الدين، ضابط شرطة وُلد في الكويت عام ١٩٨٠، وتلقى جزءا من تعليمه في المدرسة الأمريكية في الكويت قبل أن ننتقل للقاهرة بعد الغزو العراقى للكويت حيث استكمل دراسته والتحق بكلية الشرطة التى كان يعشقها وما زال حتى الآن وزوجته هى المهندسة

مروة هى ابنة زميل الدراسة في مصر وكندا الدكتور محمد حلمى الحداد عليه ـ رحمة الله ـ ولى منه صغيران، عمر وياسمين.

ابنى الثالث المهندس مصطفى ـ وسمى كذلك على اسم والدى (عليه رحمة الله) ـ وهو مهندس مدنى، مولود في مصر عام ١٩٨٦ وحاصل على بكالوريوس وماجستير الهندسة من جامعة كارلتون في كندا ويعمل مهندسًا استشاريًا في المقر المصرى لواحد من أكبر المكاتب الهندسية، ولى منه صغيرة واحدة اسمها كريمة.

أما ابنتى الرابعة المهندسة سحر فقد ولدت في مصر في ١٤ أكتوبر ١٩٩٠ مهندسة معمارية وتعمل أيضًا في مكتب هندسى لشركة متعددة الجنسيات، ولى منها صغير واحد اسمه يحيى.

لم أتوسط في يوم من الأيام لأى من أولادى في أى من الوظائف التى يشغلونها الآن، كما لم أسمح لأى منهم أن يقترب أو يكون له مصالح ولو من بعيد مع أى موقع كنت مسئولاً عنه في أى يوم من الأيام، الحمد لله هم ناجحون في أعمالهم وحياتهم الأسرية ويعتمدون على أنفسهم وهم وأولادهم مصدر السعادة لنجوى ولى شخصيًا.

حالت مسئولياتى في مصر ابتداء من عام ١٩٩٢ وحتى ٢٠١٧ من معايشتى لأولادى بالشكل المعتاد، وكان العبء الأكبر في متابعتهم في كل أمورهم يقع على عاتق زوجتى، التى قامت بهذا الدور بكل اقتدار، طوال فترة عملى ـ وهي ١٦ عامًا ـ في جامعتى القاهرة والفيوم أستاذًا وعميدًا ونائبًا لرئيس الجامعة ثم رئيسًا للجامعة كنت أراهم فقط في الإجازات أو مساءً في بعض الأيام. كنت أغادر منزلى مع أول ضوء في الصباح الباكر وأعود مساءً في روتين يومى، وعندما عملت محافظًا للفيوم نقلت مقر إقامتى إلى هناك وأصبحت لا أراهم سوى مرة واحدة كل أسبوع أو أسبوعين، وخلال الشهور التى تلت أحداث يناير٢٠١١ لم أرهم لمدة

ثلاثة شهور كاملة إلا في زيارات متقطعة قاموا هم بها لزيارتى في الفيوم التى لم أغادرها على الإطلاق منذ أول ينايـر٢٠١١ حتى منتصف أبريل ٢٠١١ حيث تركت منصبى بعد شغلى له لمدة ثلاث سنوات كاملة.

عندما أعود بالذاكرة الآن لسنوات مضت أجدنى لا أتذكر متابعتى لأولادى وهم يكبرون وأحيانًا وعند وجودى في البيت وحال مرور أحدهم أمامى شابًا يافعًا أو فتاة في مقتبل العمر أتعجب كيف مرت بى الأيام بحيث لم أر هؤلاء وهم أطفال صغار ثم وهم في المراحل العمرية الأخرى إلى أن وصلوا إلى أعمارهم التى أراهم عليها الآن.

شعرت بهذا الشعور أكثر عندما أنهيت عملى كوزير النقل في أوائل عام ٢٠١٧ وكان زفاف ابنتى الصغرى سحر بعدها بعدة أسابيع، ولأنى تفرغت بعض الشيء فقد فوجئت بابنتى والتى كنت مازلت أعتبرها مجرد طفلة وقد أصبحت شابة يافعة تمر من أمامى وهى تجهز لحفل زفافها وأتعجب أننى لم أرها كبيرة قبل اليوم.

أثناء أحداث يناير كان ابنى ضياء (ضابط الشرطة) يعمل في الصعيد ونصحنى الكثيرون أن أتوسط لأنقله إلى القاهرة حيث إن الأمور كانت منفلتة في جميع أنحاء مصر في هذه الأوقات ووجود ابن مسئول مثلى في الصعيد يجعله هدفًا لأى عمل عدوانى ورفضت تمامًا أن أفعل ذلك واستمر في الصعيد إلى أن أنهى فترته الطبيعية هناك.

بعد ٣٠ يونيو وبعد فض اعتصام رابعة الإخوانى وأثناء شغلى منصب محافظ القاهرة، زادت وتيرة العنف ضد ضباط الشرطة والجيش ومن صغار السن تحديداً وكان يجرى اصطيادهم فرادى أو مجتمعين في أماكن ارتكازهم وبحيث لم يكن يمر يوم دون استشهاد ضابط من الشرطة أو الجيش وأعمارهم هى مثل عمر ابنى ضياء، وحدثنى الكثيرون أيضًا حول

عمل أى شيء للحفاظ على حياة ابنى وإلحاقه بأى عمل إدارى لا يتواجد فيه كثيرًا في خدمات خارجية ورفضت كل هذه النصائح، وكان رأيى أن حياته ليست أغلى من حياة زملائه الضباط الذين يجرى اغتيالهم في عمليات إرهابية خسيسة.

كان ابنى .. ضياء في مرحلة ما بعد فض اعتصام رابعة يبيت لدينا وتبيت زوجته عند منزل أسرتها والذى يقع في نفس العمارة التى نقيم فيها، وكنت وقت مغادرته إلى عمله صباحًا وأكون أنا في نفس هذا الوقت مغادرًا إلى حيث عملى كمحافظ للقاهرة، ولأننى مُعين لى حراسة فقد كانت الحراسة المخصصة لى تتأكد أولاً من خلو الشارع من أى غرباء أو أشخاص مجهولين قبل الخروج من باب العمارة ثم يتحرك ابنى بسيارته ونتابعه نحن حتى نتأكد أنه أصبح في مأمن من أى أعمال قد تكون قد تم تدبيرها بالقرب من مقر السكن الذى نقيم فيه، ونظل أنا ووالدته في قلق حتى يعود آخر اليوم سالمًا من عمله.

وفي أحيان كثيرة كنت بحكم وظيفتى أشترك مع وزير الداخلية في تشييع جنازة شهداء الوطن من ضباط الشرطة بشكل يومى في هذه الفترة ممن هم في عمر ابنى ومن دفعته في التخرج، وكان قلبى يتمزق وأنا أرى آباء وأمهات الشهداء في الجنازات التى كانت تتكرر كل عدة أيام ولم يرد بذهنى مرة واحدة فكرة محاولة الحديث مع وزير الداخلية أو أى مسئول فيها لإعطاء أى ميزة لابنى دون زملائه الذين كانوا يتساقطون كل يوم بسبب الأعمال الإرهابية.

أحاول الآن وبعد أن كبر الأولاد أن أعوضهم عن الفترات التى شغلتنى عنهم المسئوليات التى كنت مكلفا بها، ولكنهم والحمد لله كل في طريقه، يديرون أمورهم بأقل تدخل أو دعم منى ولكننى بالطبع أعوض انصرافهم وانشغالهم بالاهتمام بأحفادي السبعة والحفاوة بهم.

ما زلت أنا وزوجتى نجوى نقيم في الشقة نفسها في العجوزة التى انتقلنا إليها في عام ١٩٩٥ وكنا قبلها نقيم في شقة أصغر في الهرم، وكانت عودتنا للعجوزة استمرارًا لإقامة سابقة في هذا الحي الجميل منذ أوائل الستينيات عندما أتيته مع والدى تلميذًا في المرحلة الإعدادية.

أتيحت لى فرص كثيرة للتحرك شرقًا إلى القاهرة الجديدة أو غربًا إلى أكتوبر والشيخ زايد والحصول على أراضٍ لى ولكل أولادى ممن كان في يدهم القرار في هذا الوقت - وقد عرفتهم جميعًا - ولكن لم أسع إلى ذلك بل إننى رفضت أيضًا عروضًا كانت كفيلة باقتنائى وأولادى فيلات أو قصورًا فخمة دون تكاليف تذكر بتخصيص قطع أراض مضاعفة يساعدنا التصرف في بعضها في تغطية تكاليف البناء.

صور من حفل زفافى وزوجتى نجوى عام ١٩٧٤

أنا ونجوى وأولادى ضياء وزوجته مروة ومصطفى وزوجته إيمان وبناتى داليا
وزوجها مصطفى وسحر وزوجها تامر

مع ابنى مصطفى وستة من أحفادى محمد وعمر وفريدة وياسين وياسمين وكريمة ٢٠١٧

الدكتور على جمعة وعقد قران أصغر بناتى المهندسة سحر والشهود الدكتور كمال الجنزورى والمهندس إبراهيم محلب فى مارس ٢٠١٧

مع ابنتى الدكتورة داليا وزوجها الدكتور مصطفى الخضر فى ٢٠١٩

مع ابنى ضابط الشرطة ضياء وزوجته المهندسة مروة الحداد فى ٢٠٠٧

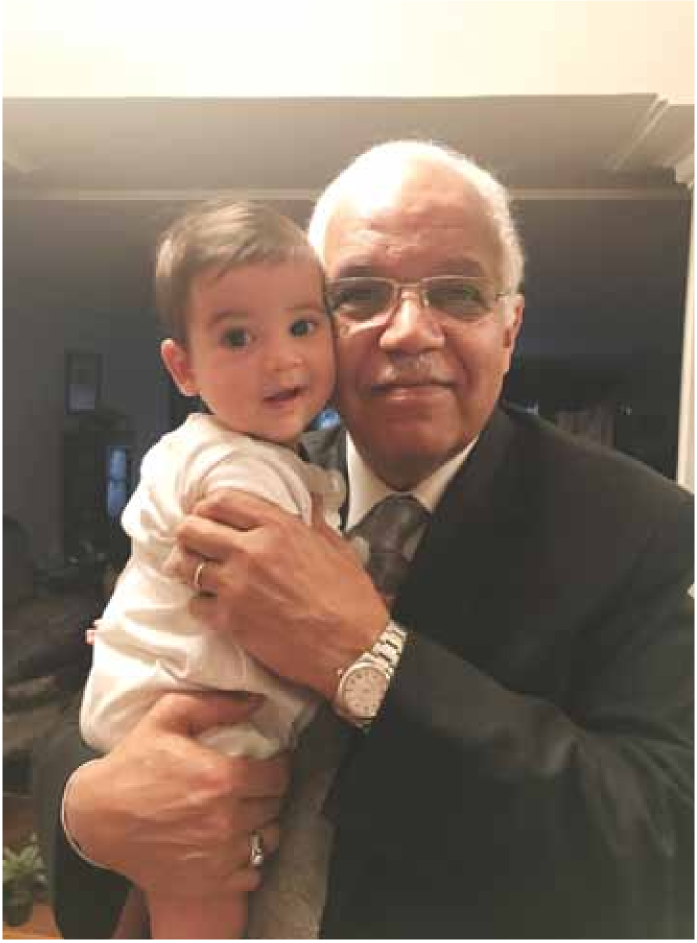

مع أصغر أحفادى يحيى فى ٢٠١٩

أنا وزوجتى نجوى عام ٢٠١٩ وقد أدينا مهمتنا بنجاح

الفصل الثامن عشر

الخاتمــة

الخاتمة

اجتهدت فى فصول الكتاب أن أسجل ما رأيته الأهم فى مراحل حياتى وما شاهدته من أحداث وما توليته من مسئوليات، حيث سرد الكتاب أحداثا ومواقف على مدار ستين عامًا أحسبها الفترة الأهم والأخطر فى تاريخ مصر المعاصر.

ولن أعيد هنا التذكير أو التأكيد على ما أطلع عليه القارئ بالفعل، فالكتاب ما زال بين يديه الكريمتين وهو مدعو للعودة إلى تفصيلاته إذا رأى الحاجة إلى ربط بعض الأمور ببعضها البعض فى ضوء قراءته التى أفترض أنها كانت على مرات متفرقة، إلاَّ أننى رأيت ـ وقد انتهيت من سرد ما أردت ذ أن أشير إلى عدة أمور وجدت أن القارئ قد يهتم بها ويريد إجابات عنها.

أول هذه الأمور يتعلق بسؤال منطقى وهو: أليست هناك ظروف مساعدة وربما بعض الصدف هى التى أوصلتنى إلى الطريق الذى انتهيت إليه وإلى المناصب التى شغلتها وبعض النجاح الذى حققته؟

وإجابتى على هذا التساؤل هى بالإيجاب بكل تأكيد فنشأتى فى عائلة من الطبقة المتوسطة التى رأت فى التعليم الطريق إلى الحراك الاجتماعى والارتقاء الطبقى ووسط أشقاء ينشدون التفوق وأب مؤمن بالتعليم وأم متفانية فى أمومتها، قد دفعنى إلى التفوق الدراسى منذ أوائل الستينيات

حينما كنت من الأوائل على محافظة الجيزة ثم طالبًا بمدرسة المتفوقين ثم طالبًا بكلية الهندسة متخرجًا بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى ثم الاستمرار بعد ذلك فى الدراسة فى أرقى الجامعات العالمية والترقى فى السلك الأكاديمى إلى آخر مراحله، كل ذلك رفع أسهمى وفرصى فى تولى مهام ومناصب متعددة فيما بعد.

ومرتبط بذلك أيضًا الظروف والمصادفات التى قادتنى إلى شغل مناصب قيادية فى الجامعات المصرية لقد أدى تواجدى فى الصورة ومتسلحًا بالمتطلبات الأكاديمية والإدارية وفى توقيتات مناسبة، أن أكون البديل الأنسب لشغل هذا المواقع، كانت عودتى من الكويت بعد الغزو العراقى عام ١٩٩٠ متزامنًا مع مجهودات جامعة القاهرة لإنشاء كلية الهندسة فى الفيوم فأصبحت عميدًا لها ثم نائبًا لرئيس جامعة القاهرة ثم كانت الظروف التى وضعتنى فى مواقع قيادية واشرافية فى جامعة القاهرة مؤدية حتى إلى أن أكون أحد المرشحين لرئاسة الجامعة فى عام ٢٠٠٤ ثم عقب إنشاء جامعة الفيوم فى ٢٠٠٥ كنت أول رئيس لها.

إن انتقالى من العمل الجامعى إلى المواقع التنفيذية التالية محافظًا ووزيرًا كان فيه خليط من التوفيق والمصادفات والاجتهاد علاوة على ما بذلته من مجهود مضن من جانبى ما أوقعنى فى طريق رئيس الوزراء (د.أحمد نظيف فى هذا الوقت) والذى رأى فيما قمت به رئيسًا للجامعة ما يؤهلنى لمواقع أصعب قائلاً إن من يستطيع أن يقوم بما قمت به فى جامعة الفيوم فى سنوات عديدة هو قادر بالتأكيد على قيادة المحافظة بكاملها. كان فى واقعة أن يتعرف الدكتور نظيف على ما قمت به فى جامعة الفيوم كثير من المصادفة.

كان رئيس الوزراء فى زيارة إلى محافظة الفيوم وحضر إلى الجامعة فى زيارة استمرت عدة ساعات ولم يكن مخطط لها أن تكون كذلك وإنما

امتدت لأن جدول زيارته لمحافظة الفيوم احتوى على أحد المواقع الذى لم يجده مناسبًا وغادره غاضبًا وكانت زيارة الجامعة بشكل مطول هو البديل الأنسب الذى رآه القائمون على تنظيم زيارته لمحافظة الفيوم لمعالجة الخلل الذى حدث، ولحسن الحظ فقد كنا فى الجامعة على درجة عالية من الاستعداد وافتتح كليات جديدة ومعامل متميزة، ولكن كانت المفاجأة له هو أننا أنشأنا مستشفيًا جامعيًا جديدًا باستغلال مبان قائمة تم تحديثها وربطها ببعضها البعض وإنشاء أجزاء جديدة ومبان تربطها ببعضها البعض وتجهيز المستشفى بالكامل بالجهود الذاتية ودعم مناسب من الدولة. ومن فرط إعجابه بما رأى فقد أعاد وصفه أمامى للرئيس حسنى مبارك بعدها بأسابيع فى صيف ٢٠٠٧ فى اجتماع للمجلس الأعلى للجامعات حضره الرئيس فى الإسكندرية.

لم أكن قد تشرفت بمقابلة الدكتور الجنزورى قبل أن يدعونى للمشاركة فى حكومة الإنقاذ الوطنى وزيرًا للنقل وأعتقد أن مواقعى القيادية السابقة ومناسبة المجال الذى تعلمته وتخصصت فيه وممارسته لفترات طويلة هى التى ساقتنى إلى طريق الدكتور الجنزورى وهو يشكل الوزارة فى واحدة من أصعب اللحظات فى تاريخ مصر، واعتقد أننى كنت موضع ثقته خلال فترة عمل الحكومة والتى استمرت ثماني شهور وهذه الثقة هى التى دفعته إلى تزكيتى لأكون وزيرًا للنقل فى حكومة الدكتور الببلاوى بعد ثورة ٣٠ يونيو، إلاَّ أننى ولأسباب شرحتها لم أتول الوزارة وقتها وإنما توليت منصبًا آخر وهو محافظ القاهرة.

ويقول اصدقائى إن عملى محافظًا للقاهرة هو الأنجح فى تاريخى فى العمل التنفيذى، واستغرب الكثيرون عندما انتقلت بعد ذلك لأعود إلى وزارة النقل مرة أخرى وكان رأى الكثير منهم أننى حققت نجاحًا ملحوظًا فى القاهرة وخاصة فى ظل الأوضاع المنفلتة التى كانت قائمة والتى جاءت متزامنة مع أحداث ما بعد ثورة ٣٠ يونيه وفى نفس يوم فض اعتصام

رابعة ويقولون إننى وفقت فى مواجهة حالة الانفلات التى كانت موجودة فى هذا الوقت بل وتخطيها انطلاقًا إلى إنجاز مشروعات مهمة فى محافظة القاهرة.

أما ثانى التساؤلات التى قد تتبادر إلى الذهن فتتعلق باسباب خروج المسئول من منصبه وآليات ذلك، وأقولها صراحة أنه فى جميع المواقع التى شغلتها كان هناك تفسير منطقيي للأمور بالنسبة لى شخصيًا؛ فقد تركت موقعى مساعدًا لنائب مدير جامعة الكويت عام ١٩٩٠ بعد وقوع الغزو العراقى فى صيف هذا العام، وتركت موقعى عميدًا لكلية الهندسة عام ٢٠٠١ بعدما أمضيت فيه تسع سنوات متخطيًا الحد الأقصى لشغل الوظيفة والمحدد بستة سنوات وتركت منصب نائب رئيس جامعة القاهرة لتولى منصب أعلى وهو رئيس جامعة الفيوم وهو المنصب الذى تركته بعدها بثلاث سنوات لسببين أولهما أننى كنت على وشك الوصول إلى سن الستين ومعه لا يجيز القانون تولى مناصب قيادية فى الجامعات والثانى لاختيارى لمنصب أعلى وهو محافظ الفيوم وهو الموقع الذى تركته بعدها بثلاث سنوات بسبب الثورة التى طالت رئيس الجمهورية وكذلك جميع المسئولين من الوزراء والمحافظين ورؤساء الجامعات مع أننى بقيت فى منصبى ثلاثة أشهر كاملة من يناير ٢٠١١ وحتى أبريل ٢٠١١.

وكنت أول مسئول تنفيذى (محافظ الفيوم) يعود إلى موقع تنفيذى أعلى (وزير النقل) بعد ثورة يناير حيث عدت إلى الوزارة فى ديسمبر ٢٠١١، وخرجت من الوزارة بعدما انتهت مهمتها فى أول أغسطس ٢٠١٢ بإعلان انتخاب رئيس جديد للجمهورية، وبعدما شغلت منصب محافظ القاهرة فى أغسطس ٢٠١٣ تركته بعد ٣٠ شهر (مارس ٢٠١٦) لشغل موقع أعلى وهو وزير النقل فى مكافأة واضحة على إنجازات تمت فى محافظة القاهرة.

إلاَّ أن أكثر ما أواجه به من استفسارات يدور حول تركى لوزارة النقل فى فبراير ٢٠١٧، وأقولها صراحة أننى لم أشعر أن ذلك قد تم بشكل يمثل أي انتقاص من قدرى أو كفاءتى ولكنها طبيعة الأمور، حيث يؤدى كل منا دوره فى أي موقع ثم يتركه ليتولاه غيره لضخ دماء جديدة وإعطاء الفرصة للمسئول الخارج لالتقاط الأنفاس وربما لبدء مرحلة جديدة فى حياته المهنية والاجتماعية والتى لا بد أنها تكون قد تأثرت بطول غيابه عن مهنته وأسرته.

هذه هى قناعتى الشخصية ويكفى أنه لا يوجد الكثيرون ممن أتيحت لهم فرصة شغل مواقع وزارية أو على درجة الوزير فى خمس مواقع مختلفة ولمدة اثني عشر عامًا متواصلة مثلما كانت هى حالتى.

ثالث هذه الأمور يتعلق بالأسلوب الذى يجب أن يتعامل به المسئول مع الوظيفة العامة، من ناحيتى اعتبرت كل ما شغلته من مواقع تكليف لا تشريف، ولا يمثل كما يرى البعض مكافأة لنهاية الخدمة، ترسخت فى ذهنى منذ الصغر حرمة المال العام، علمنى والدى دون أن يدرى درسًا فى ذلك وهو ما ذكرته فى الفصل الثانى، فى رأيي أيضًا أن المسئول فى موقعه يجب أن تكون قراراته هى نفس القرارات التى سيتخذها الرجل الرشيد لو كان فى نفس الموقع، لا مجال للعواطف ولا للمجاملات ولا للمحسوبية، لا للوساطة ولا سماح بأي تداخل بين العمل العام والمصالح الخاصة لى شخصيًا أو لعائلتى وأقاربى، لا أقبل أن يقترب الأقارب من أي موقع أكون فيه ولا تكون لهم فيه مصالح أو ارتباطات.

رابع هذه الأمور يتعلق بالعلاقة مع المواطن، والرأي عندى أن المسئول مهمته الأولى هى مواجهة قضايا المواطنين والبسطاء منهم قبل الأغنياء والضعفاء منهم قبل الأغنياء؛ ولذلك كان لى اهتمام كبير بحل مشاكل مستعصية خاصة بنقص بمياه الشرب فى محافظة الفيوم وضاعفت من

طاقة محطات الشرب فى وقت قياسى واستكمال مشروعات ضخمة للصرف الصحى كانت متوقفة وقد ذكرت أمثلة لذلك فى الفصل الثامن وكان لى فى محافظة القاهرة اهتمام ملحوظ بقضية مواجهة العشوائيات (الأسمرات على سبيل المثال) وتناول الفصل الرابع عشر بعض هذه المشروعات وكان لى اهتمام كبير بتطوير خدمات النقل العام لمحدودى الدخل والتى تضاعفت أعداد أوتوبيساتها لتصل إلى ٢٥٠٠ خلال عامين، و بذلت مجهودًا كبيرًا فى مشروع لإعادة إحياء القاهرة التراثية والقاهرة الخديوية بالشكل الذى شجع فيما بعد على اعتباره أحد المشروعات المهمة للدولة وتحت إشراف مساعد رئيس الجمهورية. وفى وزارة النقل كنت مهتمًا بالمشروع القومى للطرق ومشروعات مترو الأنفاق وتطوير السكك الحديدية والموانئ وكلها تصب فى مصلحة المواطن البسيط.

أختتم بالتأكيد على أن مفتاح النجاح فى مناصب مثل التى تشرفت بتوليها هو الاستعداد العلمى والمهنى والأخلاقى فى المقام الأول، ثم الالتزام بقواعد صارمة فى الجد والإخلاص فى العمل وكذلك الصدق مع النفس والصدق مع الآخرين، رؤساء ومرؤسين، والقوة فى الحق والرشادة فى الفكر وفى اتخاذ القرار ومراعاة حرمة المال العام والبعد عن الشبهات واحترام الذات واحترام الآخرين ... والتفانى فى حب الوطن والولاء له والحفاظ على ترابه.

الكاتب فى سطور

د. جلال مصطفى السعيد

- **أستاذ جامعى متخصص فى مجال تخطيط مشروعات النقل.**
- **وزير النقل ومحافظ القاهرة ومحافظ الفيوم (سابقا).**
- أستاذ جامعى فى مجال الهندسة المدنية، تلقى تعليمه فى مرحلة البكالوريوس في كلية الهندسة جامعة القاهرة وتخرج بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى وفى مرحلة الدراسات العليا حصل على شهادتين للماجستير من جامعتي القاهرة وماك ماستر (كندا) والدكتوراه من جامعة ووترلو (كندا).
- شغل خلال أكثر من ٤٥ عامًا منذ تخرجه عام ١٩٧١ مواقع متميزة حيث تدرج فى العمل من معيد بكلية الهندسة جامعة القاهرة ثم مدرساً مساعدًا حتى ١٩٨٠ وعمل مهندسًا للتخطيط فى وزارة النقل الكندية ١٩٧٩-١٩٨٠ ثم مدرسًا وأستاذًا مساعدًا بكلية الهندسة جامعة الكويت حتى ١٩٩٠.
- شغل منذ عام ١٩٨٦ مناصب قيادية أكاديمية بدأت بمنصب نائب مساعد مدير جامعة الكويت للتخطيط حتى عام ١٩٩٠ ومنصب عميد كلية الهندسة جامعة القاهرة بالفيوم لمدة تسعة أعوام من ١٩٩٢ وحتى

٢٠٠١ ومنصب نائب رئيس جامعة القاهرة فى ٢٠٠٣ ثم أول رئيس لجامعة الفيوم فى ٢٠٠٥.

- وفى الفترة من عام ٢٠٠٨ وحتى ٢٠١٧ شغل مواقع قيادية ووزارية متعددة بدأت بتولى منصب محافظ الفيوم فى ٢٠٠٨ ووزير النقل فى حكومة الإنقاذ الوطنى فى ٢٠١١ ثم محافظًا للقاهرة فى ٢٠١٣ ثم تولى منصب وزير النقل مرة أخرى فى ٢٠١٦.

- أدى اليمين الدستورية وزيرًا أو محافظًا أمام الرئيس حسنى مبارك والمشير حسين طنطاوى والمستشار عدلى منصور والرئيس عبد الفتاح السيسى، وعمل مع سبعة من رؤساء وزراء مصر بدءًا من الدكتور أحمد نظيف مرورًا بالفريق أحمد شفيق والدكتور عصام شرف، ثم الدكتور كمال الجنزورى والدكتور حازم الببلاوى وانتهاء بالمهندس إبراهيم محلب والمهندس شريف إسماعيل.

- شارك فى عضوية العشرات من المجالس العلمية ومنها المجلس الأعلى للجامعات والمجلس الأعلى للجامعات الخاصة ومجالس جامعات القاهرة وعين شمس والفيوم والأهرام الكندية ومجلس بحوث النقل بأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا وهو عضو بالمجمع العلمى المصرى وهو مؤلف لعشرات الأبحاث العلمية المنشورة فى المجلات العالمية فى مجال تخصصه وشارك فى معظم الدراسات الاستشارية لمشروعات النقل الكبرى فى مصر.

الفهـرس

تقديم ٥
شكر وتقدير ٧
الفصل الأول: مقدمة ٩
الفصل الثانى: البدايات: عيلة مصطفى أفندى ٢١
الفصل الثالث: أنا وأهل مصر: مقتطفات من مرحلة الطفولة والشباب ٣٩
الفصل الرابع: مع خالد عبد الناصر ٥٣
الفصل الخامس: سنوات الدراسة في كندا: ١٩٧٤ ـ ١٩٨٠ .... ٦٧
الفصل السادس: سنوات في جامعة الكويت: ١٩٨٠ ـ ١٩٩٠ .... ٨٧
الفصل السابع: أكاديمى في مهمة رسمية: ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٨ .... ٩٧
الفصل الثامن: من الجامعة إلى العمل العام: محافظ الفيوم ٢٠٠٨ ـ ٢٠١١ .... ١٢٣
قُطبا الفيوم صوفي أبوطالب ويوسف والى ١٣٩
الفصل التاسع: محافظ في قلب الأحداث: ثورة ٢٥ يناير ١٤٧
الفصل العاشر: عصام شرف: رئيس وزراء الميدان ١٧٣
الفصل الحادى عشر: مع الجنزورى: حكومة الإنقاذ الوطنى ٢٠١١ ـ ٢٠١٢ .... ١٨٥

الفصل الثاني عشر: هشام قنديل رئيس وزراء حكومة الإخوان ٢٢٣
الفصل الثالث عشر: الطريق إلى ٣٠ يونيو ٢٣٥
الفصل الرابع عشر: جناب الوالى: محافظ القاهرة ٢٠١٣ ـ ٢٠١٦ ...... ٢٥١
الفصل الخامس عشر: الوزير العائد: وزارة النقل ٢٠١٦ ـ ٢٠١٧ .... ٢٨١
الفصل السادس عشر: إبراهيم محلب ٣٠٧
الفصل السابع عشر: أنا ونجوى والأولاد ٣٢١
الفصل الثامن عشر: الخاتمة ٢٣٧
الكاتب في سطور ٣٤٥
الفهرس ٣٤٧

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠
٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤
٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦
مدخل (أ) - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -
الجامعة الجديدة - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقًا - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور
مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع
دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام
ميدان التحرير - الزقازيق
ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ - ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سِيرةُ جلال

إن هذه المذكرات التي اتخذت عنوان "سيرة جلال" تُظهر بوضوح أن صاحبها في واقع الأمر ما زال هو صاحب العطاء المتميز، وأنه قادر على استمرار العطاء، وهي هادية للجميع، والشباب في المقدمة؛ إذ تحث على التسلح بالعلم وبناء الشخصية المؤهلة والقيادية والقادرة على تحمل المسؤولية ومواجهة الصعاب، وهو الأمر الذي ظهر جليًّا في السجل الأكاديمي الناصع، وفي الجهود والأعمال المتميزة والمواقع التنفيذية والسياسية المتعددة التي احتلها صاحب السيرة في خدمة المجتمع والوطن في مرحلة مهمة من تاريخه.

جزيل الشكر والتقدير للدكتور الفاضل جلال مصطفى سعيد، صاحب هذه السيرة الذاتية ودعائي له بدوام التوفيق.

د. كمال الجنزوري

خطوط الأستاذ: مصطفى الدناصوري
تصميم الغلاف: د. هند سمير

ISBN# 9789779126043
6 221149 059320

١٠٥
جنيهات

الهيئة المصرية العامة للكتاب